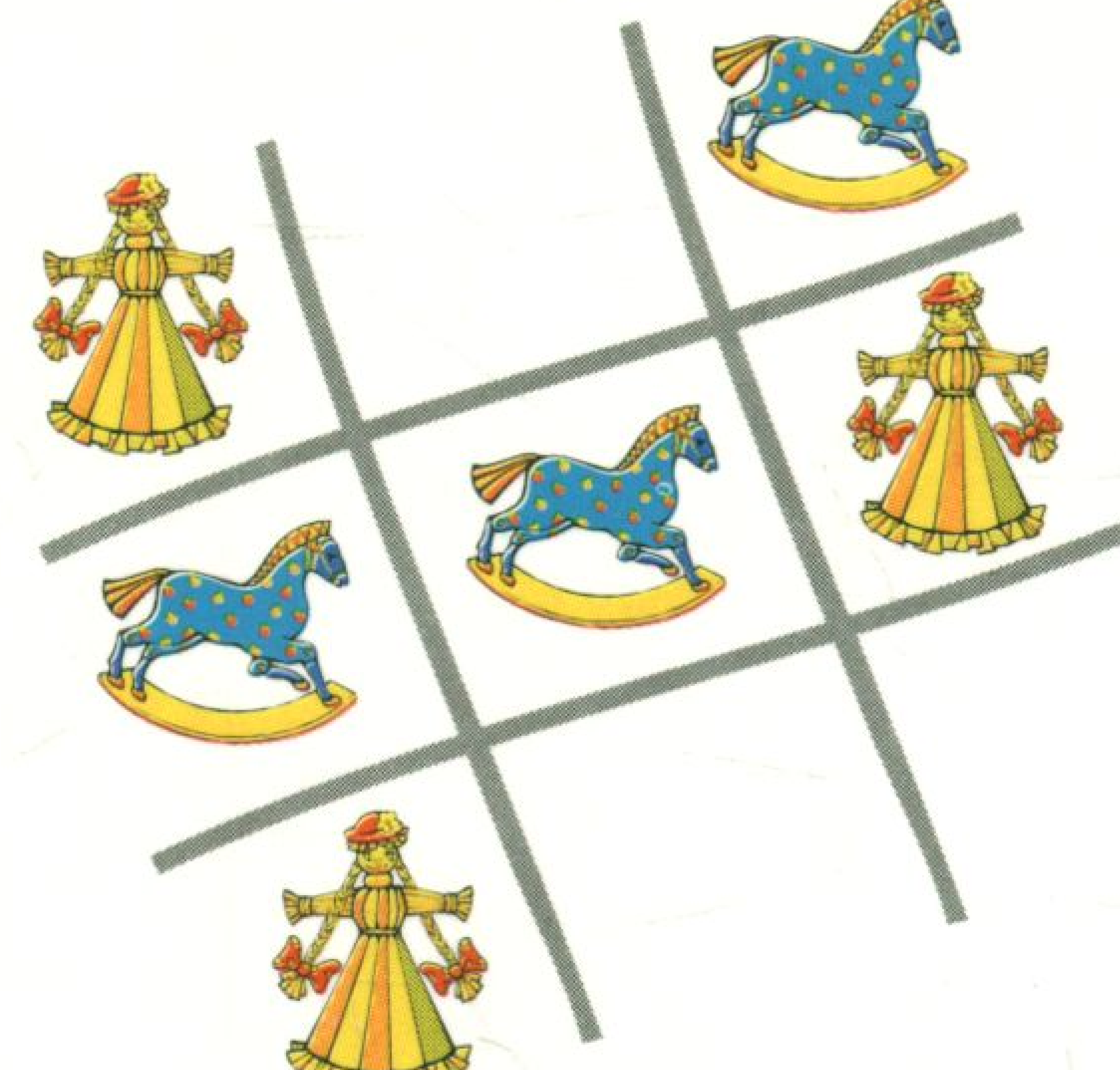
آلين ويلر



الرجل والمرأة





آلين ويلر

الرجــل والمــرأة

أسرار لم تنشر بعد

ترجمة

فاديا عبدوش

عبير منذر





ISBN 9953 - 15 - 092 - 3

العنوان الأصلي لهذا الكتاب باللغة الفرنسية

Les hommes, les femmes, etc.



شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
طريق المطار ـ سنتر زعرور ـ ص.ب: ١١/٨٢٥٤
هاتف/ فاكس: ٠٠ ٩٦١ ـ ١ ـ ٤٥٠٩٥٠ ـ بيروت ـ لبنان
Email: dfarasha@cyberia.net.lb

ملخص المحتويات

تمهيد

كيف خطرت لي فكرة معالجة هذا الموضوع الشيّق، ولِمَ لن تكون قراءة هذا الكتاب مملة؟

بدأت الفكرة تتبلور بعد شجار مع زوجي. أما السبب فهو أنه لم يتكبّد عناء مغادرة الفراش حين نادته ابنتنا البالغة من العمر أربع سنوات، بصرخة مدوية في منتصف الليل. ليست المسألة خطيرة بحد ذاتها، لكن حين عاتبته على تصرفه في الصباح، برر نفسه بأنه لم يسمعها. أجبته بأن هذه الحجة لا تقلي عجّة، فما كان منه إلاّ أن سألني إن كنت أتهمه بالكذب، فقلت له إن أحداً لن يصدّق كلامه. وعند هذه النقطة، تخاصمنا وقررنا ألاّ نتبادل الكلام، وكأننا طفلان في ملعب المدرسة.

وماذا لو كان الرجل أصمّ؟

وبعد ثلاثة أيام، وفيما كنت أقرأ بشرود عناوين الكتب المخصصة لتحسين ظروف الحياة، طالعني كتاب عن الحياة الزوجية، بدا لي عنوانه مسلياً. فتحته، ووقعت على حقيقة غريبة عجيبة: إنّ الرجال، المبرمجين منذ القدم، لسماع أقل طقطقة لغصن يهدد بالانكسار حتى في عزّ نومهم، لا يمكنهم سماع بكاء أطفالهم، مهما علا صوتهم. ولعل هذا يعود إلى الدور الذي اضطلع به الرجل منذ بدء التاريخ، وهو دور الصيّاد وحامي المنزل. ولم يعرض الكاتب هذه النظرية

لينقذ زوجي وأمثاله من الغضب الذي يثيره تصرفهم المعيب، بل لأنه تحقق منها بالوسائل التقنية الحديثة. إذا ما صرّ الخشب ليلاً، يصحو دماغ الرجل، حتى وإن كان غارقاً في سبات عميق، لكن إذا ما صرخت فلذة كبده فدماغه يبقى في خموله العميق.

وفي الليلة ذاتها، وبعد أن اطّلعت على هذه الوقائع، استقبلت زوجي بابتسامة، وكأن شيئاً لم يكن. ولعله ظن يومها أني وقعت ضحية لفقدان ذاكرة جزئي.

وماذا لو كان من مصلحة المرأة أن تعرف الحقيقة؟

اشتريت الكتاب المذكور في اليوم التالي، كما اشتريت الكتب الأخرى التي تعالج الموضوع نفسه. ولملمت ما وجدته من كتب عن علم الأحياء وعلم التشريح وعلم الغدد الصماء، إضافة إلى كتب طبيّة مبسّطة. وقرأت هذه الكتب، قرأتها كلها وبأكملها، من أولها إلى آخرها. وأعترف بأنني تعلّمت أموراً كثيرة، أموراً ينبغي أن نتعلمها في الصفوف الابتدائية، لتسهيل التعايش بين الجنسين، أموراً ينبغي أن تشرح لنا في الطفولة، لتصبح بديهية بالنسبة لنا. فلا نتوقع من الرجل أن يستيقظ ليلاً ليساعد طفله الذي يبكي، إلاّ إذا أيقظناه تماماً، كما لا نتوقع من شخص عاقل أن يلعب بالنار أو يعبث بأسلاك كهربائية أو يجتاز الطريق عندما تكون إشارة السير خضراء. هيا رددوا سيداتي هذا الكلام من بعدي لتحفظنه غيباً، فهو الواقع، وعلينا أن نتعايش معه.

تسلّحت في هذه المرحلة، بمادة غنيّة لأتصرف بتسامح وتساهل مع زوجي في كافة الظروف، ولأتجنب بعض الخلافات غير المجدية.

لم لا يقرأ الجميع كتبي المفيدة هذه؟

أمّا زوجي الذي لم يتابع عملية التثقيف المكثفة نفسها، فلا يزال

يلومني لأنني لا أتذكر أين ركنت سيارتي أو لأنني أثرثر لساعات على الهاتف مع صديقتي التي تركتها للتو.

ولأنه يفتقر إلى ثقافتي الواسعة عن الفروقات الجوهرية والبديهية بين الرجل والمرأة، بقي زوجي على عادته في تضخيم أمور أعرف تمام المعرفة أني لست مسؤولة عنها؛ مما بدا لي غير عادل أبداً.

ولهذا، طلبت منه أن يتصفّح الكتب التي أعادت إليّ رشدي ودفعتني إلى التساهل. فشرع في ذلك، لكنه ما لبث أن صرف النظر عن المسألة، إذ ينبغي الاعتراف بأن هذه الكتب تثير الأعصاب لأن قراءتها صعبة.

لم لا أشرككم بمعلوماتي؟

لنفترض أني صديقتكم وأقدّم لكم في كتاب واحد، كل ما ينبغي معرفته والتوقف عنده في هذا الموضوع. وأرفق به كل ما رأيته وسمعته وجمعته في الحياة اليومية، وأضفت إليه نظريتي الناجحة في المسألة.

ما هو هذا الموضوع؟ ما هي هذه المسألة؟

الفرق بين الرجل والمرأة طبعاً، لأن الرجل والمرأة مختلفان. متساويان إنما مختلفان جداً، منذ الأزل وإلى الأبد. وهنا، لا أتكلم عن الأعضاء التناسلية أو عن الشكل عامة، بل عن الأمور الأخرى كلها. أكرر ما قلته، نعم الأمور الأخرى كلها: الدماغ، الهورمونات، المواقف، التصرفات، الإدراك والتمييز...

وماذا لو كذبوا علينا؟

أنا، نتاج سنوات من النضال من أجل تحرير المرأة، لذا لطالما

اعتقدت أنّ الرجال والنساء متساوون، فاستنتجت حماقةً ومن دون أن أفكر في الأمر ملياً، أننا متشابهون فعلاً. وأنا، التي لطالما مارست مهنتي كندّ للرجل، أو على الأقل هذا ما كنت أقوله لنفسي، حين أرتدي البنطلون كل يوم لأقصد مقر عملي، تطلّب منّي الأمر أكثر من ٤٠ عاماً لأفهم مدى خطئي.

هل كذبوا عليّ؟ هل كذبوا علينا؟ الجواب هو نعم، إلاّ أنني لا أعرف من هم هؤلاء. أوهمونا أننا لا نختلف عن الرجال فطاب لنا الأمر واقتنعنا به. وهم لم يفعلوا ذلك إلا ليمنحونا الطاقة اللازمة لنقاتلهم بأسلحتهم: حسّ المنافسة، التوق للفوز، والحاجة للتغلّب على الآخرين. علماً أنّ أولئك الذين زرعوا هذا الوهم في عقولنا ليسوا من جنسنا.

الرجال يتواجهون، والنساء يتعاونّ، يحتاج الرجال للسلطة فيما تحتاج النساء للتوافق والتناغم. يحكم الرجال على بعضهم البعض وفقاً لنتائج أعمالهم، أما النساء فيحكمن على بعضهن البعض بحسب الوسائل المستخدمة للوصول إلى الأهداف.

لم تتأتَ هذه الاستنتاجات عن إحصاءات غامضة لعيّنات لا تمثل سوى قلة من الناس، أو عن أحكام مسبقة متحيّزة جنسياً. وإنما هي استنتاجات مؤكدة، تدعمها ملاحظات ودراسات علميّة، تقوم على أساس مراقبة أطباع الجنسين، كما حدّدتها الأدوار التي أُعطيت لكل منهما خلال ملايين السنين، وأثّرت على الدماغ وتقسيمه وعلى الهورمونات ونسبة إفرازها، كما يمكن التحقق منها اليوم بواسطة آلة السكانير أو التصوير الصوتي أو تحاليل الدم...

وإذا ما نجحوا في جعلنا نصدّق أنّ الرجال والنساء متشابهون، بالرغم من هذه الأدلة كلها، فليس لأنهم يريدون خداعنا أو الاستهزاء بنا أو زرع الفوضى في علاقاتنا، إنما لمساعدة المجتمع على الانتقال إلى المرحلة التالية.

وماذا لو غيّرنا القيم؟

ها هو العالم خاضع للقيم الذكورية منذ ملايين السنين، وقد رأينا بعض النتائج غير المرضية أبداً. وما إن أصبح تأمين الغذاء والمأوى أمراً سهلاً، حتى فقد الرجل دوره الأساسي فبدأ يدور في حلقة مفرغة، لا يجد منها مفرّاً.

أصبحت القيم الذكورية بالية.

إنّ الروح القتالية تؤدي إلى حرب مدمّرة إذا لم تُستخدم في المواقف المناسبة. ويؤدي حسّ المنافسة الذي نسيء استعماله إلى مزيد من الربح، ويدفعنا إلى بذل جهد أكبر وإلى زيادة الإنتاج، أي أننا نسعى إلى المزيد وليس إلى الأفضل، حتى لو اضطررنا إلى إفساد كل ما يحيط بنا وتلويثه، وإلى اتباع نمط عيش غير طبيعي، يشوبه الخلل، وإلى تناول غذاء غير صحيّ.

لقد آن الأوان، حان وقت استدعاء القيّم النسائية للنجدة، قيَم التناغم والمشاركة والاعتناء بالآخرين والتضامن...

لكن كيف السبيل إلى جعلها تنبعث من رمادها؟.

وماذا لو جعلنا المجتمع نسائياً؟.

ظهر الرد في السبعينات، حين اعتقدت النساء أنهن قادرات على مواجهة الرجال مواجهة متكافئة.

إذا ما قيل لي، قبل أن أبدأ بتسلق قمة ما، إني أنتعل حذاءً رياضياً، لانطلقت في المغامرة بدون تردّد، لكن إذا ما رأيت أني أنتعل خفين لتراجعت. من المنطقي، طبعاً، أن أتأكد مما يقال لي قبل خوض غمار التجربة. لكن النساء لم يفعلن هذا آنذاك، كان مصير العالم بين أيديهن فتأثرن، وطال التأثر لاوعيهنّ.

وكي تتجرأ النساء على المطالبة بمكان آخر تحت الشمس، وعلى التطلع إلى المناصب القيادية، وتبوّء مراكز القرارات، وكي يتمكنّ من استلام السلطة وترويج طريقتهن في التفكير وفي حلّ المشاكل، أخفت النساء حقيقتهن تحت قناع لَبِسْنَه طوال ثلاثين سنة، وهي فترة طويلة ومتعبة. أما اليوم، فلتسقط الأقنعة! يمكننا أخيراً أن نكون على طبيعتنا، نحن والرجال متساوون إنما مختلفون.

مقدمة

الرجل والمرأة متساويان إنما مختلفان

من شكّك يوماً، ومنذ ملايين السنوات، في أنّ الرجال والنساء مختلفون؟ فمنذ بدأ الرجل بالخروج من منزله للصيد، ليعود بقوت للعائلة، وبقيت المرأة في الكهف لتهتم بالنار وترعى الأطفال، توزعت الأدوار وترسّخ الفرق بين الرجل والمرأة، فلم يتكبد أحد عناء الرفض أو الاعتراض... أو حتى التأكيد.

ثم اندلعت الثورة النسائية، وجرفت كل المفاهيم في طريقها، حتى الأمور البديهية. ولكثرة ما كررنا أنّ الرجال والنساء متساوون، ظنّ البعض أنهم متشابهون. وفي النهاية، سلّم الجميع بهذا التكافؤ والتساوي كحقيقة جديدة.

وهكذا، أضحى اعتبار المرأة والرجل متشابهين مبدأ صحيحاً من الناحية السياسية. أشيروا إلى اختلاف أو فرق، وإن كان طفيفاً، فتوصفوا بالرجعيين أو بالمتحيّزين جنسياً أو بأعداء المرأة. لا بل قد تطلق عليكم الأوصاف المذكورة كلها، حتى وإن كنتم من النساء.

وشكّلت هذه الحقبة بداية الالتباس الكبير، التباس في الأدوار: فبعد تحطيم النموذج الذي اقتدى به الناس منذ فجر التاريخ، أيّ نموذج آخر يحلّ مكانه؟ وكيف نهتدي إليه؟ ما هو الرجل؟ ما هي المرأة؟ حسناً، أصبح من حق الرجل اليوم أن يبكي إذا أراد، لكن بما

يفيدني ذلك، باستثناء أن عينيه تدمعان؟ ويحق للمرأة أن تقود شاحنة، لكن الأمر لا يهمني أنا، فأنا لا أكاد أستطيع ركن سيارتي الصغيرة في الشارع حيث أقيم.

ويظهر الالتباس في المشاعر خصيصاً. فإذا كان الرجال والنساء متشابهين، فلا بدّ أنهم يتوقعون الأمور نفسها من الحياة، والحب والزواج بالتحديد. إذاً، لمَ تغضب الزوجة عندما يحتاج زوجها للعزلة؟ ولمَ يسخر الزوج من زوجته عندما تطلب منه أن يصرّح لها عن حبّه بالكلام؟ ولمَ تثور ثائرة الزوجة عندما يؤكد لها الزوج أنه لم يسمع الطفل يبكي ليلاً؟ ولمَ يرمقها بتلك النظرة وكأنها معتوهة لأنها لا تستطيع أن تحدد مكانها على الخارطة؟

النتيجة: التباس وبلبلة.

لطالما لمنا الرجال والنساء لأنهم لا يتحاورون ونصحناهم «بالتواصل». الآن، نجدهم يتكلّمون، إنما لا يتفاهمون، لا بل لا يسمع أحدهم الآخر، ويتفاقم الوضع ليصل إلى حدّ الخلاف في العمل، وفي المنزل. ويظهر الخلاف في العلاقة مع الزميل أو الصديق أو الابن أو الزوج.

وهذا الأمر ليس مستغرباً: فنحن، في الواقع، نتكلم ونتحدّث، إنما لا نتكلم اللغة نفسها. والأسوأ أننا لا نعرف ذلك. فلشدة ما اعتقدنا أننا متشابهون، ظننا أننا نفكر بالطريقة نفسها.

ولهذا، وفي نهاية القرن العشرين، فكّر بعض المراقبين من أصحاب النوايا الحسنة، بتمالك أنفسهم وطرح المسألة على بساط البحث. فأكّدوا بثقة ما عرفناه منذ زمن بعيد وبشكل بديهي: الرجال والنساء مختلفون. لكن لم يعد يكفي الاعتراف بهذا الاختلاف، بل ينبغي برهنته وتقديم الأدلة عليه. وتستند هذه الأدلة إلى ملاحظات

سريرية أخذت عن آلاف الأشخاص، وإلى تقارير عن تجارب علمية في مختبرات مزوّدة بالكاميرات وآلات السكانر، وآلات التصوير الصوتي، وتحاليل الدم، وفحوصات الهورمونات، وفحوصات طبيّة أخرى.

ولا يعنينا هنا برهنة أننا مختلفون جسدياً، فبالرغم من غسل الدماغ الذي تعرضّنا له خلال السنوات الماضية، لا زلنا نتمتع بحدّ أدنى من العقل السليم ونفاذ البصيرة. إنما نقصد إثبات الاختلاف النفسي استناداً إلى تكوين أدمغتنا والهرمونات التي تفرزها أجسامنا.

وها هي النتيجة تظهر: الرجل والمرأة مختلفان، أحدهما ليس أفضل من الآخر أو أسوأ منه، إنما مختلف عنه. لكن تجدر الإشارة إلى أنهما يتساويان في بعض الأمور.

لا نشعر بأننا أحرزنا تقدماً كبيراً بقولنا هذا، إنما كان لا بد أن نقول شيئاً!

أن نتقبّل فكرة الآخر المختلف، يعني أن نتقبّل ألا يفكّر هذا الآخر مثلنا، وألا يتوقّع ما نتوقّعه نحن. وبالتالي، ألا يستطيع أن يمنحنا ما ننتظره منه، لأنه لا يعرف إطلاقاً ما نريده لأننا لم نطلبه منه صراحة. عندئذٍ ندرك أنه لا يسيء إلينا بسبب لا مبالاته، أو عدم خبرته أو طبعه السيء، بل لأنه يجهل مقدار أهمية هذا الأمر أو ذاك بالنسبة إلينا نحن معشر النساء.

وإذا ما تصرّف أحياناً كرجل قادم من كوكب آخر، فلأنه قادم فعلاً من كوكب آخر وهو لا يقصد إحراجنا أمام أصدقائنا.

فإذا ما دعوتِ سيدتي بعض الأشخاص على العشاء، وبعد أن أكلوا وشبعوا، راح أحد المدّعوين يتجشأ بصوت عالٍ، لا بدّ أن تغمر الحاضرين موجة من الاشمئزاز قد تصل إلى حدّ النفور من قليل

التهذيب هذا. وهذا الشعور طبيعي!.

لكن، إن علمت أنّ هذا المدعو مغربي، وأنّ التجشؤ في بلاده علامة تهذيب ومجاملة وأدب، وأنها إشارة إلى ربّة المنزل لإعلامها بأنه أكل كفايته من الطعام اللذيذ الذي أعدّته، فستسامحينه على الفور. فبما أنّه مختلف عنكِ، وبما أنّ هذه هي طبيعته، ومن حقه أن يكون كما هو، ستُظهرين تفهّماً وتسامحاً حياله، وستبتسمين له بلطف. فما رأيك في أن تظهري هذا التفهّم والتسامح حيال من يشاركك حياتك اليومية؟

إنّ الاعتراف بأنّ الآخر مختلف، هو محاولة لفهمه، ولمسامحته، ولمحو الماضي ثم الانطلاق من جديد. عودوا إلى نقطة الصفر ثم تمرّنوا على مهامكم الجديدة! حاولوا عدم التسرع في الحكم على الآخر، فتعتبرونه أحمق أو كسولاً أو رجعياً. تدرّبوا على فهم عقلية الآخر والنقاط التي يختلف فيها أحدكما عن الآخر.

ولعلكم ستحبون هذا التمرين وتقدّرون فائدته إلى حد تعجزون بعده عن الإقلاع عنه. وربما تتوصلون يوماً ما، إلى حلّ الخلافات قبل اندلاعها. وباختصار، ستتعلمون تدريجياً التعايش مع الآخر بشكل أفضل، وهو أمر ممتع للغاية.

فيا أيّها الرجال والنساء، هلاّ حاولتم ذلك؟

الرجل والمرأة مختلفان،
وهنا نحن نتكلم عن الدماغ...

الكتّاب كلهم متفقون على أنّ الفروقات بين الرجل والمرأة ظهرت منذ فجر التاريخ. لنقل إنّ الأدوار، ومنذ عهد رجل الكهف، ولأسباب لا يمكن لأحد أن يفسّرها، وزّعت على الشكل التالي: يخرج الرجال فرادى أو جماعات إلى الصيد، فيما تبقى النساء في مجموعات في الكهف للاهتمام بالنار ورعاية الأولاد. ونتيجة ذلك تأقلم كل طرف مع مهمته وطوّر القدرات اللازمة لإتمامها. وأصبح الرجال أطول وأقوى وأكثر قدرة على المقاومة، بسبب بقائهم لفترات طويلة في العراء، رغم تقلبات المناخ. أما النساء فطوّرن انتباههن، وحسّ المراقبة لديهن، وقدرتهن على التيّقظ والإبصار، بسبب مسؤولياتهن المحدودة بالمكان واهتمامهن بالسهر على المقتنيات الغالية والثمينة.

لِمَ دماغ الرجل مختلف عن دماغ المرأة؟

لا حاجة لأن يكون المرء عالماً في الإناسة (علم الإنسان) ليعرف أنّ نمط الحياة الذي يتّبعه كل منّا يؤثر ليس في بنيته وحسب بل في تصرفاته وأذواقه ومهاراته وكفاءاته وأحاسيسه. . .

إننا نرث الدماغ المناسب لجنسنا

إن ممارسة الأعمال نفسها يومياً، تحدد الطبع للأبد، وهكذا تطوّر دماغ كل جنس تدريجياً وفقاً للمهام الموكلة إليه.

النتيجة: في وقت لاحق، وبعد سنوات طوال، ورثنا العقل المناسب لجنسنا، شئنا ذلك أم أبينا. وتلقّينا منذ الولادة، وبالوراثة، مهارات جنسنا وكفاءاته، إضافة إلى نقاط ضعفه ومحدوديته.

باختصار، نحن مؤتمنون على فروقات جنسينا، فروقات لا علاقة لها، على ما يبدو، بالتكيّف الاجتماعي، إنما بالمجرى الطبيعي لتطوّر الجنسين. واستناداً إلى المفكّرين والمحلّلين الكبار، يبقى الفتيان والفتيات ما هم عليه، وتبقى تصرفاتهم هي هي، حتى وإن عاشوا معزولين عن العالم. فلا شيء يمنع الفتاة من تفضيل اللعب بدميتها والفتى من تفضيل كرة القدم، حتى لو ألبسنا الفتاة ملابس زرقاء اللون، والفتى ملابس وردية.

ما من تحيّز جنسي، ما من تحامل على النساء بل وقائع

منذ حوالى عشرين سنة، صدر مؤلف عن طبّ الأطفال لطمأنة الأهل، يؤكّد أنّ ما من «تصرّف موحّد» لدى الأطفال. وشرح الطبيب كلامه بالقول: «إنّ الفتى يتسلّق الكراسي والسلالم في حين أنّ الفتاة تفضّل أن تطالع كتاباً».

وفي أوج مطالبة المرأة بحقوقها، اعتُبر هذا الكلام تحدياً خالصاً، وهذا بعيد كل البعد عمّا يحاول العلماء برهنته اليوم: فبالنسبة إليهم إن حاولت «الفتاة الصغيرة» أن تصعد السلم فتنظر أين تطأ قدمها، في حين أن «الفتى الصغير» يميل إلى المضي قدماً والتوجّه نحو القمة بتهور وبفروغ صبر. ما من تحيّز جنسي في هذا الكلام، وما من تحامل على المرأة، إنما مجرد وقائع.

تلك وقائع بقيت مجهولة لفترة طويلة. فلم يكن أمام الأطباء، وحتى منتصف القرن العشرين، سوى التشريح لمراقبة الدماغ. ويبدو أنهم اعتادوا العمل على الجنود الموتى، علماً أنّ عدد النساء في الجيش محدود جداً، فاكتفوا باستنتاجات تستند إلى دراسات غير متحيّزة إنما غير مكتملة أيضاً. وبما أنّ النساء والرجال ينتمون إلى الجنس البشري نفسه، ظنّ هؤلاء الأطباء أنهم يستطيعون تعميم نتائج أبحاثهم لتشمل النساء. وعندما حصلوا على دماغ امرأة، وزنوه واستنتجوا أنّ النساء أقل ذكاءً من الرجال لأن وزن أدمغتهن أقل من وزن أدمغة الرجال. إنه استنتاج غبي، أليس كذلك؟ لا سيما وأننا نستطيع، وبحق، أن ندّعي العكس، بوجود آلات علمية متطورة، كالسكانر والتصوير الصوتي لإثبات ذلك. أتريدون أدلة على هذا؟ تعالوا معنا إذاً نستعرض حقائق ثابتة علمياً.

فيمَ يختلف دماغ الرجل عن دماغ المرأة؟

اكتشف العلماء في الستينات أنّ لنصفيّ الدماغ وظائف مختلفة. فالنصف الأيسر مسؤول عن التفكير العقلاني: المنطق، الصواب، الاستنتاج، التحليل، الكلام. أما النصف الأيمن فمرتبط بالتفكير العاطفي: المعلومات البصرية، الإدراك الحسي، الحدس، الخيال، الإبداع. وتبيّن أنّ النصف الأيسر أكثر تطوّراً لدى الرجل في حين أنّ النصفين متعادلان ومتشابهان لدى المرأة. كما يمكن للمرأة أن تشغّل النصفين في آن معاً، الأمر الذي يعجز عنه الرجل.

تجهل المرأة ما تفعله يدها اليسرى.... ويدها اليمنى أيضاً!

إليكم قصة مضحكة، إنما ليست مضحكة كثيراً، كانت متداولة في الستينات: بعد حادث سير، يسأل الشرطي المسؤول عن الحادث، وهو رجل: «كيف وقع الحادث؟»، فأجابه الرجل:

ـ «أؤكد لك يا سيدي، أنّ الذنب ليس ذنبي، بل ذنب المرأة التي تقود السيارة الأخرى أمامي...»

ـ «لكنك أنتَ من صدم سيارتها».

ـ «نعم، فهي أعطت إشارة ضوئية إلى اليسار!»

ـ «حسناً؟»

ـ «لقد استدارت نحو اليسار بالفعل، يا سيدي. أنّى لي أن أتوقّع ذلك، أنا...».

يصعب على المرأة أن تميّز بين يمينها ويسارها، وهذا أمر معروف ومعلوم. ويبدو أنها الحقيقة بالفعل بالنسبة لامرأة من اثنتين، فإذا ما طلبت منها أن تستدير إلى اليمين، يدبّ الهلع في أوصالها.

ويعود ذلك إلى تكوين دماغها، حيث يعمل النصفان في آن واحد. أما الرجل الذي يستخدم نصفي دماغه بالتناوب، فلا يجد صعوبة في الاستدارة إلى اليمين حين يُطلب منه ذلك. لكنه، في جميع الأحوال، يعرف طريقه جيداً.

دماغ الرجل متخصص

واكتشف العلماء أيضاً أنّ موقع بعض الكفاءات يختلف بين دماغ الرجل ودماغ المرأة. فالكلام، على سبيل المثال، يتمركز فقط في النصف الأيسر من دماغ الرجل، في حين أنه يتمركز في نصفي دماغ المرأة. وهكذا، فإن الرجل الذي يتعرّض نصف دماغه الأيسر للضرر يصبح شبه عاجز عن الكلام، بينما تحتفظ المرأة، في الظروف نفسها، بقدرتها على الكلام، وتحافظ على جزء من مفرداتها على الأقل.

فضلاً عن ذلك، يعمل دماغ الرجل بطريقة متخصصة: فلكل جزء من الدماغ كفاءته واختصاصه. وعليه وفقاً للظروف، أن يمرر المعلومات التي يتلقّاها من جزء إلى آخر، وأحياناً من أحد النصفين إلى الآخر، قبل التمكّن من معالجتها، مما يتطلب بعض الوقت. إلاّ أنّ دماغ المرأة يعمل بطريقة أكثر انتشاراً وتوزّعاً: تستطيع المرأة استحضار كفاءاتها وملكاتها كلها بسرعة أكبر، كما يمكنها استخدامها كلها في آن واحد.

دماغ المرأة أكثر ترابطاً

إن كتلة الألياف العصبية التي تصل بين نصفي الدماغ، أسمك بنسبة ٣٠٪ لدى المرأة، مما يسمح بوجود تواصل أكبر بين الخلايا العصبية. كما أنّ الأستروجين، وهو هورمون أنثوي تحديداً، ينشّط الخلايا العصبية ويدفعها إلى إقامة تواصل أفضل في ما بينها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ دراسة أجراها إخصائيو الطب النفسي العصبيّ أظهرت أن النشاط الكهربائي لدماغ الرجل أثناء الراحة يصل إلى ٣٠٪ من طاقته الإجمالية، فيما تبلغ نسبة النشاط الكهربائي لدماغ المرأة أثناء الراحة ٩٠٪ من طاقته الإجمالية. ويبرهن هذا أنّ المرأة، حتى وإن كانت لا تركّز انتباهها، تتلقى المعلومات وتعالجها بصورة آلية.

هذا في ما يتعلق بالمراقبة السريرية، لكن ماذا يمكننا أن نستنتج عملياً؟ الكثير في الواقع.

لكن في البدء، إليكم هذا الخبر. في العام ١٩٩٧، أثبتت عالمة دانماركية في قسم الأعصاب في مستشفى كوبنهاغن، أنّ المرأة تتمتع بذكاء يفوق ذكاء الرجل بنسبة ٣٪، مع أن هذا الأخير يتمتع بحوالى ٤ مليارات خليّة عصبية أكثر من المرأة، كمعدل وسطي (ولعل ذلك يعود إلى ثقل وزن دماغه). وقد أثبتت دراسات كثيرة بعدها نسبة الـ ٣٪ هذه. إنه خبر يهدىء النفوس الثائرة، أليس كذلك؟

صيادو الظبي

يمكن للرجل السويدي المعاصر أن يستخدم كمبيوتر شخصي، وأن يجرّ عربة طفله، وأن يتكلم خمس لغات، لكن تحت قميصه المكويّ والمرتّب ينبض قلب رجل بدائي. أو على الأقل، بهذه الطريقة تفسر الكثيرات من النساء السويديات الهجرة الجماعية التي تُفرغ المنازل والمكاتب، كل خريف، سعياً وراء طقس صيد الظبي التقليدي. فبالرغم من التطوّر التقني وبالرغم من الهجرة نحو المدن، يلاقي موسم الصيد في السويد إقبالاً شعبياً كبيراً، فتقفل المؤسسات والشركات التي تستخدم نسبة كبيرة من الرجال، أبوابها لأسبوع أو اثنين لتجنّب مشكلة تحديد من سيناوب في العمل. كما يمكننا أن نرى لافتات كُتِبَ عليها «في الصيد» على أبواب مراكز الشرطة والمدارس في الريف.

كوريه انترناسيونال، ٢٩ تشرين الثاني ٢٠٠٠

كيف يختلف دماغ الرجل عن دماغ المرأة؟

عندما نستعرض أوجه الاختلاف بين الرجل والمرأة وتأثيرها على نظرة الجنسين إلى العالم وعلى قدراتهما وطريقة تصرفهما، قد تجد بعض النساء أن الوصف المذكور لا ينطبق عليهن وربما يصل بعض الرجال أيضاً إلى الاستنتاج نفسه.

ولهذا الأمر تفسيران.

عند التكوين كل البشر X (الكروموزوم الأنثوي)

سنستهل كلامنا بالعموميات، ولا نخطىء حين نؤكد أنّ «الرجل أطول من المرأة». لكننا نتحدث هنا عن المعدل الوسطي واستناداً إلى الإحصاءات، حتى وإن كنا نلتقي يومياً بنساءٍ طويلات القامة ورجال قصارها.

فضلاً عن ذلك، يتكوّن الإنسان من ٤٦ صبغيّة (كروموزوماً)، يأخذها مناصفة عن والده ووالدته. وتكون صبغية الأم الـ ٢٣ صبغية X (تأخذ شكل هذا الحرف)، في حين أنّ صبغية الأب الـ ٢٣ تتغير وتحدد جنس المولود: فإذا ما كانت X، وُلدت البنت، وإذا ما كانت Y وُلد الصبي. لكن، يبدو أننا كلنا في بدء التكوين نكون X، ونبقى من دون جنس محدد حتى قرابة الأسبوع السادس من الحمل، مزوّدين

بدماغ أنثوي المظهر هو بخصائص وراثية ضرورية ليكتمل تكوين الجنين كأنثى أو كذكر.

بعد هذه المرحلة، إذا كان الجنين صبياً (أيّ أنّ الصبغية ٢٣= X Y) يبدأ بإفراز كمية كبيرة من الهورمونات الذكرية لا سيما التوستسترون، بغية تحديد هويته الجنسية: الصفات الوراثية وخصائص الدماغ أيضاً.

صبي مخنّث وفتاة مسترجلة

تصوّروا أن كمية الهورمونات (في ١٥ إلى ٢٠٪ من الحالات) ليست كافية، في بعض الأحيان، لإكمال المهمة. من المؤكد أن كمية الهرمونات ستكون كافية لتحديد جنس المولود، لأن لهذه الناحية أولوية في التكوين؛ أما في تكوين الدماغ فالنقص واقع لا محالة. فنجد من ناحية صبياً يكبر وعقله يتمتع ببعض القدرات النسائية. ومن الناحية الأخرى، إذا كان الجنين أنثى وأفرز جسمها كمية من الهورمونات الذكريّة قد تكتسب هذه الفتاة بعض الخصائص الذكريّة. وتنطبق هذه الحالة على ١٠٪ من الفتيات.

ويقدّم بعض الباحثين أسباباً لهذا الإفراز المتقلّب للهورمونات، كالضغط النفسي الذي يضعف الهورمونات الذكرية، في حين أنّ بعض الأدوية يعزز إنتاج هذه الهرمونات، لا سيما تلك المستخدمة لعلاج داء السكّري.

وهؤلاء الباحثون يفسّرون بالطريقة نفسها ظاهرة اللواط والسحاق: إفراز مضطرب وغير منظّم للهورمونات الذكرية أو الأنثوية، في مرحلة دقيقة من نمو الدماغ، أي ما بين الأسبوع السادس والثامن من الحمل.

باختصار، يمكنك أن تكون «رجلاً مكتمل الرجولة، حتى لو كنت تبكي وتحب السكاكر»، على حدّ قول لويز دو فيلمورين.

ولا يفترض أن تنطبق علينا خصائص الذكورة أو الأنوثة كلها لنكون رجالاً أو نساءً بكل ما للكلمة من معنى.

للرجل والمرأة خمس حواس لا سيما للمرأة

التنقلات البعيدة، وضع الاستراتيجيات، تحديد الموقع في مكان مجهول، التركيز على هدف واحد وغاية واحدة، التمتع بالقوة والشجاعة والمقاومة والاستخفاف بالخطر حتى حمل الغذاء إلى المنزل، وتسجيل الانتصارات: هذه هي حصة الرجل في الحياة.

التنقّلات القريبة، مراقبة المحيط القريب، ضرورة ملاحظة التغييرات البسيطة في الديكور وفي الهواء وفي الجو، واستباقها، القيام بأشغال عدّة في الوقت نفسه، نظراً لتنوّع المهام التي ينبغي تنفيذها، تطوير العلاقات الإنسانية الجيدة مع صديقاتها في الكهف نفسه، نظراً للاختلاط الذي لا مفر منه معهن: هذا هو قدر المرأة.

عاش الرجل والمرأة، طوال ملايين السنين، في المحيط نفسه، لكنهما لم يعيشا الحياة نفسها. ونتج عن ذلك جنس واحد، ونوعان: الأنثى والذكر.

وهكذا، حبت الطبيعة حواس الرجل والمرأة قدرات ساعدتهما على ضمان استمرارية جنسهما البشري. وبالنظر إلى الخطر الذي كان الرجل يتعرض له في بداية حياته على هذه الأرض، من المنطقي جداً أن نفترض أن حواسه كانت في أفضل حال ممكنة، لتساعده على فهم ما يحيط به والتعامل معه. لكن العكس هو الصحيح في الواقع. لماذا؟ لأنه لم يكن لدى الرجل سوى مهمة وحيدة حتى وإن كانت حاسمة. أما المرأة فكانت، منذ ذاك الوقت، تتحمل مسؤوليات

متنوعة وعديدة.

ويترجم هذا الواقع، حالياً، كما يلي: كافة الدراسات التي أُجريت منذ أكثر من عشرين سنة تؤكد تفوّق المرأة في ما يتعلق بالإدراك.

فهي قادرة على اكتشاف أيّ تغيير، وإن كان طفيفاً، في محيطها، بواسطة حواسها الخمس.

وهذا ما يُعرف «بالحدس الأنثوي»، ولعلّ هذا ما يدفع الرجال إلى نعت النساء بالساحرات؛ لأنهم لا يتمتعون هم بالقدرات الإدراكية نفسها.

إنها، في جميع الأحوال، حقيقة يجب أن نرضى ونقنع بها.

الأنوثة الحقيقية على الهاتف

يا هواة الأمثلة عن الفروقات بين الجنسين، استمتعوا بما يلي: نعم، النساء يتصلن أكثر من الرجال ويمضين وقتاً أطول على الهاتف... أظهرت نتيجة دراسة أُجريت في ألمانيا والمملكة المتحدة، وإيطاليا واسبانيا وفرنسا أنّ النساء هن اللواتي يستخدمن الهاتف أكثر في العائلات التي طرح عليها السؤال... في الواقع، لا يستخدم الرجل والمرأة الهاتف للهدف نفسه. فبحسب الباحث جيرار كليس Gérard Claisse: «اتصال المرأة الهاتفي لا يهدف غالباً إلاّ للتواصل ما بين الأشخاص، فهو إذن هاتف ـ كلام. أما اتصال الرجل فله هدف معيّن، كتنظيم جدول أعماله أو نشاطاته، فهو إذن هاتف ـ وسيلة».

جان ميشال نورماند

لوموند ـ ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٠

المرأة ترى والرجل ما زال يبحث

ما من امرأة لم تواجه هذا الموقف مراراً: تسمعين من الغرفة المجاورة شكوى مستاءة تقطع عليك لذة قراءة مجلتك: «ألا يمكنكِ أن تتركي الأغراض في مكانها؟ لا أجد علبة اللبن. أتتعمدين ذلك؟». أما الشاكي فهو الزوج أو الأخ أو الأب، لكنه رجل بالتأكيد. رجل تودّ المرأة لو تصفعه بدون تفكير. تضعين المجلة جانباً وتقفين. تتوجهين إليه وتعطينه علبة اللبن وأنتِ تصرّين على أسنانك. وأين كانت العلبة؟ في مكانها، بالطبع. في هذه المرحلة، نحن أمام شخصين في أوج غضبهما، وأحدهما مخطىء بالطبع، أليس كذلك؟ لكن هذا لا يمنعه من إطلاق تنهيدة انزعاج طويلة. المشكلة الحقيقية هي أنه أزعجها من دون داعٍ، إنما تبريره الحقيقي هو أنه لم يرَ علبة اللبن فعلاً، بالرغم من بحثه عنها، لماذا؟

لأن الرجل لا يرى ما تراه المرأة.

نظرة الرجل محدودة ونظرة المرأة شاملة

منذ كان الرجل صيّاداً، طوّر قدراته البصرية بشكل محدد وبعيد المدى. فأصبح مجال النظر لديه ضيقاً بحيث يرى الطريدة، ولا تغيب عن ناظريه حتى يصيبها ويحملها بعد ذلك إلى أسرته. لهذا، عندما يحاول الرجل أن يحدد محتويات خزانة ما، يتأملها من اليمين إلى اليسار ومن ثم من الأعلى إلى الأسفل، مع تحريك الوجه كله.

أما مهمة المرأة، ومنذ القدم، فهي حماية محيطها القريب كله. أيّ تفصيل صغير يجب أن يستنفرها، لهذا طوّرت مجال رؤية واسعة وشاملة. وهكذا، تزوّدت المرأة بقدرة تسمح لها برؤية من زاوية ٤٥ درجة من ناحيتي الوجه، فضلاً عن زاوية ٩٠ درجة أمامها، أيّ ما يعادل ١٨٠ درجة تقريباً في طرفة عين. النتيجة: يمكن للمرأة أن تحدد محتويات الخزانة بنظرة واحدة من دون أن تحرك عينيها أو بالكاد تحركهما!.

لهذا، إذا كنتِ امرأة، وإذا لم يرَ أحد الرجال من محيطك ما هو تحت ناظريه، فتسلّحي بالصبر قبل أن تصفيه بالعاجز، وأجيبيه: «هل نظرت في أعلى الخزانة، إلى اليمين؟». بعد أن تعطيه هذه المعلومات المحددة، سيشغّل نظره المحدد وسيجد ما يبحث عنه.

نظر الرجل مباشر. لكن ماذا عن نظر المرأة؟

لهذا الفرق في الإدراك آثاره على كافة نواحي الحياة. فاستناداً إلى شركات التأمين، مثلاً، المرأة أقل تعرّضاً لحوادث السير عند مفترقات الطرق. وهذا أمر طبيعي، لأنها ترى الجوانب بصورة آلية. لكنها، من جهة أخرى، أكثر عرضة للاصطدام عند ركن سيارتها بين سيارتين. طبعاً، فلكلٍ منا نقاط ضعف ونقاط قوة...

من ناحية أخرى، يفسّر هذا الفرق واقع أنّ المرأة تضبط زوجها دائماً بالجرم المشهود حين يتأمل قوام امرأة أخرى، إذ يستحيل ألاّ تلاحظ نظراته الثابتة والمركّزة.

لا نقول هنا إن المرأة لا يغريها النظر إلى شيء أو إلى أحد إلا أنها تستطيع أن تحقق رغبتها بتكتّم شديد، فتفلت من العقاب. هل يذكّركم هذا بالخبث؟

الرجل يسخر من التفاصيل

وينطبق الأمر نفسه على التفاصيل والألوان. فعندما نطلب من رجل أن يصف لنا لباساً ما أو قطعة أثاث أو مشهداً ما نظن أنه يكتفي بالحدّ الأدنى من التفاصيل عن سوء نيّة. لكنه، في الواقع، عاجز عن تقديم ما هو أفضل من ذلك.

يهزأ دماغ الرجل بالتفاصيل، فيتجاهلها ببساطة وهدوء، ويعيش من دونها عيشة هنيئة. دماغ الرجل يركّز على الأمور المهمة، وفق سلّم القيم الذي ورثه. أن يكون على الماموث (فيل ضخم منقرض) بقعة أو اثنتان، أو أن يكون قرنه متضرراً بعض الشيء، أمر لا يهم الرجل، بل يطرح على نفسه أسئلة عمّا إذا كان يؤكل، وعن إمكانية صيده، وبأسرع وقت ممكن، كي يعود سريعاً إلى منزله، حيث الدفء؟. إذاً، يطلب الرجل من دماغه، أن يقيّم سرعة الحيوان ووجهته، ليطلق النار ويصيبه ويحمله كغنيمة إلى منزله.

ماذا عن الألوان؟ تضم العين حوالى ١٠٠ مليون خليّة مستطيلة، تميّز الأبيض والأسود، و١٠ ملايين خليّة مخروطيّة الشكل تميّز الألوان الأخرى. ومن يؤمّن الخلايا المخروطيّة؟ الصبغة X طبعاً. ومن الذي يتمتع بعدد أكبر من هذه الصبغية؟ المرأة طبعاً. ومن الذي يتحدث دائماً عن اللون الأزرق؟ الرجل بالطبع. لكن من يحدد قائلاً: أزرق فاتح، أزرق فيروزي، أزرق سماوي؟...

نلاحظ أنّ الرجل، المبرمجة عيناه ليرى عن بعد، يضطر دائماً إلى إعادة ضبط نظره ليستطيع الرؤية عن قرب مما يسبب له تعباً في النظر، وعدم قدرة على تأدية الأعمال الدقيقة باتقان، وتدوم هذه الحالة وقتاً طويلاً نسبياً. أيهمل سريعاً المهمة التي توكل إليه على الكمبيوتر؟ ليس الذنب ذنبه، وهو لا يتعمّد القيام بذلك، إنها مسألة نظر وحسب...

المرأة تتكلم بعينيها أيضاً

أخيراً، إذا ما لاحظنا أنّ عيني الرجل أكبر من عيني المرأة، بسبب ماضيه كصياد، حيث كانت عيناه تشكّلان المنظار الذي يسمح له بأن يرى عن بعد وبوضوح، فنلاحظ أيضاً أنّ بياض عينيه أصغر من بياض عيني المرأة. ويُفسّر هذا الأمر بحاجة النساء إلى التواصل عن قرب، لا سيما في علاقة الأم بطفلها: بياض العين الواسع يسمح بالتعبير عن مجموعة كبيرة من الأحاسيس والمشاعر وبإرسال إشارات متنوعة وكثيرة. ما هو الدليل؟ بياض العين لدى الحيوانات التي لا تستخدم هذا النوع من التواصل، كالطيور مثلاً، يكاد يكون معدوماً.

أحياناً، ولحسن الحظ، يسجّل الرجل بعض النقاط. لقد ثبت مثلاً أنّ الرجل يرى أفضل من المرأة ليلاً عن بعد. وإذا ما ربطنا هذا الأمر بقدرته المكانية، التي سنأتي على ذكرها لاحقاً، نجد أنّ بإمكانه أن يقود السيارة بسهولة ليلاً، في حين أنّ المرأة تعترف، في الظروف نفسها، بعدم قدرتها على تمييز حتى وجهة السير، إن لم تستعن بالأضواء. إذا ما قررتما القيام برحلة طويلة ليلاً، فدعيه يقودا.

المرأة تسمع، الرجل يرهف السمع

ما من داعٍ لإطالة التشويق: إنّ أداء المرأة أفضل من أداء الرجل على صعيد السمع.

وهذا ليس بحسنة في بعض الأحيان، فمن يسمع بكاء الطفل ليلاً؟ أمه بالطبع. وينطبق هذا أيضاً على صوت الحنفية التي يتسرّب منها الماء، وخرير النبع، ومواء الهرّة الصغيرة التي تعاني من الأرق.

الرجل لا يسمع جيداً، لكنه يحمي جيداً

بالمقابل، حين يتعلق الأمر بالقبض على الهرّة، نجد أنّ الأب ماهر في ذلك. ويعود الفضل في ذلك إلى قدرته على التوجّه، التي تساعده على إيجاد مصدر الصوت. لكن يبقى السؤال: من ذا الذي سيترك الفراش ليجبرها على السكوت؟ وهنا نحن نتكلم عن الهرّة الصغيرة طبعاً!.

لنتخيّل الآن حركة أو ضجة قد تعرّض المنزل للخطر، كباب البيت الأمامي الذي يصّر وكأن أحدهم يحاول فتحه، أو غصن شجرة يطقطق مهدداً بالانكسار. سيسمعهما الرجل بالتأكيد!. في هذه الحالة، ليس الأمر مجرد إدراك، بل قدر ودور فطري يقضي بحماية المنزل.

سمع المرأة مرهف

أضف إلى ما تقدّم، أنّ النساء يتمتعن بشكل عام «بسمع مرهف»، يسمح لهن بتمييز الأصوات وتصنيفها. أما النتيجة الأولى لذلك فهي

أنهن قادرات على تقليدها بشكل أفضل، مما يفسر واقع أنّ من بين عشرة أشخاص يحسنون الغناء نجد رجلين فحسب.

وللسبب نفسه، يمكن للمرأة، وبكل سهولة، أن تتابع حديثين في الوقت نفسه، حديثك سيدي وحديث الأناس الجالسين إلى طاولة قريبة منكما في المطعم. صحيح أنّ هذا الأمر مزعج، لكن لا داعي للانزعاج منها، فهي تصغي إليك فعلاً...

أخيراً، اعلم سيدي أنّ المرأة لا تتصرف ببطولية حين لا تصرخ بحنق: «أخفض صوت التلفزيون»، وهي تجيب على الهاتف. فهي، وخلافاً للرجل، قادرة على إجراء محادثة على الهاتف بدون أن تزعجها عناوين الأخبار.

الرجال لا يستمعون، حتى وهم صغار في السنّ

تظهر هذه الموهبة السمعية منذ الصغر، فالطفلة الصغيرة البالغة من العمر أسبوعاً، تعرف على ما يبدو صوت أمها، في حين أنّ الصبي عاجز عن ذلك في السنّ نفسه. في سنّ المراهقة، يصاب بعض الصبيان بحالة مؤقتة من الصمم، وهو أمر طبيعي، وترانا مجبرين على مراجعة ناظر المدرسة غالباً، حيث نسمع شكاوى من قبيل: «إنه لا يحتمل، فهو لا يستمع إلى ما نقوله». في الواقع، لا يسمع الصبي جيداً. أما السبب فهو أنّ الأقنية السمعية، عند دنو سن البلوغ، تتعرّض لنمو متزايد، مما يؤثر سلباً في السمع ويؤدي إلى خلل فيه.

لكن الأمور تعود إلى نصابها لاحقاً، لحسن الحظ، وفي الوقت المناسب، لتسمح بمحاسبة الرجل على أخطائه، فهو لا يسمع بشكل سيء وحسب، بل لا يصغي إلينا بالذات أيضاً. وهنا، وبكل صراحة، الذنب ذنبه، أليس كذلك؟ هذا على الأقل ما نعتقده، ومن دون سوء نية، ما لم نتعمّق أكثر في التحليل، الذي سيتولّى أمر إثبات العكس.

المرأة تشمّ،
الرجل يتنفس

يكاد الأمر يصبح مغيظاً، لكنه الواقع: من الغالب برأيكم في فئة الشمّ؟ المرأة بالطبع. وهنا، إليكم حجّة دقيقة: المرأة تشمّ أفضل من الرجل في حالتها الطبيعية. لكن حين تكون في مرحلة الإباضة، تحطّم أرقامها القياسية. كيف يُفسّر هذا الأمر؟

لننطلق من مبدأ أوّلي: المرأة تنجب الأطفال. ربما تقولون: «وأخيراً، هذا مبدأ لن يصدم أحداً، في الوقت الحاضر على الأقل». في هذه الحال، حين تلعب المرأة دور حماية الجنس البشري من الانقراض تساعدها حاسة الشمّ على معرفة ما إذا كان جهاز المناعة لدى الرجل القريب منها قوياً ومناسباً لها. إنما يتمّ ذلك بطريقة لا إرادية لا تعيها المرأة ولا الرجل. هذا الرجل أب محتمل، لا بل أب مُستحبّ، بما إنّ جهاز مناعته القوي يضمن الحياة للطفل المنتظر. وفي هذه الحالة، لن تقول المرأة بالطبع لصديقتها الحميمة: «لقد صادفت رجلاً ذا جهاز مناعة رائع!»، بل ستقول لها إنه رائع أو وسيم أو ساحر. قد تتحدث عن حبّ من أول نظرة، حب عظيم لا يمكن فهمه أو تفسيره. ستهتزّ مشاعرها، وستنتظر ليتصل بها وكأن حياتها وقف على هذا الاتصال. ستبقى قرب الهاتف للتأكد مراراً وتكراراً من أنّ السماعة في مكانها. كما سترفض أيّ دعوة أخرى على العشاء، لاقتناعها بأنّ عليها أن تعيش قصة الحب هذه وليس غيرها.

علماً أنها تتقيّد، في الواقع، بالقواعد الأساسية والضرورية للحفاظ على الجنس البشري ليس إلاّ. إنه أمر منفّر، أليس كذلك؟ وبعيد كل البعد عن الرومانسية...

المرأة حساسة، والرجل يقاوم أحاسيسه

لمس، يا لهذا الفعل الغريب! لكن لنكن واضحين: لا يتعلق الأمر هنا باكتشاف من يلمس أفضل من الآخر أو من يحب أن يلمس أكثر من الآخر، بل كيفية عمل هذه الحاسة لدى الذكر والأنثى.

لنبدأ بالعموميات: الجلد ومساحته حوالى ٢ متر مربع، مزوّد بـ ٣،٥ مليون مستقبِل (يتلقى الأحاسيس). الخبر السيء أنّ غالبيتها (٢،٨ مليون) مخصّص للإحساس بالألم، لكن ولحسن الحظ، هناك حوالى ٥٠٠,٠٠٠ منها مكرّسة للإحساس باللمس. ننطلق إذاً من تعادل بين الجنسين. إنما ما ذنبنا إن كان جلد الرجل أكثر سماكة؟!

لماذا؟

تذكروا ماضي الرجل: الصيد، الركض في الأدغال، تحمّل خدوش الحيوانات والنبات، فضلاً عن مقاومة البرد. ولمقاومة الألم... لا بدّ من جلد سميك أشبه ببزة تقيه مما قد يؤذيه.

كما أن ظهر الرجل كان معرّضاً للاعتداءات أكثر من بطنه. لهذا فجلد ظهره أسمك بأربع مرات من جلد البطن.

الرجل لا ينفعل لأدنى إثارة

أما نتيجة هذا الواقع القديم على الإنسان المعاصر، فهي أنّ المستقبلات الحسيّة الجلدية لا تزال موجودة لدى الرجال، لكنها لا

تعمل جيّداً. وبالتالي، نجدهم لا ينفعلون لأدنى إثارة. فيما تظهر النساء، وكمعدل وسطي، حساسية على اللمس أكثر بعشر مرات من حساسية الرجال.

أظهرت دراسة موثوق بها، أنّ الرجال الأكثر حساسية، من بين الخاضعين للاختبار، هم أقل حساسية على اللمس من النساء الأقل حساسية.

كما تبيّن، ونتيجة لما تقدّم من دون شك، أنّ هناك احتمال أن تلمس المرأة صديقتها، أثناء تبادلهما الأحاديث، خمس مرات أكثر من رجلين يتحدثان معاً. فضلاً عن ذلك، إن رؤية امرأة تمسك بيد أخرى في الشارع تلفت الأنظار أقل من رؤية رجلين في الوضع نفسه.

لمسة فيها الشفاء

تجدر الإشارة أخيراً، إلى أنّ حاسة اللمس ليست حاسة لا قيمة لها. والدليل على ذلك، تجربة أُجريت على قرود صغيرة: ففي غياب أيّ ملامسة جسديّة، تقع هذه القرود ضحية المرض أو الاكتئاب.

ولمزيد من الدقّة، إليكم هذه الملاحظة عن الأطفال الرضّع: أولئك الذين تعلّمت أمهاتهم أن «يلمسنهم» وأن «يداعبنهم» هم أقلّ عرضة للمشاكل الصحية البسيطة، كالرشح والإسهال والتقيؤ...

ويمكن أن نستنتج من ذلك أنّ النساء اكتسبن هذا التصرّف بهدف زيادة حظوظ بقاء الجنس البشري، أو لا يُقال إن الحاجة أم الاختراع؟!

اللمسة المثيرة... للغضب

إذا كانت المرأة تتمتع بإحساس مرهف باللمس فَلِمَ يُعرف عنها أنها

تنزعج عندما يلمسها أحد؟ لأنّ المستقبلات الحسيّة الجلدية العديدة لديها تتوزّع بشكل متناسق على جسمها كله. ولأنّ الأزواج يجهلون ذلك حتى اليوم، ويميلون إلى التركيز على منطقتين أو ثلاث من جسم المرأة، ويصعب عليهم أن يهتموا بغيرها.

لا سيّما وأنّ العكس ينطبق على الرجال، لهذا يمكننا أن نتخيّل الالتباس.

حتى الألم، لا يشعرون به أحياناً!

بالإضافة إلى ما ورد سابقاً، يقف الرجال موقفاً مبهماً إزاء الألم. ففي الحياة اليومية، تبدو عتبة مقاومة الألم لدى الرجال أدنى منها لدى النساء، ويمكن لأخف وجع أن يطرحهم في الفراش. لذلك، نراهم يئنون، وينوحون ويشتكون، ويطالبون بالعناية والمساعدة والمساندة حتى لتظنّ أن ساعتهم الأخيرة قد دنت.

في حين يظهر الرجال، في ظروف معيّنة، لا سيما في المباريات الرياضية، شجاعة لا تضاهى، وقدرة على إنهاء مباراة ما بالرغم من إصابتهم بالتواء في الكاحل، وورم في الربلة يجعل حجمها يتضاعف.

التفسير؟ دماغ الرجل المتخصّص المنظّم. إن دماغ الرجل منظّم، فإذا ما خاض مباراة، يركّز جهوده عليها. ولا يعني هذا أنه يقاوم الألم، بل لا يشعر به أو لا يكاد يشعر به، لشدّة ما يركّز على الهدف الذي يريد الوصول إليه. لكن انتظروا حتى يعلن الحكم نهاية المباراة، فسيعود ذاك الجريح المثير للشفقة الذي يحتاج إلى مساعدة الآخرين.

المرأة تتذوق، الرجل يكسب التقدير

إنّ حاسة الذوق لدى النساء أكثر قوة أيضاً. ويعود السبب في ذلك مجدداً إلى دورهن القديم: فهن الموكلات بالقطاف، وبتذوّق الأطعمة التي سيقدمنها لأطفالهن. وتعود إليهن مسؤولية الحكم على ما إذا كانت الأطعمة قابلة للاستهلاك أم لا. وبما إنّ الطفل يميل غريزياً إلى المأكولات الحلوة المذاق، نجد أنّ المرأة تخصصت تدريجياً في هذا المذاق. كما أنّ لديها ميلاً تكشّف مؤخراً؛ فالنساء هن اللواتي يأكلن من دون هوادة السكاكر والحلويات، فيما يفضّل الرجال الطعم المالح والمرّ، من لحم وصلصات ولحوم مقددة ومشروبات مرّة الطعم. ولنكمل النظرية، نضيف أن الطعم الرابع، أيّ الحامض الحاد، غير مستحبّ من قبل الجنسين لا سيما في أوروبا الغربية

المرأة «ذوّاقة» أكثر من الرجل؟!

يا له من إعلان سيثير غضب الكثيرين واضطرابهم! «وماذا عن الطهاة الكبار، أليسوا كلهم من الرجال؟» بلى، هذا صحيح. إنهم رجال فعلاً. لكن، نظراً لعددهم المحدود، يمكننا أن نعتبر الأمر استثناءً. فإن الطاهي الكبير، هو أيضاً متعهد كبير، وهذا موضوع آخر ومختلف. أخيراً، وإذا ما اعترفنا بأنّ الذوّاقة هم من الرجال، فالحلويات بقيت من اختصاص النساء. أرأيتم!.

الرجل والمرأة موهوبان
لكن يمكنهما تقديم أداء أفضل

إذاً، عندما تصدم المرأة مقدمة سيارتها وهي تركنها، ليس الذنب ذنبها، بل ذنب عدم قدرتها على تحديد الاتجاهات. وحين يضيف الرجل مقداراً مفرطاً من الملح والبهار إلى سلطة أعدّت باتقان، لا يفعل هذا لأنه شخص فظّ، بل لأنه يشعر وكأنّه يتناول التبن إن لم يفعل.

هذا ما يجعلنا نرى الأمور من منظار مختلف، فالعالم هو هو للجميع، نساء ورجالاً. لكننا نعلم الآن أننا لا نعيه بالطريقة نفسها.

لقد تطوّرت أدمغتنا بطريقة مختلفة.

وحواسنا تنقل إلينا المعلومات بطريقة مختلفة.

لذا تأتي ردّات أفعالنا مختلفة.

يبقى أن نكتشف كفاءات كل من الجنسين. فما هو السلوك الذي يميل كل منّا إلى اعتماده وفقاً للمؤهلات المختلفة التي زوّدتنا بها الطبيعة؟

المرأة تروي، الرجل يقول

أثناء تناول طعام العشاء مع مجموعة من الأصدقاء، يجري الحديث عن العطلة. وفجأة، تشرع إحدى المدعوات بالكلام قائلة: «كنا قد قطعنا حوالى ٣٠٠ كلم، والساعة قد شارفت على الثالثة، وفجأة رحت أتساءل عمّا إذا حملت معي لباس البحر...». ويقطع حديثها صوت أبح ليقول: «لا أعلم ما إذا كانت الساعة الثالثة، لكن بما أننا انطلقنا عند الظهر، وكنا قد وصلنا إلى فونتنبلو التي تقع، بحسب معلوماتي، على بعد ٦٠ كلم من باريس...». لم تنزعج المرأة من النبرة الساخرة، ولا من مقاطعته لحديثها، وإن كانت المقاطعة مزعجة في حدّ ذاتها، بل إنزعجت من حرمانها لذّة رؤية وقع قصتها على الآخرين. لا سيّما إذا ما عرفتم، أنها حين اتصلت بالمنزل، تبيّن لها أنها لم تنسَ لباس البحر وحسب بل نسيت جوازات السفر أيضاً...

لِمَ لا يقول الرجل «أحبكِ»؟

نعيش مواقف كهذه كل يوم. وفي الكواليس، في طريق العودة في السيارة، يصف الرجال النساء بفاقدات الذاكرة أو بالكاذبات، أما الرجال فتنعتهم النساء بالمزعجين، لأنهم يمنعوهن من رواية القصص كما يحلو لهن. في الواقع، يعود كل هذا إلى تركيبة دماغنا وقدراتنا.

الرجل، الذي يتواجد مركز القدرة على الكلام لديه في نصف دماغه الأيسر، وهو النصف المعني بالمنطق، يستخدم الكلام ليذكر

وقائع، ويعطي معلومات، وينقل معارف، ويروي تجارب.

الكلام بالنسبة للرجل هو وسيلة للتواصل.

ولهذا، لا تستغربنَ إن لم يقل الرجل كلمة «أحبكِ» إلاّ نادراً للمرأة التي يحبها فعلاً. لقد صرّح بحبه ذات مرّة، منذ وقت بعيد، وهذا يكفيه. لقد قال كلمته، أعطى المعلومة وتلقاها الشخص الآخر، فنراه يفضّل الانتقال إلى موضوع آخر.

عندما تتحدّث، المرأة تُشرك الآخرين

يختلف الوضع كلياً بالنسبة للمرأة، فمركز الكلام لديها موزّع على نصفي الدماغ، ويتأثر بالمنطق والعواطف في آنٍ واحد. أن تتكلّم، هو أن تُنشيء روابط وتبني علاقات. ويمكن للمرأة أن تستعين بقدراتها الدماغية المتعددة في الوقت نفسه: فباستطاعتها مثلاً أن تصف المشهد وأن تحسّنه إذا ما دعت الحاجة وهي تتكلم.

النتيجة: عندما تستخدم المرأة الكلام، تروي، تُشرك الآخرين في مشاعرها وأحاسيسها.

الكلام بالنسبة للمرأة هو طريقة للتعبير.

فما الذي يمنع المرأة من أن تضيف القليل من الملح والبهار إلى حديثها، أو أن تبسّطه أو حتى تعممه، لتعطي زخماً أكبر لمشاعرها وأهمية أعظم لحججها، وطرافة أكبر لنكاتها؟

لا شيء يمنعها طبعاً باستثناء زوجها.

نعم هذا صحيح، المرأة تبالغ

هذا الوضع المزعج بعض الشيء، إذا حدث في وسط اجتماعي،

أو بين الأصدقاء، قد يتحوّل إلى أزمة بين الطرفين. المرأة التي تقول لزوجها: «أنا من يملأ دائماً خزّان السيارة بالوقود»، أو لزميلها في العمل: «أنا من يضع دائماً الأوراق لآلة التصوير...» تحاول أن تلفت انتباهه إلى أنها تشعر وكأنها تفعل ذلك غالباً، لنقل في معظم الأحيان. لكن الرجل سيسمع ويفهم ما قالته بالتحديد: دائماً، أيّ من دون استثناء، وسيجد أنها تبالغ. ويكفي أن يتذكّر أنه قام بهذا العمل، ولو لمرة واحدة، حتى يسمح لنفسه بأن يتهمها بسوء النيّة أو عدم الصدق. وها هما ينطلقان في قضية مختلفة لا علاقة لها بالسبب الرئيسي، أيّ ضرورة تزويد السيارة بالوقود أو آلة التصوير بالورق، لينجرفا بشكل خطير نحو اتهامات أعمق، وبالتالي أشد توريطاً، تدفعهما نحو شرك لا خلاص منه. فنسمع أحدهما يقول للآخر: «لا تكفّين عن المبالغة بهدف إذلالي» وهي تعاتبه قائلة: «ألا يحقّ لي أن أنتقدك عندما لا تفعل ما أتوقعه منك».

المرأة لا تجيد الطلب

وتتفاقم المشكلة عندما نعلم أنّ المرأة لا تعبّر عما تتوقعه ولا تصرّح عنه، أو تكتفي بالتلميح. فتقول: «ما رأيك بالعشاء في المطعم الليلة؟» بدلاً من أن تقول: «إني متعبة، منهكة، وأكاد أفقد أعصابي. وليس لديّ القوة والنشاط اللازمين لتحضير العشاء، لهذا فإن المطعم يسهّل الأمور. هلاّ خرجنا لتناول طعام العشاء في المطعم، مراعاة لي؟».

وينبغي الاعتراف بأنّ من يتمكّن من ترجمة ما قلناه آنفاً بشكل صحيح، يستحق ميدالية الجدارة. أما الآخرون، الذين يعتقدون أنّ النساء يسألنهم عن رأيهم، فيجيبون بصدق، بعد تفكير عميق: «لا، لا أرغب في ذلك فعلاً». وهكذا، يتملّك المرأة على الفور شعور

بالغيظ والحنق من عديم الإحساس الذي تزوّجته.

لا تعرف المرأة أن تطلب، فالأمر بالنسبة إليها ردة فعل طبيعية. وانطلاقاً من ماضيها القديم كمسؤولة عن المؤونة، تعتقد المرأة أنّ عليها ألاّ تنتظر إلاّ الحدّ الأدنى من الآخر وأنّ عليها هي أن تعطي. وبما أنّها مزوّدة بالحساسية اللازمة، أيّ حواسها الخمس، لتعرف ما يتمناه الآخر، تعتبر أنّ على الآخر أن يتصرّف مثلها إذا ما أراد أن يلبي حاجاتها، أي عليه أن يتنبأ بهذه الحاجات وأن يفكّ ألغازها.

المرأة بطلة العالم في الأسلوب غير المباشر

وهكذا، أضحت المرأة بطلة العالم في الأسلوب غير المباشر وفي الطلب الذي لا يُعتبر طلباً. فتقول المرأة للمسؤول عن أجهزة الكمبيوتر: «سيختلف الأمر لو كان لدينا جهاز كمبيوتر آخر» فيهزّ هذا الأخير رأسه موافقاً، من دون أن يفهم أنها تقصد ضرورة شراء جهاز جديد على الفور. كما يمكن أن تقول المرأة لمسافر آخر تشاطره مقصورة في قطار: «ألا تجد أنّ الطقس بارد؟» فيجيبها الرجل تأدّباً بالنفي، ثم يعود إلى قراءة جريدته، من دون أن يشغّل جهاز التدفئة الموجود قربه. وقد تقول لزوجها: «لم تعد تحضر الأولاد من المدرسة منذ بعض الوقت»، فيعود الزوج بذاكرته إلى الوراء ليجد أنها مخطئة في حساباتها، من دون أن يدرك أنها ستضطر بعد أيام إلى التأخّر في عملها، لذلك تتمنى أن يحضر هو الأولاد إلى المنزل.

والمريع في الأمر أنها ستقول له، لدى حصول أيّ شجار أو نقاش ساخن: «أنت لا تهتم بأيّ شيء. لا يمكنك أن تقدّر كم تعبت لأرتب أمر اصطحاب الأولاد من المدرسة يوم اضطررت إلى التأخّر في العمل. لقد اتصلت بوالدتي التي تأخرت بسبب المواصلات، فاتصلت بي المدرسة لتسألني...».

فيقاطعها الزوج، وشعوره يتراوح بين الانزعاج ونفاد الصبر: «لكن لمَ لم تطلبي مني ذلك؟».

وتجيبه بعصبية: «طلبت منك ذلك، لكنك لم تجبني». وبما أنّ الرجل يعلم أنه لا يستطيع الاتكال كلياً على ذاكرته الانتقائية، التي تحفظ بعض المعلومات وتنسى بعضها الآخر، وبما أنه من المحتمل أن يكون قد نسي المسألة برمتها، نجده يلزم الصمت، ويتقبّل إحساسه بالخطأ، في حين تستمر المرأة في إظهار غيظها ومزاجها السيء.

المواربة بالنسبة للمرأة نوع من اللياقة والأدب

لا تتوجّه المرأة نحو الهدف مباشرة، لأنها تشعر بضرورة تغليف الطلب وتقنيعه. فالطلب بفظاظة ووضوح يعني بالنسبة إليها التصرّف بعجرفة أو بتطلّب، مما يعرّضها لصراع أو مواجهة. وبما أنها اختبرت إمكانية نجاح طريقة المواربة في التواصل، مع نساء أخريات يستخدمن هن أيضاً هذه الطريقة في حواراتهن، وتبيّن لها أنها تؤمّن علاقات جيدة، وسليمة وهادئة ومنسجمة، يصعب عليها أن تقتنع بأن بعض الذين تتحدث إليهم لا يعرفون هذه القواعد، ولا سيّما الرجال منهم الذين لا يرتدون القفازات في معالجة أمورهم.

مفردات الفتاة الصغيرة أغنى مرتين من مفردات الصبيان

إن الفروقات الكبيرة على صعيد الكلام تظهر مبكراً في حياتنا. وقد تمّ ملاحظة ذلك على أرض الواقع: الفتيات يتكلمن قبل الفتيان وأفضل منهم. وفي الثالثة من العمر، يبدو أنّ الفتيات يمتلكن، وكمعدل وسطي، مخزوناً من المفردات أكبر بمرتين من مخزون الفتيان. ولعل هذا ما يفسّر الصعوبات التي يواجهها الفتيان الصغار في

المدرسة مقارنة مع الفتيات اللواتي يحتللن المراتب الأولى في الصفوف الأولى، لا سيّما بفضل علاماتهن في اللغة وقواعدها والإنشاء... ويتوازن الوضع لاحقاً، حين يعوّض الفتيان عن عجزهم، لا سيّما وأنهم يتحلّون بنصف دماغ أيسر متطوّر جداً، مظهرين بذلك قدرات في ميدانيّ المنطق والمنهجية، كالرياضيات مثلاً. إليكم هذه الملاحظة الأخرى: في الصف، تتلقّى الفتيات الملاحظات من المعلمات لأنهن يثرثرن، في حين يُؤنّب الفتيان بسبب هيجانهم وكثرة حركتهم.

تستخدم المرأة ضعفي عدد الكلمات التي يستخدمها الرجل

ماذا يحصل في سنّ البلوغ: تتلفظ المرأة بحوالى ٧٠٠٠ كلمة في اليوم، فيما يستخدم الرجل ٣٠٠٠ كلمة. مما يثبت أننا، حين نتّهم الرجل بعدم القدرة على التكلّم بطلاقة وعلى إقامة الحوار، لا نختلق القصص لنصبّ جام غضبنا عليهم.

من جهة أخرى، من المسلّي أن نشير إلى أنّ هواية الرجال المفضّلة، أي صيد الطيور والأسماك، تتطلب صمتاً مطبقاً.

كما نشير إلى أنّ علاقة الرجال بالكلمات غريبة، وبما أنهم لا يستخدمون الكلمات بقدر ما تستخدمها النساء، من مصلحتهم أن يختاروا الأنسب بينها. لهذا، نجدهم يفضّلون الكلمات الطنّانة والرنّانة، التي تترك أثراً على الآخرين... حتى تكاد تتهمهم بالتباهي والتشدّق. فحين يقول الرجل إنه يصرّ على «ضرورة وضع خطة إعلامية جيدة» بدلاً من أن يقول مصراً على «ضرورة التركيز على حسن اختيار المجلات التي سيُعرض فيها الإعلان، مع أخذ عدد القراء والفترة الزمنية بعين الاعتبار»، يحاول، وبكل بساطة، أن يوفّر الكلمات. وفي جملته هذه، وفرّ الرجل ١٥ كلمة مما يعتبر رقماً

جيداً، مقارنة مع نسبة الكلمات التي يتلفّظ بها في اليوم الواحد.

باختصار، يُلاحظ من ناحية أنّ عدد الفتيان الذين يترددون على عيادات تصحيح النطق، أكبر من عدد الفتيات، مع الإشارة إلى أنّ التأتأة اختصاص رجالي؛ والملفت من ناحية أخرى أنّ ٩ من أصل ١٠ مرضى يقصدون الأطباء النفسيين هم من النساء.

لماذا تتكلم المرأة إذاً وبهذا القدر؟

المرأة تثرثر لأنها تجيد ذلك

في بادىء الأمر، تثرثر المرأة لأنها تتمتع بالقدرات والمؤهلات اللازمة لذلك. باختصار، إنّها مجهّزة لذلك، فهورمون الاستروجين، هذا الهورمون الأنثوي البحت، يزيد من طلاقة لسانها وقدراتها البيانية. أثناء دورتها الشهريّة، ولا سيّما في اليوم الذي تصل فيه نسبة إفراز الأستروجين إلى حدّها الأقصى، تكون المرأة أقدر على التعبير بطريقة ممتازة. في حين أنها تخلط الكلمات وتتعثر بجملها، في اليوم الذي تبلغ فيه نسبة إفراز هورمون التستوسترون حدّها الأقصى وهو هرمون ذكوري بحت. ولعلّ ذلك يذكّرنا برسم منحنى الحرارة والإباضة البياني...

هذه القدرة تنعكس أيضاً على تعلّم اللغات الأجنبية، حيث تبرع المرأة. ففي كافة الدول الأوروبية تقريباً، حيث مهنة التعليم مفتوحة للجميع، من نساء ورجال، نجد أنّ ثلاثة أرباع مدرّسي اللغات الأجنبية هم من النساء.

الثرثرة بالنسبة للمرأة هي نسج علاقة

الإنسان يحب أن يقوم بالعمل الذي يجيده. لعلّ هذه المقولة تفسّر

حب المرأة للثرثرة. فالثرثرة بالنسبة لها هي طريقة إنشاء جسور مع الآخرين، وتبادل الأفكار والآراء أو العناوين المناسبة. وهي أيضاً وسيلة لملء الهوة التي تفصلها عن الآخرين والحفاظ على التواصل والاتصال، وليست مضيعة للوقت، كما يعتقد الرجال غالباً. ولهذا، يمكن لامرأة أمضت إجازة ثلاثة أسابيع مع صديقتها أن تتصل بها يوم عودتهما وتمضي معها ثلاث ساعات على الهاتف. وفي هذه الحال، سيقول الرجل: «أمضتا ثلاثة أسابيع معاً، فماذا لديهما لتقولاه؟» في حين أنّ المرأة تحاول فقط تجنّب قطع الانسجام والعلاقة الوطيدة بفظاظة، هذا الانسجام الذي نسجته بصبر.

الكلمات بالنسبة للمرأة مكافآت

الكلمات التي تتلفظ بها المرأة بمثابة اتصال تقوم به وتحافظ عليه، ودليل على شعور الصداقة الذي تكنّه، أو حتى مكافأة تمنحها. فالمرأة التي تصمت، لا سيما حين لا تكون وحيدة، هي امرأة غاضبة أو مستاءة.

فإذا كانت برفقة امرأة أخرى، ستسارع هذه الأخيرة إلى «استئناف الحديث»، وتنشيط العلاقة. إنما، إذا كانت بصحبة رجل فعليها أن تنتظر ما يقارب العشر دقائق حتى يلاحظ محدّثها أنها تحقد عليه. فالرجل يعتبر الصمت هدنة ولحظة استراحة.

ملاحظة أخيرة: لا تواجه النساء مشكلة في أن يتحدّثن كلهن في الوقت نفسه، فهن مجهّزات للاستماع والتحدّث في آنٍ واحد، ولا تزعجهن الضجّة أو التشويش، ويمكنهن حتى في هذه الظروف، ومن دون صعوبة، أن يكملن حديثهن حتى النهاية. كما يمكنهن أن يتدخلن في حديث شخص آخر، من دون أن يعني هذا أنهن يقاطعنه إنما يشاركنه في الرأي ويغنينَ كلامه. لكن إذا ما قاطع الرجل رجلا آخر، فهذا دليل على أنه يتصرف بعدائية.

المرأة تفكّر وهي تتكلم

المرأة تفكّر بصوت عالٍ، لهذا نجدها تكثر من الكلام، فهي تتكلم لتفكّر، لتصنّف، لتقرر. إن دماغها قادر على استعمال قدرات عدة في الوقت نفسه، فلماذا تحرم نفسها من ذلك؟ نصادف أحياناً، نساء وحيدات في سياراتهن، ونلاحظ أنهن يتكلمن مع أحد، لكن هذا لا يعني أنهن يتصلن بواسطة هواتفهن النقّالة، بل يفصحن عن أفكارهن ومشاغلهن بصوت عالٍ ليتمكّنَّ من تحديدها ومعالجتها. تجدر الإشارة هنا، إلى أنّ المرأة تفكّر بشكل أفضل حين تتكلم.

وينطبق العكس على الرجل الذي يفكّر قبل أن يتكلم.

على الرجل أن يختار بين الكلام والتفكير

أولاً: لأنه عاجز عن القيام بالأمرين معاً، فدماغه مبرمج على عدم استخدام قدراته كلها معاً، بل كل واحدة منها على حدى. لهذا، عليه أن يختار بين الكلام والتفكير. ثانياً: لأن الرجل لا يتكلم إلاّ ليرد على طلب أو ليوصل رسالة معيّنة فيحاول بالتالي أن يعبّر عنها بوضوح. وفي كلتي الحالتين، قبل أن يفتح الرجل فمه ويتفوّه بأيّ كلمة، يبدأ ببلورة الأفكار المتوفرة لديه وذلك مهما كان السؤال أو الموضوع المطروح للبحث، كأن يسأله مديره: «هل تقبل بهذا المنصب الجديد خارج البلاد؟» وصولاً إلى دعوة ابنه الصغير: «أبي تعال نلعب جولة ملاكمة!». ويحاول الرجل أن يحضّر في عقله ما يريد قوله، لينطق به أخيراً.

عندما لا يملك الرجل جواباً يصبح أصماً

لن يتطلّب ذلك، بالطبع، إلاّ ثواني معدودة، أو بضع دقائق في

أسوأ الحالات. ولا يتعلق الأمر أيضاً بتحديد موعد للأسبوع التالي.

إذا ما طرحنا سؤالاً على رجل، وشعر أنه عاجز عن الردّ مهما بذل من جهد، فسيلتزم الصمت أو يتظاهر بأنه لم يسمع السؤال. وقد يخلق هذا سوء تفاهم بين الزوجين: فالرجل، في خضم مناقشة، ينهض من دون أن ينبس بكلمة واحدة، وينسحب بنبل، ويترك زوجته مذهولة مشدوهة، مما يؤدي أحياناً إلى شجار غير مرغوب فيه. في المكتب، قد يتحوّل الأمر إلى تعذيب فكري: كم من رجل تظاهر بأنه لم يسمع سؤالاً وانتقل برصانة إلى موضوع آخر، تاركاً النساء غاضبات ومكبوتات، واثقات من أنه لم يشأ أن يجيب، في حين أنه عاجز عن ذلك بكل بساطة...

المرأة تفرغ كل ما لديها ثم تصنّف لاحقاً

لكن، كيف لهن أن يفهمن ذلك؟ الكلام، بالنسبة إليهن، أمر طبيعي، ضروري وحيويّ للغاية. فإذا كان أمام المرأة يوم حافل، نجدها تروي يومها مسبقاً، عند الفطور، وتنظّمه. ويبدو خطابها غير منظّم ومشوّش، وهو كذلك فعلاً، إذ تفرغ كل ما لديها كما يخطر لها لتصنّفه لاحقاً. تذكر المرأة التزاماتها كافة، بدون ترتيب أو أولوية، وتبدو وكأنها تعطي الأهمية نفسها لاجتماع هام وحاسم بعد الظهر ولضرورة إحضار الملابس من المصبغة. وعندما تصمت أخيراً، يعتقد الشهود على هذرها وهذيانها الظاهرين، الواقعون تحت ثقل لائحة الأعمال المثبطة هذه، أنها لن تفلح في إنجاز هذه المهام كلها. لكن، بالنسبة إليها، ستنجلي الأمور وتتوضّح.

الرجل مختلف كلياً في هذا المجال أيضاً، فدماغه مقسّم ومجزّأ جداً، ولكل قدرة لديه منطقة محددة في الدماغ. وهكذا، يتمتع الرجل بالقدرة على تصنيف المعلومات وتخزينها وتجميعها في أدراج

دماغه المنظّمة بدقة. وهذا الأمر مناسب للغاية، بما أنه لا يملك القدرة على التعبير جيداً. أما النتيجة فهي أنّ الرجل يصمت، إذا ما كان لديه الكثير من الأعمال ليقوم بها، وينفّذها.

يشعر الرجل بانه ملزم بإسداء النصح

وهكذا، عندما ينهال سيل كلمات المرأة على الرجل، يجد صعوبة في تحديد الدور أو المهمة المطلوبة منه. فهو لا يفهم أنّ المرأة، حين تفضي بكل ما لديها، تكتفي بذكر ما يشغل بالها، ولا تنتظر منه أيّ مساعدة. من جهة أخرى، يفترض الرجل أنّ الحكم الذي سيصدر عليه هو وقف على قدرته على حلّ المشاكل، وتصليح الأعطال. وهذا عائد إلى جانب من شخصيته يفرض عليه فطرياً الخدمة والصيانة «بعد البيع».

ولهذا، يميل إلى إسداء النصح، ليكون مفيداً أو ليعطي انطباعاً بأنه يساهم في المهمات المنزلية، فيقترح مثلاً: «ولِمَ لا تذهبين إلى المصبغة هذا الصباح بدلاً من بعد الظهر، فتتفادين بذلك زحمة السير؟»، كيف يمكن لهذا المسكين أن يفهم أنه تدخّل في آليات فكرة ما؟ وكيف يمكنه أن يتقبّل رداً عنيفاً من نوع: «ما دمت بهذا الذكاء وهذه القوة، لمَ لا تقصد أنت المصبغة»؟.

من قال إنّ الرجل لا يستمع؟

ولسوء حظه أنها تقوم برد فعل كهذا. فلو أن الرجل، أصغى لنفسه وهو يتكلّم، لو أنه لم يحاول التودد إلى زوجته، لو أنه لم يحاول أن يسدي تلك المرأة القلقة والمضطربة خدمة، لاكتفى بالصمت. فالرجل حين يستمع، يتميّز بخاصية الصمت، مما يترك انطباعاً لدى المرأة بأنه لا يستمع إليها. إن مظهره اللامبالي، العديم التأثر، سببه مجدداً دماغه

المقسّم. فالرجل حين يستمع، يركّز على ما يسمعه ويسجّله، وبالتالي لا يتمكن من تحريك مشاعره أو إظهار الأثر الذي تتركه هذه الكلمات عليه. زد على ذلك، أنّ الرجل مكيّف لئلا يظهر مشاعره، مما يفسّر أساس الخلاف الأزلي بين الرجال والنساء ويوضح مصدره.

قد تشكّل هذه الفروقات، بالطبع، أساساً لخلافات كثيرة. في بعض النواحي الثانوية وغير الجوهرية من الحياة كما وردت ههنا، بالإضافة إلى نواحي العلاقات الإنسانية الأكثر عمقاً. إذا لم يعرف الرجل والمرأة أنّ الكلام خاصية موزّعة بغير عدل، تؤدي وظائف متنوعة ومختلفة باختلاف الجنس، وإذا ما ظننا بأنها قدرة موضوعية يستخدمها الجميع بالتساوي، فسيصلان حتماً إلى خيبات أمل كبيرة، وإلى غد غير مشرق كلياً.

المرأة تطلق النار عشوائياً
الرجل يصوّب نحو الهدف

في غرفة الجلوس، صوت التلفاز عالٍ، والأولاد يثرثرون وهم يشاهدونه من دون انتباه، فيما الأم ترتب أوراقها وهي متربعة أمام الطاولة. يرن جرس الهاتف، فيتحرك الرجل ليجيب، ويصدر أوامره بنبرة حاسمة: «أيها الأولاد، اصمتوا، وأنتِ، أخفضي صوت التلفاز». حتى أنه ينسى عبارة «من فضلك». وقد نستنتج بسهولة أنه كريه الطبع ونجيبه بنبرة حادة ونسمعه كلمة أو اثنتين تليقان بمقامه. إنما، يجب أن نعذره لأنه عاجز عن التصرّف بطريقة أفضل، فقدراته كلها مركّزة، في تلك اللحظة، على ضرورة الرد على رنين الهاتف، لهذا نسي كل ما تبقى، أي نسي أن يتصرف بأدب ولباقة. ولكي يتمكّن من الاستماع لمن يتصل، يحتاج الرجل إلى صمت تام ومطبق من حوله.

الرجل يحدد أولوياته

يجمع المؤلّفون على أنّ دماغ الرجل أشبه بطاولة مكتب ذات أدراج متعددة ومنظّمة. فبالرغم من أنّ الرجال يكرهون أعمال التنظيف، إلاّ أنهم يفضّلون العيش في محيط مرتّب جداً بدلاً من أن يعيشوا في فوضى منظّمة ببراعة. ورداً على كل التماس، يفتح الرجل الدرج المناسب. وفي حال ورود التماسات عدة في الوقت نفسه، يتأقلم الرجل مع الوضع بسهولة، عبر تحديد الأولويات. ما هو الأمر

الطارىء؟ ما هو الأمر الأهم؟ ما هو الأمر الأبرز؟ وهنا، تظهر موهبته الواضحة في تنظيم حياة أسرته فضلاً عن أعماله. ولعل الأولوية في نظره أحياناً، هي فترة راحة قصيرة تسبق مواجهة مشكلة كبيرة ينبغي حلّها. إلاّ أن الرجل لا يعتبر هذا التأجيل عملاً جباناً أي رغبة لا تقاوم في تأجيل عمل ما لا يحبه، إلى وقت لاحق، بل يعتبره تفكيراً استراتيجياً؛ فهو يريح فكره قبل البدء بالعمل أو المباشرة بالتفكير الذي سيتطلب منه تركيزاً تاماً وطاقة كاملة.

الرجل لا يفكر إلاّ بأمر واحد

أمر واحد، إنما ينجزه على خير وجه. يحتاج الرجل إلى صمت تام من حوله حين يفكّر، فهو مبرمج على الاعتماد على نفسه، وهذا ما ورثه عن أسلافه الصيادين. كما أنّ دماغه مقسّم ليبحث وحده عن كافة الحلول لمشاكله. لهذا يتمتع بقدرة عظيمة على التركيز. إنما، بانطوائه على ذاته يحرم نفسه عن غير قصد، من آراء الآخرين ومن الحلول التي قد يقدمونها لمشاكله.

من جهة أخرى، يمكن للمرأة أن تتكلم مع الآخرين، وتستعرض مواقفهم، وتكتشف الإمكانيات التي يقدّمونها، وهي تتحدث في الوقت نفسه، وذلك لأنها قادرة على استخدام قدراتها المختلفة في آن واحد. تفتح المرأة فكرها للآخرين وترضى بأن يلجوه، وهي لا تشعر وكأنها تتعرض لاجتياح بل وكأنها تتلقى المساعدة، كما أنها لا تعتبر الآخرين متطفلين، إنما حلفاء. وإذا ما أتاها الحلّ من شخص آخر، فلن تشعر بالمهانة أو بالاستياء، بل بأنها تتلقى العون والمساعدة.

الرجل يحدد هدفه، يصوّب ويطلق النار

عندما ينطلق الرجل في عمل أو فكرة ما، يتابع طريقه حتى

النهاية، حتى يتمكّن من وضع الملف في درجه، مع ختم «أُنجز» على الصفحة الأولى. يعمل الرجل حتى ينهي مهمته أو حتى لا يتركها معلّقة، نظراً لحالة معارفه الحالية. بعد ذلك، ينتقل إلى المهمة التالية، وفقاً لجدول الأولويات الذي وضعه سابقاً. وهذا الأمر يثير الغيظ، لأنّ المرأة لن تتقبّل فكرة أن يطلب منها الرجل العودة لاحقاً، إذا ما سألته رأياً في مسألة ما. أما هو، فيحتاج لأن يركّز على ما يفعله ويخشى التشويش والتطفّل، وهي تظن أنه يحاول أن يعطي بعض الأهمية لنفسه: «ألاّ يستطيع أن يتوقف عن العمل للحظة؟ من يظن نفسه؟». وتستاء المرأة أيضاً حين لا يستمع إليها وهو يعدّ طبقاً يحبّه أو يثبّت مسماراً أو يحلق ذقنه أو يأكل أو يبدّل عجلة السيارة، أو يقود سيارته أو ينام. باختصار، لن يستمع إليها أبداً.

«من قال إنّ الرجل لا يستمع؟»

العودة

ما من وقت مناسب ليستمع إليك الرجل، هذا صحيح، إنما هناك أسوأ.

يحدد الرجل أولوياته، لعدم قدرته على القيام بأعمال عدة في الوقت نفسه، وهذا الأمر ممتاز. إنما، قد لا تكون أولوياته هي نفسها أولويات المحيطين به. إذا ما أخبرت المرأة زوجها، في إحدى الأمسيات، وهو يتابع مباراة كرة قدم، أنهما مدعوان على الغداء نهار الأحد، فماذا سيسجّل الرجل برأيكم؟ لقطات المباراة الأجمل ونتيجتها. وصبيحة يوم الأحد، يتنقّل الرجل بتكاسل بين كنبة وأخرى، يطالع الصحف والمجلات، وحين يتنبّه أخيراً إلى أنّ زوجته منهمكة للغاية في الأعمال المختلفة، من ترتيب كتب ابنتها الكبرى، وحمّام طفلها الصغير، يسألها ببراءة: «لِمَ لا تجلسين قربي قليلاً؟».

وهو يربت بلطف على الكنبة إلى جانبه، لن يفهم كيف أثار هذه الدوامة المدمّرة من التوبيخ والتأنيب وهذا السيل من الشتائم.

تقوم المرأة بكافة الأعمال في وقت واحد

دماغ المرأة أيضاً أشبه بطاولة مكتب كبيرة ذات أدراج، لكنها أدراج مفتوحة كلها وفي الوقت نفسه. وحسنة هذا الأمر أنّ المرأة يمكن أن تنفّذ مشاريع عدة في وقت واحد. أما سيئته فهي أنها قد تضيع في منتصف الطريق.

ألا تشتهر النساء بأنهن يتحدّثن كلهن في الوقت نفسه ويناقشن مواضيع عدّة في وقت واحد؟ ليس هذا صحيحاً وممكناً فحسب، بل إنهن يتصرفن بالطريقة نفسها في كافة الشؤون، وبفضل وظائفهن الدماغية التي تتداخل وتتصل ببعضها البعض دونما حاجة إلى بذل جهد، نجد أن النساء قادرات على القيام بأعمال عدة في الوقت نفسه. إنّ حركة المعلومات لديهن سلسلة، لا يعيقها عائق، لهذا قد نرى امرأة تتحدث على الهاتف وتحضّر الصلصة وتراقب فروض ودروس ابنها في آن واحد. وفي الإطار نفسه، نصادف يومياً نساءً يتبرّجن في السيارة، وليس عند إشارة الضوء الأحمر حكماً، مما يدفعنا إلى التساؤل، إذا ما كانت عيونهن موجهة إلى المرآة أو إلى الطريق. إنما ينبغي ألاّ ننسى قدرتهن على الرؤية جانبياً بزاوية ١٨٠ درجة مما يساعدهن على تنفيذ مهام عدة في الوقت نفسه.

الأمور كلها «قيد الإنجاز» في وقت واحد، بالنسبة للمرأة

أما المواضيع التي عليها أن تعالجها، فتنجزها بحسب ترتيب ورودها في خاطرها. وكلها «قيد الإنجاز» في وقت واحد، فهي تعمل بتداعي الأفكار بشكل أساسي. وحتى إذا ما قررت التركيز على

موضوع واحد، يمكنها أن تقطع عملها لتتابع ملفاً آخر.

تجتمع العائلة حول طاولة الطعام، لتنظِّم عطلتها، فتستعرض الخرائط والكتيّبات السياحية. لكن يمكن للمرأة أن تترك الجميع لتشعل الفرن لئلا يتأخر موعد الغداء، أو قد ينتهي بها الأمر وهي تقشّر التفاح لأنها تخشى أن يفسد في اليوم التالي. وهكذا، ليس من المستغرب أن تثير استياء الآخرين، فنسمع تعليقات مختلفة منها: «ما بالك، ابقي معنا لنتخذ قراراً فنادراً ما نجتمع كلنا معاً...». هذا صحيح، قد تتشتت أفكارها، وهو اللوم الذي تتعرض له غالباً. لكن، إن لم تنقذ هي التفاحات فمن يفعل ذلك؟

المرأة قائد أوركسترا

من جهة أخرى، ننسى دائماً أن نشكرها على ما هي عليه: خبيرة متعدِّدة الاختصاصات. باختصار وببساطة هي من يقوم بالأعمال كلها. استناداً إلى المصادر الأكثر جدية، تزيد معظم النساء فترة عملهن بالمهمات الجانبية التي ينفّذنها. والمهمات الجانبية لا تقتصر على أعمال التنظيف أو العناية بالأولاد، كما يحلو لبعض الأشخاص السليمي النيّة الذين يدّعون التعاطف معها أن يقولوا، بل تشمل أيضاً حياتهن الاجتماعية، ورياضاتهن المفضّلة ودروس اللغة أو القيادة التي يتابعنها. وقد تتطلب هذه النشاطات الجانبية من ٧٠ إلى ٨٠ ساعة في الأسبوع. فهل فكرنا يوماً في أن نشكرها لأن المرأة في الأصل ليست مبرمجة لأداء المهمّات إنما لتقبّل الحياة كما هي؟.

بناءً على ما تقدّم، لا يمكننا أن نستبعد دورها الأساسي والجوهري في الحفاظ على توازن المنزل. وهي تدرك أكثر من غيرها الواجبات التي ينبغي القيام بها، فبفضل نظرتها الشمولية، يمكنها أن ترى الغبار الذي يعلو الكمبيوتر، والأزهار الذابلة التي يجب رميها. وبفضل نفاذ

بصيرتها، المترافقة مع رهافة إحساسها، يمكنها أن تلاحظ أنّ ابنتها تتصرف بغرابة مما يستدعي أن تتقرب منها وتتكلّم معها. وبفضل قوة الملاحظة لديها، يمكنها أن تلاحظ ياقات قمصان زوجها التي تكاد تصبح بالية، وتفكّر في ضرورة شراء قمصان جديدة له.

وبما أنها لا تستطيع أن تطلب منه القيام بذلك، فسوف تشتري له القمصان بنفسها.

تعيش المرأة حياتها وحياة غيرها

تروي امرأة أنها شعرت بأنها تعيش حياة مزدوجة، منذ تزوّجت. فهي تعيش حياتها وحياة زوجها، وكأن لها القدرة على التواجد في مكانين مختلفين في آن واحد. فإذا ما علمت أنّ زوجها سيعقد لقاءً هاماً بعد الظهر، تشعر بالتوتر طيلة النهار وبعدم الرغبة في تناول الطعام. وتعقّد الوضع أكثر حين رُزقت بولديها، فأصبحت تعيش حياتهما أيضاً طيلة أيام الدراسة، فتحس بتوتر شديد عندما يحين موعد امتحاناتهما وكأنها هي من تمتحن.

باختصار، تفكر المرأة في كل ما يعنيها، وفي كل ما يعني أولئك الذين يهمها أمرهم.

لكن مهما كان النشاط الذي يمارسه الرجل، سواء أكان عملاً أم تسلية، نجده مأخوذاً بما يفعله هو فحسب.

في الوضع نفسه، تتابع المرأة حياة أفراد عائلتها عن بعد. وبما إنّ «ملفّاتها» تُفتح كلها في الوقت نفسه، لن تغفل مساء أن تسأل ابنها الأكبر عن امتحانه، والأصغر عما إذا لبس ثياباً دافئة لدى خروجه من المسبح، وزوجها إذا ما حجز بطاقات السفر للعطلة. تعدّدية الهموم هذه تنهكها أحياناً، ولعلّها تنهك الآخرين أيضاً. لكن المرأة لا يمكنها، ولسوء الحظ، أن تمنع نفسها من الاهتمام بشؤون الآخرين، فليست هي من يقرر بل عقلها. وعندما يزداد الضغط عليها ويشتد، تثور وتقسم

بأنها لن تهتم بشيء بعد الآن.

«لن أهتمّ بشيء وتدبّروا أموركم بأنفسكم. فمنذ هذه اللحظة لن أفكر بسوى نفسي، أنا وحدي. إذا ما أصبتَ بزكام، فالغلطة غلطتك، وأنتَ، إذا ما رسبت، فما همّي أنا، ستعيد السنة. أما العطلة فلا يهمّني أمرها، إذ لست بحاجة إليكم... لست بحاجة إلى أحد، فأنا أكرهكم...».

وتدوم القطيعة يوماً أو اثنين على أبعد تقدير، إذا ما كانت في قمة غيظها، لكن دماغها سيستعيد حقوقه سريعاً ويضطلع بمهامه ثانية.

يمكن للمرأة أن تفكّر في كل شيء

أن تعرفوا كيف يستخدم الرجل والمرأة مواهبهما الخاصة لتنفيذ المهام الموكلة إليهما كل منهما على طريقته، يعني أن توفّروا على أنفسكم الكثير من الضغينة والتأنيب واللوم والكبت وخيبات الأمل. كما يعني أن تتحوّلوا بشكل تلقائي نحو الأدوار والمهام التي يمكنكم فطرياً أن تنجزوها بأتقان وبسهولة. وفي بداية هذا القرن الجديد، هل سنُنعت بالمتحيّزين جنسياً إذا ما ذكرنا أنّ ٩٠٪ من السكرتيرات هن من النساء؟ ولا يعود ذلك حكماً إلى أنّ الرجال يحاولون إلهاء النساء بمهام ثانوية، بل لأنهن يتمتعن بقدرات أكثر من الرجال: فهن قادرات على تنفيذ مهام عدة في وقت واحد، التافهة منها والهامة، وعلى تبديل نبرتهن وتعابير وجوههن ليفهم من يتحدث معهن مقصدهن، فضلاً عن استباق حاجات من يحيط بهن واتقان أكثر من لغة... أيعتبر الاعتراف بذلك أو توكيده أو حتى الدفاع عنه، محاولة لترويج قدرات معيّنة وإضفاء قيمة على وظيفة ما، وبالتالي تحديد الأجر الذي تستحقه خلافاً لما يعتقده بعض الرجال والنساء، الذين يعتبرون هذه المهنة الخيار الوحيد أمام من لا تجد وظيفة أفضل من هذه؟

وينطبق الأمر نفسه على مهن أخرى، يعتبرها الرجال تافهة استناداً

إلى سلّم قيمهم الذكورية، لكنها تستحق الاحترام والاعتبار.

إنّ الرجال منظّمون، ويجيدون تحديد الأولويات، ويكملون ما يبدأونه حتى النهاية، لهذا يتسلّمون بعض المسؤوليات. أما النساء فيتمتعن بحس مرهف ويقظة وبصيرة نافذة. ويمكن للنساء أن يفكّرن في كافة الأمور في وقت واحد، وهذه ليست خاصيّة تافهة ووهمية، بل موهبة وقدرة وأهلية ينبغي الاعتراف بها ومكافأتها عن علم ودراية.

يمكن للمرأة أن تفكر... في الأسوأ

لفرط ما نفكر في كل شيء، نصل بالتفكير إلى الأسوأ، فنتخيّله ونعاني منه ونتألم، ونصبح حملاً ثقيلاً على الآخرين. الأم التي لا تخلد إلى النوم قبل عودة أبنائها، والمرأة التي لا يهنأ لها عيش قبل أن يتصل بها زوجها ليبلغها بوصوله إلى المكان الذي يقصده بخير.. النساء يقلقن أكثر من الرجال، فلماذا؟

في الواقع، اعتادت المرأة، منذ كانت تعيش في الكهف، على ترقّب الأخطار واستدراكها. وفي وضع يبدو طبيعياً في الظاهر، يمكن لأدنى تفصيل غريب أن يحرك هواجسها. لهذا، ليس من المستغرب أن تقلق أكثر من الرجل. زد على ذلك، أنّ النشاط الكهربائي في دماغ المرأة، يبلغ ٩٠٪ من كامل طاقته، حتى في حالة الراحة، فإن لم يكن لديه شاغل يشغله، يشرد ويتنقّل من موضع إلى آخر. إن المراكز المنطقية والعاطفية في دماغ المرأة مرتبطة ومتصلة ببعضها البعض بشكل دائم، فحين تفكر في موضوع ما، تتلازم الأحداث ومشاعر القلق وتتعايش من دون فاصل واضح بينها. وهكذا، نحيك لأنفسنا شبكة ضخمة من الكرب والقلق تطبق علينا.

المرأة تعرف ما يجري
الرجل يعرف موقعه

إنه حفل ساهر كبير وراقٍ، أمضت ٣ ساعات في اختيار ثوبها، وحذائها، وأقراطها، ووشاحها وحقيبتها ولون أحمر الشفاه المناسب. وأضاعت عشر دقائق في إقناعه بتغيير قميصه الذي لا يتناسب مع بذلته.

كان الحفل مزدحماً بالحضور وقد استمتعا به للغاية.

أما عن الحدس النسائي...

ها قد انتهت الحفلة، وسيعودان إلى المنزل. في الطريق إلى السيارة، تقول له:

ـ أكنت تعلم أنّ فلاناً وفلانة يوشكان على الطلاق؟.

ـ لا، من قال لك ذلك؟.

ـ لا أحد، لكن يبدو جليّاً أن الأمور لا تسير على خير ما يرام بينهما.

ـ حقاً! لم ألاحظ ذلك.

ـ علماً أن الأمر واضح.

ليس بالنسبة له... فيلتزم الصمت مذهولاً. ثم تعود لتقول: «كان

الطعام لذيذاً، لكنه كثير. لا بدّ أن الكثير من المدعوين لم يحضروا، ولم يعتذروا عن تلبية الدعوة. لهذا بدا فلان (المضيف) متجهماً. . .».

ـ أكان متجهماً؟

ـ بالطبع. . . لسنا نحن السبب بالطبع، فنحن قد حضرنا. لو كنت مكانه لغضبت واستأت.

ـ غضبتِ واستأتِ؟

ـ أعني لانزعجت.

ويشدّ على ذراعها، وكأنه يحاول حمايتها من حزن يتهددها، فتبتعد عنه بقوة، وتقول: «حسناً، لا تبالغ. ولا تتوقع مني أن أنسى ما حصل الليلة وأسامحك لمجرد أنك تتصرف بلطف الآن. . .».

ـ وماذا حصل؟

ـ لا تدّعِ الغباء، فأنت تعلم جيداً ماذا حصل.

ـ أؤكد لك أني لا أعرف عمّا تتحدثين. . .

ـ لقد لاحقتك تلك اللعينة ولم تفارقك لحظة، وأنت تدّعي أنك لم تلاحظ. أتريدني أن أصدقك؟ في الواقع، ستكون الوحيد الذي لم يتنبّه لذلك، فالكل انتبه حتى شعرت بالإحراج. أعني بالإحراج عنك، لأن الأمر لا يهمني ولا يعنيني أنا. . .

ويرتفع صوتها تدريجياً، ليصل إلى حد الغضب. ويصلان إلى السيارة، فتجلس وراء المقود لتثبت له أنها لا تحتاج مساعدة، بدلاً من أن تناوله كالعادة المفاتيح التي وضعها في حقيبتها.

وعلى هذا، تنطلق بالسيارة، إنما في الاتجاه المعاكس لطريق

منزلهما، فيجد في ذلك الفرصة المؤاتية ليثأر لنفسه.

تتمتع المرأة بحواس خمس دائمة التنبّه والتيقظ، وبنظرة ثاقبة لا مثيل لها لتعرف دائماً ما يجري، حتى وإن لم يقل لها أحد شيئاً. فيما يملك الرجل، في نقطة محددة من دماغه، منطقة صغيرة مختصّة بتحديد المواقع والاتجاهات، حتى وإن كان يتوه في مسائل كثيرة أخرى.

تجيد المرأة ترجمة رسائل الأطفال

في كهفها، ومنذ زمن بعيد، كان على المرأة أن تتنبّه لأيّ تغيير يطرأ على محيطها لتستبق الأخطار، ولأي إشارة من أفراد أسرتها، لا سيّما الأطفال منهم، لترد على كافة حاجاتهم. واليوم لا تزال الأمور على حالها.

في أواخر السبعينات، أُجريت دراسة لتحديد قدرة النساء والرجال على «قراءة» لغة الأطفال الرضّع الجسديّة. وعُرض عليهم شريط فيديو صامت، يظهر أطفالاً عدّة يبكون ويتّخذون وضعيات مختلفة، فتمكّنت معظم النساء من قراءة غالبية الرسائل: جوع، نعاس، ألم، مغص، حاجة إلى التجشؤ، الخ... أما الرجال فعجزوا عن حلّ أكثر من رسالتين، ورددوا التفسير التالي: «يريد والدته»، وهو التفسير الأسهل لأب مرتبك ومتردد يحاول أن يترك أمر الاهتمام بالطفل لشخص آخر غيره.

تسمع المرأة ما لا يقوله أفراد أسرتها وأصدقاؤها

تتمتع المرأة بقدرات حواسية متميّزة للغاية، لهذا نجدها قادرة على تحديد حالة صديقتها الحميمة النفسية، وعدوّتها اللدودة، بمجرد سماع صوت إحداهما على الهاتف. وإذا ما عاودت صديقتها الاتصال

بها، أثناء النهار، وهذا ما قد يحصل في الأغلب، يمكنها أن تكتشف أيّ تغيير طفيف في مزاجها. وذلك من دون أن تراها! ومن استطاع الكثير، أمكنه اليسير: فإذا ما استطاعت رؤيتها، يمكنها أن تؤكد حكمها. وستكتشف سبب مزاجها الحسن أو سبب الإحباط الذي تعانيه في فترة بعد الظهر. كيف؟ عبر استخدام الإشارات الصامتة التي نمضي وقتنا في إرسالها إلى الآخرين والتي تشكّل حوالى ٨٠٪ من الرسائل التي نبعث بها.

تجيد المرأة فضح الكاذبين

ما من حاجة لإعلام المرأة بأننا على وشك أن نغضب، فهي تعرف وتحضّر ردّها. لكن الرجل يشكّ ويتردد طالما أنه لم يرَ الدلائل كلها أمام عينيه: من دموع، وصراخ، وضرب... ويرجو أن يتخلّص من المشكلة بطريقة ما.

ومن الصعب أن نكذب على امرأة: قد تنهكون أنفسكم وأنتم تحاولون إقناعها بأنكم مررتم ببائع الورد لكن المحل كان مقفلاً، لأنها لن تسمع سوى النبرة المقنعة التي استعملتموها، وتسارع الكلمات المثير للريبة، والرغبة الواضحة في الانتقال سريعاً إلى موضوع آخر. كما ستلاحظ احمرار الوجنتين الطفيف، وتشنّج اليد على قبضة الباب، وقناع النفاق الذي تحاولون إخفاءه. إذاً، يمكنك سيدي أن تتخيّل ماذا سيحصل عندما تحاول زوجتك اكتشاف ألاعيب امرأة تحوم حولك بمظهر بريء ساذج...

لكن، كيف يمكنها ذلك؟

تجيد المرأة اكتشاف حاجات الآخرين

تستخدم المرأة حواسها، التي حسّنتها وطوّرتها: فهي ترى وتسمع

وتشعر وتتذوق أفضل من الرجل. وتجمع كافة المعلومات في دماغها المدرّب الذي ينقلها من نصفه الأول إلى الثاني ببراعة ساحر، كي يعمل على تحليلها. وبفضل هذه البراعات، تجيد المرأة تحليل لغة الجسد، وترجمة الإشارات البصرية، وسماع ما لا يُقال، ورؤية ما لا يظهر، واكتشاف ما نحاول أن نخفيه عنها، وفهم ما لا نتكبد عناء شرحه لها.

باختصار، اكتسبت المرأة عبر القرون نفاذ بصيرة في ما يتعلق بالأشياء والأشخاص وحدّة ذهن مدهشة. لكن لا يكفي أن تكون قادرة على رؤية حقيقة الأمور، بل يجب أن تريد ذلك، وهي تريده. إذ تودّ أن تكون على علاقة طيّبة بالآخرين لتعيش بانسجام معهم، وتريد أن تعرف حاجاتهم ورغباتهم، لكن أشدّ ما ترغب فيه هو أن ترضي هذه الحاجات والرغبات.

تتذكر المرأة ما يُفرح الآخرين

لهذا السبب، تقوم المرأة بالجهود اللازمة لترضي من حولها، ولا سيّما تقوية ذاكرتها وتعزيزها، فتعتمد على كمية كبيرة من الأستروجين، وهو الهورمون الأنثوي البحت، لتحسين هذه القدرة. في الواقع، تميل ذاكرة المرأة إلى الضعف في مرحلة سن الإياس، عندما تتراجع نسبة الأستروجين في دمها.

تجهد المرأة، إذاً، لتذكّر الحد الأقصى من الأمور التي تُظهر للآخرين مدى أهميتهم بنظرها. ففي أغلب الأحيان، يكفي أن تسمع المرأة الاسم مرّة واحدة لتتذكره: أسماء زملائها، وأصدقاء أولادها، ومعلمة ابنتها، والفتى الذي يقدم لها القهوة كل صباح، والفتاة التي تلازم أولادها عندما تُضطرّ للخروج... سيخزّن دماغها كافة التفاصيل التي تحتاج حفظها مستخدماً قدراته المنطقية.

كما يساعدها، عند الحاجة، ذكاؤها العاطفي لتحفظ كل ما تودّ تذكّره، لا سيّما الأطباق التي يفضّلها أولئك الذين يحيطون بها، الذين «تحبهم»، بالإضافة إلى الزهور والشوكولا والألوان والموسيقى المفضّلة. وهي طريقتها في أن تقول: «يهمني أمركم، وراحتكم تشغلني وأبذل جهدي لأسهم في راحتكم». لكن لتجنب الانزلاق إلى السذاجة: فبعض النساء لا يتوانى عن التصرّف بلؤم وقساوة وحقارة. إنما تلك حكاية أخرى!.

أما الرجال فلا يتمتعون بهذا الميل الطبيعي، إذ قد يسمع الرجل من زوجته قرابة العشر مرات أنّها تكره أزهار القرنفل، ويهديها هذه الزهور للمرة الحادية عشرة، ويشعر بالفخر لأنه تذكر أن يمرّ ببائع الزهور، ويتوقع أن تلاقيه بالشكر والثناء، ويحسّ بالظلم حين تلاقيه بابتسامة جامدة. ولمَ نتفاجأ بعد ذلك عندما يقرر أن يحسم المسألة بعدم حمل الزهور إليها بعد اليوم؟

تجيد المرأة اكتشاف نوع العلاقة بين الناس، حتى وإن كانت تجهله

أظهرت تجربة أُجريت تحت مراقبة كاميرات الفيديو كيف يتصرف كل من الرجل والمرأة في اللحظات الأولى لدخولهما إلى قاعة تعج بأناس يعرفان بعضاً منهم. يتحرك وجه الرجل من دون توقف، ليحدد المخارج الممكنة تحسباً لأيّ هجوم غير متوقّع، ثم يبدأ بالبحث عن الوجوه المألوفة لإحصاء حلفائه. بعد ذلك، يتأمل الصالة ليكتشف حال المكان، لتحديد ما يحتاج للإصلاح، كتمزّق في الموكيت ولوحة غير سويّة. أما وجه المرأة فيبدو وكأنه لم يتحرك البتة.

ومع ذلك، إذا ما سألتم الرجل في هذه اللحظة، فسيزوّدكم بكافة المعلومات التي جمعها، لينهي الموضوع. في حين أنّ المرأة

ستتحدث عن أشخاص عدة، وتصف لكم لباسهم، وتحدد لكم من كان مزاجه حسناً ومن كان مزاجه معكّراً. أمّا في ما يتعلق بأولئك الذين لا تعرفهم، فستضع الفرضيات، التي غالباً ما تكون صائبة، حول من يرافقهم. وفي اندفاعها، ستراهن على أولئك الذين سيصبحون أصدقاءها وأولئك الذين ترفضهم بديهياً.

بعدئذ، يشرع الرجل في البحث عن أجمل فتاة في السهرة، التزاماً بغرائز الصيّاد فيه. لكن هذا ليس ما تحاول التجربة برهنته.

... نعم، لكن الرجل يعرف الشمال

وبما أننا نتحدث عن غرائز الصيّادين، فلنعد إلى إحدى خصائص الرجل الأكثر تطوراً: تحديد المكان. في الحياة اليومية، يطلق على هذه الخاصية اسم حسّ التوجّه، وهي التي تسمح للرجل العادي بأن يحدد الشمال مهما كانت الظروف، حتى وإن كان يجهل مكانه، وإن سافر لساعات معصوب العينين، وإن احتجز في غرفة موصدة النوافذ. وذلك من دون بوصلة...

لا يبدو الأمر مغرياً جداً، إذ ما عُرض بهذه الطريقة. لكن إذا ما عرفنا نتائج هذه الموهبة، التافهة ظاهرياً، لدفعت أكثر من امرأة المال، للحصول على دفق من التوستسترون، هذا الهورمون الذكوري الأساسي في هذه المسألة، وإن أدّى ذلك إلى ظهور الشعر في أماكن غير مرغوب فيها، وإلى الصلع أو الجلح، وإلى اكتساب صوت جهوري عريض.

يجيد الرجل تحديد موضعه

تطوّرت القدرة المكانية، الموجودة في نصف دماغ الرجل الأيمن، منذ قديم الزمن، لتسمح له بإنجاز مهمته كصيّاد. ومهمته هي العثور

على الطريدة، وتحديد مكانها ليلحق بها، وتحديد اتجاه طلقة النار.

بعدئذ، عليه أن يجد طريق العودة إلى المنزل، إذ لم يبذل هذا الجهد ويتكبّد هذا العناء.كله إلاّ ليحمل طريدته إلى بيته.

أما المرأة التي اعتادت على العمل في القطاف في مساحة لا تتعدى بضعة أمتار حول الكهف، بحيث لا يغيب هذا الأخير عن ناظريها، فلا تعتبر القدرة المكانية من المؤهلات الأساسية لديها. لهذا، فإن القدرة المكانية موجودة في نصفي دماغ المرأة بلا ترتيب. ويمكننا أن نعتبر أنّ ١٠٪ من النساء يتمتّعن بقدرة مكانية جيّدة، مما يترك ٩٠٪ منهن خارج هذا الإطار.

لكن ما هي هذه القدرة المكانية؟ إنها قدرة المرء على تحديد مكانه، ومكان الأشياء التي تحيط به في فضاء ثلاثي الأبعاد. وبالتالي، عندما يكون المرء صيّاداً من عصر الكهوف، تعتبر القدرة المكانية هي إمكانية تحديد المسافة الفاصلة بينه وبين الأشياء، وتحديد الاتجاه الذي ينبغي سلوكه للوصول إلى هذه الأشياء، وتقييم القوة والسرعة اللازمتين لبلوغها... في هذه الأثناء، تبدّل طابع الصيد: فبدلاً من أن يكون شاغلاً أساسياً وحيوياً، أصبح هواية. إلاّ أنّ هذه القدرة المكانية، التي اكتسبها الرجل بعد عناء قرون طويلة من الوحدة في وسط لا مكان، تركت آثاراً لا يُستهان بها عليه.

يجيد الرجل اللعب بالكرة

إن الوصف الذي أوردناه آنفاً عن القدرة المكانية، يجعلنا نفكّر على الفور في الغولف وكرة المضرب وكرة القدم وغيرها من ألعاب الكرة. صحيح أن هذه النشاطات هي التي يفضلها الرجال، لأنهم على الأرجح يجيدونها، ويتمتعون بالمعطيات اللازمة لممارستها، ولا سبيل لمقارنتهم بالنساء، مهما تمرّنّ. وعلى ضوء ما عرفناه عن الدماغ

وتطوّره، يمكننا أن نعترف، من دون أن نُنعت بالمتعصبين ضد النساء، أنّ السبب لا علاقة له بواقع أن الملاعب والمدرجات لم تُفتح أمامهن إلاّ منذ فترة قريبة. فالنساء أقل براعة في الملاعب من الرجال لأنّ التفاوت موجود في الأدمغة، وإن كانت الآنسة فلانة تتمتع بكافة الفرص المؤاتية لتلحق الخسارة بالرجال الذين ينافسونها.

يجيد الرجال معرفة طريقهم

الناحية الإيجابية الفرعية الأولى لهذه الخاصية، هي أنّ الرجل حين يبحث عن الطريق الذي ينبغي أن يسلكه في السيارة ويراجع الخريطة، لا يرى فيها، كغالبية النساء، تشابك خطوط وإشارات غير مفهوم، بل نقل للواقع يمكن فهمه. فإذا كانت الخريطة في الاتجاه المعاكس، أيّ إذا ما كان متوجهاً نحو الجنوب، والخريطة موجهة نحو الشمال، يكفيه أن يديرها عقلياً. أما المرأة فتبدأ، بدون شك، ببرم الخريطة لتضعها في الاتجاه الصحيح، وتكتشف أخيراً أنّ الكتابة بالمقلوب.

وما إن يجد الرجل طريقه، حتى يعتمد على ذكرى ما رآه، في حين تحتفظ المرأة بالخريطة أمامها. وخوفاً من أن تقع أرضاً، تتجنب المرأة الضغط على الفرامل، فتختار أخيراً أن تركن السيارة إلى جانب الطريق.

وأخيراً، إذا عاد الرجل يوماً إلى مكان مرّ به سابقاً لا يُضطر أبداً للعودة إلى خريطة أو رسم، لأنه حفظ بعناية في دماغه المنظّم بدقة، المعلومات التي يحتاجها كلها. في حين تضطر المرأة للبدء من نقطة الصفر.

لا مشكلة إذا كانت وحدها في السيارة أو برفقة امرأة أخرى: فالنساء المصابات بإعاقة كهذه، أي عدم القدرة على حفظ الطريق من المرة الأولى، يستطعن تفهّم بعضهن البعض وتقديم الدعم المطلوب.

لكن المصيبة تحلّ إن كانت المرأة التائهة هذه برفقة رجل، سواء كانت هي التي تقود أو هو؛ فمن المرجّح جداً عندئذٍ أن يتدهور الوضع! فالرجل يظنّ ـ تماماً كالمرأة ـ أن ما يستطيع هو أن يفعله بدون مشقّة، سيفعله الجميع بالسهولة نفسها. الأمر الذي يجعله يميل إلى الكلام بلهجة ساخرة منفّرة حين يحاول أن يُفهم المرأة الجالسة إلى جانبه حقيقة أمرها.

الرجل لا يتوه عن مكان

حين كان رجل الكهف يبتعد عن مكان سكنه، لم يضيّع يوماً طريقة العودة إليه. إنها مسألة نضال من أجل البقاء.

أما في أيامنا هذه، فالرجل لا يتوه أبداً عن مكانه في مرآب السيارات مهما كان كبيراً. إنها العملية القديمة نفسها، فرغم أن مكان ركن السيارة ليس بأهمية الكهف بالنسبة للرجل القديم، إلا أنه يجده، كما يجد أيضاً مقعده في المدرج بعد الاستراحة، وفي المسرح بعد الفاصل، وفي السينما بعد أن يحضر الفوشار. المقاعد تتشابه والصفوف غير مرقمة بشكل مرتب، والأرقام تختفي تحت مساند الذراع، وهو وسط هذه الأدغال لا يتردد، ويتّجه واثق الخطى إلى مقعده وهو يصفر لحناً، غير متنبّه للإنجاز الذي يحققه.

والآن، هل عليّ أن أصف امرأة في مرآب؟ تكاد تصاب بالهلع، تدور في المرآب للمرة الثالثة؛ كانت تعلم أنها ستتوه لذلك دوّنت رقم الطابق على بطاقة المرآب... تراها تنظر إلى ساعتها للمرة السابعة عشرة، لأنها تأخرت على موعدها طبعاً.

تمسك بالمفاتيح بعصبية، وتضغط بجنون على الزرّ الذي يفتح الأبواب آلياً عن بعد، آملة أن تشفق سيارتها عليها وتذكّرها بالمكان الذي ركنتها فيه بالتماع نور مصابيحها الخلفية. لكنها في قرارة ذاتها،

تعلم أن الاحتمال ضعيف. فهل هي أصلاً في الطابق المناسب؟!.

لاحظ بعض المراقبين معاناة النساء هذه، فأشفقوا عليهن، واقترحوا على المسؤولين عن مواقف السيارات أن يحدّدوا الطوابق، لا بواسطة الأرقام بل بواسطة صور أكثر إيحاء: ففي جادة «الشنزيليزيه»، في باريس، استخدم أحد أصحاب المواقف، أفيشات الأفلام السينمائية الكلاسيكية الأكثر شهرة، التي تنطبع صورها المؤثرة بسهولة أكبر في ذاكرة النساء العاطفية. ويبدو أنه منذ ذلك الحين، قلّ عدد النساء اللواتي شوهدن تائهات، شاردات من طابق إلى آخر.

الرجل يستطيع تصوّر ما لا تراه عيناه

ينظر الرجل بانتباه إلى رسم هندسي لمنزل أو لشقة، فلا يكتفي دماغه بالبعدين الاثنين اللذين يتوفّران له في الرسم... بل يبتكر بعداً آخر: إنه البعد الثالث. بكلام آخر، يستطيع الرجل الذي ينظر إلى رسم مسطّح، أن يراه بالأبعاد الثلاثة، إذا رغب بذلك. وإن أبرز له أحدهم صورة بناء أثري، يقدر أن يتصور نفسه في المكان نفسه، ويدور حول البناء ويتخيل معالمه، وهو أمر لا تستطيع المرأة أن تفعله إلا بصعوبة...

خذوا حجر نرد ودعوا رجلاً يراه، ثم ضعوه على الطاولة، ومهما كانت وضعية الحجر، فيقول لكم هذا الرجل بدون تردد، ما هو الرقم المخبّأ. بإمكان المرأة أن تفعل ذلك أيضاً، لكن بعد أن تأخذ الوقت الكافي لرؤية الجوانب الظاهرة كلها... إن هذه الميزة لدى الرجال، تفسر أيضاً سبب تعلّق الصبيان بألعاب الفيديو، إلى جانب تأخير موعد البدء بفروضهم المدرسية. فالصبي الصغير يشعر بالراحة في هذا العالم الخيالي، حيث يحب أن يتصور عمقاً لا وجود له، وأن يحوّل شيئاً ثنائي الأبعاد إلى آخر ثلاثي الأبعاد، مستخدماً عقله فحسب. إنه

يعتبر هذه العملية تحدياً يستمتع بقبوله، فضلاً عن الاستمتاع بالانقضاض من دون تفكير على كل ما يتحرك أمامه على الشاشة.

إن هذه الميزة لدى الرجال هي التي تدفعهم في النهاية إلى الرغبة بالعمل كمراقبين لحركة الملاحة، كطيّارين، أو مهندسين معماريين. وهي أيضاً التي تجعلهم ينجحون في هذه المهن.

حسن، نعم، النساء يعملن أيضاً في الهندسة المعمارية! ولكن الأرقام المذكورة في إحصاءات أُجريت في بريطانيا، تجعلنا نفكر. تؤكد الدراسة أن عدد النساء اللواتي يدرسن الهندسة في الكليّة يساوي عدد الرجال، لكن امرأة واحدة من أصل تسع تمارس مهنتها. فهل قررّن تربية أولادهن؟ أم أنهن تعرضن لمنافسة عنيفة من أشخاص عديمي الذمّة، تملأ عقولهم أفكار رجعية عن النساء، مما جعلهن يتراجعن في خيارهن؟ أم أنهن اكتشفن أخيراً عدم كفاءتهن في المهنة التي اخترنها؟

الرجل يعرف أن يعدّ

الأرقام مرتبطة بالقدرة على رؤية الأشياء في المكان؛ ولعل هذا هو السبب في أن الرجال يشكّلون ٨٠٪ من عدد المحاسبين، حتى لو كان عدد النساء المحاسبات يرتفع باضطراد. طوال سنوات، تفوق الفتيان على الفتيات في مادة الحساب، بينما دفعت البنات المدرّسين إلى اليأس إذ أنهن لم يتقنّ الحساب إلا عدّاً على أصابعهن، في حين تفوقنّ على الفتيان بأشواط في مادة اللغة.

وصحيح أننا نشهد في هذا العصر، مساواة بين الرجال والنساء في ميدان الدراسة، أي ما يشبه التكافؤ التام، إذ يتوزعون على الاختصاصات مناصفة، إلا أننا نستنتج بوضوح حضوراً كثيفاً بارزاً للرجال يصل إلى ٩٠٪ في حقول الفيزياء والعلوم والتكنولوجيا. هل

يقطع الرجال عمداً الطريق على النساء في هذه الميادين؟ إذاً لماذا يدعونهن يعلّمن اللغات، وهي مادة تشكل فيها النساء نسبة ٧٥٪ من مجموع المدرّسين؟.

الرجل يحسن القيادة

كلّ منا يتوق لأن يقوم بما يتقنه من الأعمال: والرجال يحبون القيادة. وعندما نعلم أن قيادة السيارة ترتبط أيضاً بالقدرة المكانية، لا ندهش كثيراً لهذه الحقيقة. القيادة بالنسبة للمرأة لا تعني غالباً سوى الانتقال من مكان إلى آخر، وفكرها مشغول بأمور أخرى غير القيادة، وهي تصغي إلى الموسيقى أو تتحدث على الهاتف.

أما بالنسبة للرجل، فالقيادة لعبة، يرغب في أن يجمع فيها نقاطاً. وهو يجد متعة كبيرة في استخدام عقله لحل مسائل المسافة والسرعة والانعطافات وتقاطع الطرق الذي عليه أن يجتازه... فيا لسعادته!

حاولوا أن تمرّوا بالسيارة في ساحة الإيتوال في «باريس» مع عشرة رجال مختلفين. وفي كل مرّة ستسمعون تعليقات مختلفة عن الطريقة الفضلى للوصول إلى النُصب... فمنهم من يقترح التوغّل في الشوارع للوصول إلى الساحة ومنهم من ينصح بالبقاء على مقربة من النصب من دون محاولة الاقتراب كثيراً.

أما المرأة فتمرّ في ساحة الإيتوال وهي تتبرّج... وهي بالطبع تجد صعوبة في أن تفهم سبب استمتاع الرجل. ولكنها في الوقت عينه لا تستطيع البقاء صامتة ثابتة عندما تجلس قربه وهو يقود. فهي تتذمر وتوجّه له ملاحظات ناقدة فتقول: «لم تُسرع هكذا؟»، «كدت تصدم السيارة التي مررت بجانبها»، «اجتزت إشارة المرور الحمراء».

لا تكفّ عن الانتقاد في حين أنها بكل بساطة، غير قادرة على

الحكم، فهي لا تتمتع بأي من قدرات الرجال على تحديد موقع الأشياء في المكان، وهي بالتالي لا تستطيع أن تقدّر المخاطر مثله، تلك المخاطر التي يبرع هو الرجل في ركوبها.

ولكن ماذا يحصل لو كان الرجل يجلس قرب امرأة وهي تقود؟ لن يكون أكثر تسامحاً منها. يدّعي عدد كبير من الرجال أنهم يستطيعون رؤية سيارة زوجاتهم المركونة في الشارع من نظرة واحدة، لأنها بكل بساطة مركونة بطريقة سيئة! لكنه ادعاء سخيف، فلو كان صحيحاً لرأينا نصف السيارات مركونة بشكل سيء، نظراً لعدد النساء اللواتي يقدن السيارات. . . واستناداً إلى ما قلناه، ينبغي الاعتراف بأن النساء يجدن صعوبة أكثر من الرجال في التصويب بنجاح.

لكن الذنب ليس ذنبهن: فكيف يستطيع الإنسان غير المزوّد بقدرة ولو بسيطة على رؤية الأشياء بكافة أبعادها، أن يمرّ بين سيارتين بشكل مستقيم؟!

«القدرة» على رؤية الأشياء بكافة أبعادها: إنها كلمة مؤنثة على أي حال

وضع أحد الباحثين الأميركيين سلسلة من اختبارات الذكاء، أُجريت على نساء ورجال من الأوساط والأصول والثقافات كافة. وجاءت نتيجة هذه الاختبارات لتؤكد أن النساء يتفوقن بذكائهن على الرجال عامة بنسبة ٣٪. ولكن الملفت أنه في الاختبارات الخاصة بتحديد القدرة على رؤية الأشياء في المكان، انطلاقاً من مسألة حل بازل أو متاهة، كان من بين المتبارين المئة الأوائل ٩٢ رجلاً وثماني نساء فحسب. إلا أن النساء لا يمكنهن التفوق في كل الميادين طبعاً، أليس كذلك؟

وتستطيع النساء المتعصبات لجنسهن أن ينكرن تفوق الرجال في مجال القدرة على تمييز الأشياء بأبعادها كافة. غير أن هذا الموقف المتصلب لن يُعتبر موقفاً نزيهاً أو كما يقال باللغة الإنجليزية Fair-Play، فقد توصلت عشرات الدراسات العلمية إلى هذه النتيجة نفسها. ويبدو أن هذه المقولة مؤكدة حتى لدى الحيوانات، إذ يبدو أن فئران التجارب الذكور تجد طريقها في المتاهة التي تُعَدّ لها في المختبر أو في الدغل، بشكل أسهل من الفئران الإناث. والفيل يعثر على مصدر المياه بأسهل مما تعثر عليه الفيلة. يستحسن إذاً أن تسلّم النساء بالأمر ويتقبلنه. فما مصلحتهن في الإنكار؟ لا بأس في الإقرار بأن للرجال موهبة لا تملكها النساء؛ ليس لأنهم بذلوا مجهوداً لاكتسابها، ولا لأنهم عملوا على تخطي قدراتهم الطبيعية، بل لأنها أُهديت لهم عند ولادتهم. الأمر بهذه البساطة، فهم لم يطلبوا هذه الموهبة ولا استحقوها حتى. إن هذه الفكرة تعزي النساء، أليس كذلك؟ وفي النهاية، كلمة «قدرة» كلمة مؤنثة، لا؟

> ٤٧٪ من النساء يثقن بنصائح أبراجهن، أكثر من النصائح التي يسمعنها من أزواجهن.
>
> استطلاع للرأي أُجري على الموقع Auféminin.Com على الانترنيت من ١٠/٧/٢٠٠٠ حتى ١٠/٨/٢٠٠٠.

تسعى المرأة إلى الأفضل ويكتفي الرجل بالتقليد

ألم تتساءلوا يوماً، لماذا لا نجد الكثير من الطاهيات الشهيرات، في حين أن عدد النساء اللواتي يحضرن الطعام في منازلهن كبير جداً؟! لأن المرأة، ببساطة، لا تستطيع أن تطبق وصفة طعام حرفياً حتى لو كانت هي من أعدّها. فإذا لم تجد الزبدة، استعملت الكريما. ترونها تسأل: هل أعجبكم الطبق المنكّه بالزنجبيل؟ في المرة الثالثة سأستعمل حبّ الهال، إذا وجدته سيعطي نكهة ألذ. المرأة لا تستطيع إلا أن تنوّع، وأن تجرّب أشياء أخرى، وأن تحاول التوصل إلى الأفضل.

فما هو برأيكم موقف الذين يصنّفون المطاعم بعدد النجوم، من هذه الطرق الاختبارية؟

أما الرجل فهو على عكسها تماماً، فما إن يجد التركيبة المثلى، الخاصة بطبق يعده أو عطل يصلحه أو مصنع يديره حتى يتمسّك بها... بعناد.

الرجل ينفّذ التعليمات، أما المرأة فتبتكر

إذا كان الرجل يحضّر طبقاً وقرأ في كتاب الطبخ أن عليه إضافة ملعقة من خل التفاح إلى مكونات الطبق، فماذا سيفعل برأيكم؟ حتى

لو كانت الساعة التاسعة والنصف، والمدعوون سيصلون بعد دقائق معدودة، وطاولة الطعام لم ترتّب بعد، والخضار لا تزال في أكياسها داخل البرّاد، ماذا يفعل الرجل؟! يرتدي ثيابه بسرعة ويهرع إلى أقرب متجر ليشتري الخلّ؛ وكم من رجل سمعناه يردّ على شخص يقترح شيئاً جديداً، بهذه العبارة: «اسمع، نحن نفعل ذلك منذ ٢٠ سنة، وهذا ما سنفعله الآن وغداً، اتفقنا؟». الرجل لا يناصر إلا الفرق الرابحة ولا يجرّب إلا الوصفات المضمونة النتائج، ولا يغيّر المطعم الذي يعرفه جيداً ولا الطبق الذي يختاره عادة من لائحة الطعام، ولا حتى قيمة البقشيش الذي يمنحه للنادل.

وهو في مجال آخر، ينفّذ تعليمات الطبيب بالحرف الواحد، بينما المرأة تغامر بالتغيير، فتقول مثلاً: «هذا لا يستحق العناء» أو «هذا جرّبته ولم يعجبني».

ومنذ أكثر من قرن والرجل يرتدي بذة مؤلفة من ثلاث قطع. أما المرأة فقد لبست في هذه المدة نفسها التنانير الواسعة وفساتين مبتكرة وتايورات رسمية، وأحذية غريبة، وتنانير قصيرة، ومعاطف طويلة، وأحذية ذات كعبين رفيعين وعاليين، وسراويل قصيرة مزينة بالبرق أو الترتر وتايورات ذات كتفين محشوّين، وأحذية ضخمة كتلك التي ينتعلها الجنود وجزمتين وأحذية رجالية وربطات عنق.

لماذا؟

لأن الرجال ينفّذون التعليمات، أما النساء فيبتكرن.

الرجل يبحث أما المرأة فتأخذ ما تجده

مرة أخرى نجد الأسباب في الماضي السحيق.

فالرجل يعتبر أنه بحسب إنتاجه يُدان: هل أحضر الطريدة أم لا؟

إنه منطق ذو قطبين لا ثالث لهما. فإما نعم، وإما لا... لا مكان البتة لكلمة «ربما». وإذا لم يعد بالطريدة فلا شيء يبرر فشله. فهو لن يعزّي نفسه قائلاً مثلاً: إن الرحلة كانت هذه المرة أجمل من أي رحلة قام بها من قبل، فلا بأس إن عاد صفر اليدين. ويدفعه هذا إلى اعتماد التجربة التي نجحت مرة في تحقيق غايته، ويلتزم بهذه الطريقة الناجحة إلى الأبد.

أضف إلى ذلك، أن الرجل يكره أن يتعرض للانتقادات. فالنقد يفعل فيه فعل إبرة مخدرة تشلّ حركته وتفقده كل طاقاته. ولكي يتفادى هذا الموقف، لا يجد أمامه إلا حلاً واحداً: تكرار الطرق الناجحة.

أما النساء، فمن المعروف أنهن يعشقن الحركة، وحسهنّ المرهف يقودهن إلى تجارب جديدة كل مرة.

منذ عهود الإنسان القديمة أُوكلت النساء بالقطاف. فكانت تتملكّهن الرغبة في تذوق ثمار جديدة وردية اللون في الغابة، أو ثمرة برتقالية قشرتها لمّاعة تبدو حلوة المذاق. ذلك هو إرث النساء: الفضول والرغبة في تجارب جديدة.

الرجل والمرأة يقعان تحت تأثير قوي

ثمة حجة مقنعة جداً، حجة لا يمكننا إنكارها ولا التملّص منها... حجة لا نتقبّلها بسهولة ولا نفكّر بها كثيراً، إذا لم يكن الجنس هو موضوع النقاش. إنها... الهرمونات!

الرجل والمرأة يعيشان تحت تأثير هذه الهرمونات، الهرمونات الجنسية التي يفرزها جسديهما. لوقت طويل ظلّ الناس يعتقدون أن الهرمونات لا تؤثر إلا في الجسم. أما اليوم فقد بات مؤكداً أنها تؤثر

أيضاً بالدماغ، فتحكم أفكارنا وسلوكنا.

وتأتي هذه النظرية لتشرح أن الرجل الواقع تحت تأثير هرمون ما، يفرزه جسمه بوتيرة ثابتة، يمكن أن يتميّز بطبع وبسلوك ثابتين. في حين أن المرأة التي تخضع لتأثير تغيّرات هرمونية متقلّبة جداً، تفاجىء المحيطين بها بتقلّب مزاجها وسلوكها بين وقت وآخر. فتراها تنتقل من دون سابق إنذار من أفضل حالاتها إلى أسوأ مزاج؛ تتملكها أحياناً الرغبة في أن تأكل ما توفر من الشوكولا على رفّ طوله ثلاثة أمتار؛ وأحياناً تفيض حماساً متقداً وفي اللحظة التالية يحبطها إحساس بالانكسار واليأس. وكأنها تركب عربة على سكة المنحدرات المجنونة في إحدى مدن الملاهي، مع ما يصحب ذلك من إحساس بالغثيان وصراخ يمزّق الآذان. ويتّبع مزاجها عامة المنحنيات فتمرّ بلحظات انفراج تليها انتكاسات واحتمالات انهيار في أي لحظة.

الهدوء التام يخيّم على الرجل، وتعصف بالمرأة أهواء ورياح

أما الهرمونات الذكرية فإفرازها ثابت على مستوى واحد. وأهمها التستوستيرون، والمزيد من التستوستيرون، والتستوستيرون أبداً ودائماً! وهذا ما يسلّح الرجل بصفة العناد والإقدام، ويجلب إليه دائماً تعليقات من نوع «المهووس جنسياً». إلا أن النتيجة غير المباشرة لهذا الثبات في إفراز هرمون التستوستيرون، هي إمكانية التنبؤ بسلوكه وتصرفاته، والثقة بقدراته الثابتة وبطبعه الذي قد يصفه بعض المتشدّدين، في لحظة ضيق، بالمتحجّر الجاحد.

أما المرأة، فهرموناتها تمرّ بتقلّبات وتغيّرات. في البداية، يبدأ مفعول الأستروجين بالتأثير فيها، لنقل... طوال ٢١ يوماً، بشكل متصاعد يرافقه إحساس بالتفاؤل. ثم في الجزء الثاني من الدورة

الشهرية يترافق إفراز الأستروجين مع إفراز هرمون البروجسترون، فتنعَم المرأة براحة نفسية وجسدية مطمئنة. وقرابة اليوم الثامن عشر من الدورة، يظهر هرمون التستوسترون ويبلغ ذروته؛ ومن غرائب الصدف أن يتزامن هذا ووقت الإباضة لدى المرأة! وكأن المقصود من لعبة الطبيعة هذه، إطلاق العنان لرغبة المرأة، مع ضرورة تلبيتها فوراً إذا أراد الشريكان أن يكتب للجنس البشري عمر جديد! في نهاية هذه الفترة، التي استعدّ فيها الجسم بفارغ الصبر لحضانة بويضة ملقّحة، إذا لم يحصل ما كان متوقعاً، يحرد الجسم ويترك مستوى الهرمونات الجنسية يهبط إلى الحضيض. وفي هذه الأثناء يتحضّر للحيض، فتنتابه حالاً الأعراض التي تسبقه، وحدّث عندئذ ولا حرج عن إحساس بالفراغ والحزن والتخاذل والنكد والإحباط ناهيك عن رغبة شديدة بالبكاء، وتوقّع أكثر من هذا إذا كانت المرأة المعنية مرهفة الحس والإحساس.

أثبتت دراسات كثيرة أن معظم الجنح التي ترتكبها النساء تقع في هذه الفترة التي تسبق الحيض. ولاحظت شركات التأمين أنه في هذه المرحلة يزيد احتمال تعرض النساء للحوادث بمعدل خمسة أضعاف.

ويستغرب البعض أن يقال عن النساء إنهن ذوات «مزاج دوري»... في حين أن هذه العبارة وُجدت لهن بالذات!

المراهق تزيد قوته أما المراهقة فوزنها

الحق يقال إن سن المراهقة يرسم طريق الحياة! ففي سنّ البلوغ يعيش الفتى حالة تشبّع بالتستوسترون. وهذه عملية لا يستهان بها، لأن استمرار جنسنا البشري مدين لربما لهذا الهرمون الجنسي الذكري. فهو الذي يمنح الرجل غريزة الصراع للبقاء: لأنه يدفعه للشجار ويدفعه لأن يكون شجاعاً مدافعاً عن أرضه وممتلكاته ومن

يعيش عليها. إنه هرمون حسّ المنافسة. ولولا التستوستيرون لكانت حيوانات الماموث أو الديناصورات هي التي تسكن كوكبنا الآن.

التستوستيرون يجعل لحية الشاب تنمو، ويتسبب هبوطه بسقوط الشعر عندما يصبح الشاب كهلاً. وهو أيضاً الذي يجعل جسم المراهق يتكوّن من ١٥٪ دهوناً و٤٥٪ عضلات.

وإذا علمنا أن الفتاة في المرحلة نفسها، يتكوّن جسمها من ٢٥٪ دهوناً و٢٠٪ عضلات، فسنفهم بشكل أفضل لماذا تبقى الفتاة في سن المراهقة حردة ومتوترة، حتى لو شرحنا لها بلطف أن احتياطي الدهون هذا يفترض أن يساعدها في فترة الحمل والإرضاع، لتغذية طفلها وإعالته؛ وأن هذا تكيّف وتطور طبيعي لجسم الإنسان، إذ أن النساء في قديم الزمان واجهنَ القحط والمجاعات.

تنتاب النساء فجاة رغبة شديدة بإنجاب طفل. لا عجب في ذلك، إنه إحساس طبيعي!

بعد مرور مرحلة المراهقة يصبح معدل التستوستيرون الذي يفرزه جسم الرجل ثابتاً تقريباً، يضبطه بدقة مدهشة الجسم الذي حُسب فيه لكل شيء حسابه؛ ما دام هذا الجسم يعمل بشكل طبيعي اعتيادي، لتفادي أي إفراط. أما في جسم المرأة، فالهرمونات تظهر متعاقبة، بل على شكل موجات غامرة، تثير لديها بعض الاضطرابات، إلا أن هذا طبيعي جداً.

ففي الفترة التي يفرز فيها جسم المرأة الأستروجين، وهو هرمون حضانة البويضة، تشعر المرأة بالراحة، وحب الحياة، فتبدو متفائلة واثقة بالمستقبل. إنه شعور يشبه الغبطة والرضى وهذا قمة ما تريده. ولأن لهذا الهرمون تأثيراً مهدئاً يُستعان به أحياناً لتسكين السجناء العنيفين.

عندما يظهر البروجسترون وهو هرمون الحمل، تتعقد الأمور قليلاً. فتشعر المرأة بأنها أكثر حناناً وحنوّاً. من قال إنها في هذه الفترة تلتصق بشريكها بشكل مزعج؟ إن جسمها يعدّها لتقوم بواجبها كأم مرضعة، لذا ينبغي أن نفهمها.

والمثير للعجب هو أنه يكفي أن ترى المرأة طفلاً مكتنز الخدين، حتى لو كان من البلاستيك أو الوبر، حتى يبدأ جسمها بإفراز هذا الهرمون. الرغبة المفاجئة، التي لا تفسير لها بإنجاب طفل تتحول فجأة إلى مشكلة سهلة الحل. ما كان ينبغي اصطحابها إلى متاجر الألعاب!

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن هذا الهرمون يتواجد في جسم الرجل بنسبة ضئيلة جداً.

الشقراوات أكثر خصوبة... الشقراوات الحقيقيات

الحقيقة هي أن معدل هرمون البروجسترون مرتفع جداً عند المرأة الشقراء، الأمر الذي يشرح الانجذاب الذي يشعر به الرجال إليها، ودائماً من باب ضرورة الحفاظ على استمرارية الجنس البشري فحسب!

تفاجئين شريكك ذابل العينين أمام كتلة من الشعر الأشقر؟ اهدئي، لا داعي للانفعال! إنها مجرد لعبة هرمونات. وهو ليس مذنباً، ولا يفعل ذلك عمداً. حسناً، حتى وإن لم يكن شعرها أشقر في الأصل بل صبغته باللون الأشقر، ما الذي يتغيّر؟...

وحتى لو كانت شقراء بالفعل... عزّي نفسك بالتفكير بأنها ما إن تنجب طفلها الأول حتى يتحوّل شعرها الأشقر الفاتح إلى أشقر داكن. وعندما تنجب طفلها الثاني قد يصبح بنياً. فتسلحي إذاً بالصبر!

والأمر سيّان بالنسبة للصدر الكبير. إذ نعتقد أن الرجال مهووسون جنسياً لذلك تلفت أنظارهم الياقات التي تكشف عن صدر عارم! أبداً... إنهم يقومون فحسب بدورهم الأزلي ألا وهو ضمان استمرار الجنس البشري، فيفضّلون المرَشّحات، اللواتي قد يتضّح عند الاختبار، أنهن أمهات يضمنّ الغذاء لأولادهن. فيا أيتها النساء لا تتهمنّ الرجال بالأنانية بعد اليوم!.

الرجل الأصلع أب صالح... حتى لو كان يتناول أدوية لمنع تساقط الشعر!

في الإطار نفسه، نشرح بالطريقة عينها التي فسّرنا بها انجذاب الرجال إلى النساء الشقراوات أو ذوات الصدور العامرة، انجذاب المرأة إلى الرجل الأصلع: فهذا نتيجة لإفراز مفرط لهرمون التستوسترون لدى هؤلاء، مما يجعلهم مؤهلين أكثر من غيرهم للتناسل. فعندما ترى المرأة جبيناً عريضاً مكشوفاً تطمئن إلى أن صاحبه ينوي فعلاً إنشاء أسرة.

ولكن إذا فكّرتم بمرارة أن النساء يفضّلن الرجال الطويلي القامة والأغنياء والذين يتمتعون بجاذبية ساحرة، فأنتم لا تخطئون الظنّ أبداً. فتلك الميّزات كلها تشير إلى صحة جيدة، وأعني طول القامة وانتظام القسمات، مما يعني قدرة ذاك الرجل على تأمين الغذاء لأولاده؛ ويكفي أن ترى المرأة سيارة «البورش» حتى تصبح واثقة جداً من تلك القدرة!.

وتجدر الإشارة إلى أن التستوسترون ليس حكراً على الرجال، فالمرأة لها أيضاً قسط منه. فمتى يظهر عمله برأيكم؟ أتقولون في فترة الإباضة؟ أحسنتم. ولكن ألم يسبق أن قلنا إنّ الطبيعة تتقن توقيت الأشياء ولا تترك مجالاً للصدفة؛ عندما تكون المرأة في الفترة المؤاتية

للحمل تغدق عليها الطبيعة رغبة جامحة في التناسل. وهذا ما يفسر ما يحصل عندما تستيقظ المرأة صباح أحد الأيام، فتتساءل وهي تنظر إلى زوجها النائم قربها وتقول: «ما الذي أعجبني فيه؟!».

ذلك هو مفعول التستوسترون، الذي يجعل الناس ميّالين إلى التناسل!

الرجال يمارسون الرياضة بكثرة!... بدافع من هرمون التستوسترون!

يتسبب هذا الهرمون بنشوء الرغبة بإثبات التفوق على الآخرين. الأمر الذي يفسّر لماذا يتحول تسعة شبّان من أصل عشرة إلى أشخاص عدائيين بالقول أو بالفعل أثناء مشاجرة ما، بينما تلجأ سبع فتيات من أصل عشر إلى التفاوض أو الهرب. وفي الإطار نفسه، لماذا برأيكم، تستعين الفرق الرياضية في الولايات المتحدة أو غيرها من البلدان، بفرق الفتيات الشقراوات المتبرجات لتشجيع الرياضيين؛ فترونهن يرقصن رقصات سريعة الإيقاع وهن يرتدين التنانير القصيرة المبرقشة، قبل بداية المباريات؟ طبعاً لزيادة إفراز هرمون التستوسترون لدى الرياضيين، لأنه ضروري لإثارة الحماس فيهم!.

ولماذا برأيكم تأتي ردات فعل الآسيويين باردة هادئة عادة؟ لأن الرجال في تلك الناحية من العالم، تتدنى لديهم معدلات هرمون التستوسترون؛ الأمر الذي يؤكده صدرهم الخالي من الوبر ولحيتهم الناعمة وندرة حالات الصلع لديهم.

ولماذا برأيكم أيضاً يميل الرجال إلى ممارسة الرياضة بكثرة؟ لتنفيس العدائية التي يولدها فيهم التستوسترون في عمل غير مؤذٍ.

حتى منتصف القرن التاسع عشر ظلت الرياضة حكراً على نخبة من

الرجال من الذين لا يضطرّون للنضال لأجل البقاء (النبلاء والبرجوازيين) وشكّلت الرياضة بالنسبة لهم متنفساً جيداً. وهي لا تزال كذلك اليوم، ولكن بالنسبة لعدد أكبر من الناس. إنها حقاً متنفّس لكل من يشعر بحاجة للركض ولبلوغ هدف، وللمواجهة لأجل التفوّق. إنها طريقة لاستهلاك فائض التستوستيرون في شيء مفيد. ذلك الهرمون الذي كان في ما مضى يستخدم في الجري وراء طريدة أو في السهر على حماية القبيلة من هجمات الحيوانات المفترسة. ذلك الهرمون الذي، إن ارتفعت نسبته وأسيء استخدامه، يمكن أن يؤدي إلى العنف والعدائية.

بدافع من السلوليت، النساء يمارسن الرياضة أيضاً!

بالمناسبة، انظروا إلى صالة التمارين الرياضية. مقابل عشرة نساء، كم رجلاً تجدون؟ إنهم لا يعرضون عن التمارين الرياضية لأن تلك الملابس الضيقة والبراقة ذات الألوان الصارخة لا تناسبهم فحسب، بل لأن الرجال يحبون الرياضة لسبب وجيه واحد أوحد: الربح. وأي ربح يحققونه في الصعود والهبوط على درجة سلّم اصطناعية؟ ما خلا التشنّجات العضلية وقميص مبتلّ بالعرق حتى بات يعتبر وسخاً؟ بينما المباراة الرياضية في مدرّج أو ملعب أو على العشب الأخضر يظهر في نهايتها رابح، يعلن عنه فيعرفه الجميع. بل يمنح كأساً أو جائزة، يفرحه جداً أن يعرضها في منزله في مكان بارز يراه الجميع.

تقولون وماذا عن صالات التربية البدنية؟!

إنها ساحة أخرى من ساحات التنافس: فيها يحلو للرجل أن يثبت أنه الأقوى.

في المقابل، اسألوا النساء اللواتي يواظبن على ممارسة الرياضة، عمّا يدفعهن للمثابرة. من المرجح جداً أن تسمعوا الجواب التالي:

هنا يمكن أن نعقد صداقات جديدة، ونحافظ على لياقتنا البدنية ورشاقتنا، ونملأ وقت الفراغ بنشاط ممتع، ونقضي على السلوليت. . .

انتهى البيان!

بين ضعف الذكورة وسن الإياس

آخر ما يقال عن التستوسترون إنه هرمون يواكب الرجل طوال حياته، بمعدل ثابت، حتى لو لوحظ انخفاضه قليلاً قرابة الستين من العمر. يُترجم هذا الانخفاض ببعض الظواهر الملفتة إلا أن هذه الأخيرة لا تعيق الرجل بأي شكل من الأشكال. حسناً! ربما لا يسمح الرجل بعد الستين لنفسه بوضع نظارات مذهبة وقيادة سيارة حمراء مكشوفة في فصل الشتاء (خوفاً على صحته) إلا أن ذلك لا يقلب حياته رأساً على عقب.

أما حياة المرأة فهي بمثابة مسلسل تلفزيوني حافل بالأحداث: تشكل سن البلوغ حلقة غنية بالمفاجآت. أما الحمل فهو يقلب كيان المرأة رأساً على عقب وتأتي مرحلة سن اليأس في نهاية المطاف، وهي بالكاد تكون تغييراً مفرحاً.

يهبط معدل الهرمونات، ويسبب النقص في الأستروجين تضعف الذاكرة ويتبعها حب الحياة. حتى الطبيعة، التي وزّعت إلى الآن الدهون في جسم المرأة بشكل متساوٍ، القليل على الفخذين والردفين والكتفين والظهر والربلتين، لئلاّ تخنق الأعضاء الحيوية مثل الدماغ والقلب والأعضاء التناسلية، ها هي الآن وقد بات من المستحيل على المرأة أن تحمل، ترسل الدهون بالطرود إلى منطقة البطن. في هذه الأثناء يتكاسل الجلد فينتج الكولاجين والإيلاستين بنسبة أقل: فيترهل الوجه والجسم، وتفتقر العظام للكالسيوم، فتصبح هشّة: إنه ترقق العظام. . .

فإذا أردتم سيداتي معلومات كاملة عن العلاج الهرموني البديل، استشرن الطبيب النسائي، فهو لديه منشورات معدّة باتقان عن هذا الموضوع. وستجدن في قاعة الانتظار في عيادته كومة منها قرب المجلات النسائية الشهيرة.

أما أنتم أيها الرجال فدعكم من تلك النظرة الحمقاء واسرعوا لشراء الشوكولا أو الأزهار لزوجاتكم... ولكن تجنبوا شراء الزنبق من فضلكم... لا تشتروا الزنبق فلم يحن وقته بعد، تعلمون طبعاً أن الزنبق يوضع على القبور!!

النساء والحساب

مسألة الأحكام المسبقة التي لم تحلّ بعد.

أثبت بحث قامت به جامعة براون الأميركية، على طلاّب من الجنسين، أن النساء يعطين نتائج أفضل في امتحانات الحساب في غياب الرجال! فالنساء اللواتي قدّمن امتحانات في قاعات خالية من الرجال أجبن بشكل صحيح على ٧٠٪ من الأسئلة. في حين لم تحصّل النساء اللواتي أجرين امتحاناتهن في القاعات المختلطة إلا على نسبة ٥٨٪ من الإجابات.

ويعتقد مايكل إنزليخت الذي قام بهذا البحث أن النساء يتأثرن بما يسمّى «مخاطر الأفكار المسبقة». والفكرة المسبقة في هذه الحالة، هي تلك القائلة بأن الرجال يتفوّقون على النساء في مجال الحساب. وتواجد الجنس الآخر في الصالة يذكّر النساء بهذا الكليشيه، الذي يشوّش أفكارهن. أما في امتحان الإنشاء الذي ليس فيه للمرأة السمعة نفسها فلم يظهر أي فرق في النتائج مهما كان جنس من في القاعة. وفي الحالتين لم تتغيّر نتائج الرجال.

حسن... ما هو إذاً تأثير النباتات الخضراء داخل القاعة؟ وما هي نتيجة الاختبار في هذه الحالة؟

غيميت فور

مجلة Elle يناير ٢٠٠١

المرأة تتقن العطاء
الرجل يتقن التلقي

المرأة تعطي؟ والرجل يأخذ؟ سبحان الله! هناك ما يدعو للاحتفال، إنه مكسب حقيقي. أخيراً وجدنا شيئاً نستطيع أن نقول فيه إن الطبيعة تعمل على أفضل وجه. وإنها استطاعت أخيراً أن تبني ما يشبه التكامل.

أحقاً؟! ثمة جدل حتى في هذا!

المرأة تهب، نعم. فذلك محفور في تاريخها وعقلها وهرموناتها، ولكن لا داعي للمبالغة.

وإذا كان الرجل يتلقى فلا سبب يدفعنا للاعتقاد بأنه يتقبّل كل شيء.

ماذا لو توقفت النساء عن الاهتمام بالآخرين؟

هل تتخيّلون امرأة تضع طبق الطعام في وسط الطاولة ثم تسكب منه لنفسها أولاً؟ والآن تصوّروا رجلاً في الموقف عينه؟ حتى أنه إذا ما انسجم بالحديث، ينصرف انتباهه بشكل يجعله ينسى اللياقة ويسكب لنفسه القطعة أو الحصة الفضلى.

تشعر المرأة بأنه يحكم عليها استناداً إلى العلاقات الطيبة التي تقيمها مع الآخرين. فمن خلال نقطة تكسبها إذا ابتسم لها أحدهم

شاكراً، وصورة جيدة عن نفسها كلما أثنى أحدهم على أعمالها، تستطيع في كافة الظروف أن تقيم توازناً في حسابات الخدمات التي تؤديها، وتكوّن عن نفسها صورة مرضية نسبياً.

وتمضي المرأة حياتها كلها وهي تتساءل عمّا يسعد الآخرين. وهي لا تحاول تلبية رغبات وحاجات المحيطين بها فحسب، بل تجد من الطبيعي أن تستبقها أيضاً. وإذا صدف أن طلب أحدهم منها شيئاً لم تسبق هي إلى إعطائه إياه، أحسّت بأنها مخطئة تقريباً لأنها لم تفكر بذلك قبل أن يُطلب منها. فإذا ذكّرها أحد أولادها بأنها لم تحضّر تارت الشوكولا منذ وقت طويل، كرهت نفسها لأنها لم تفكر في ذلك في الليلة الماضية. أو إذا لفت زوجها انتباهها إلى أن المخلّلات التي يحبها نفدت لاحمّرت خجلاً وسخطاً. أما عندما تخبرها زميلتها إنها انتظرتها طوال الصباح لتشرب معها القهوة فستحسّ أنها تخلفت عن نداء. إنها تسعى إلى الكمال من الناحية السلوكية. فالطريقة المثلى بنظر المرأة لإظهار مدى اهتمامها بشخص ما، هي أن تعطيه كل الأدلة الحسية على ذلك... أن تهب من دون حدود... أن تهتم بالآخرين وتوليهم انتباهاً ورعاية حتى لا تكاد تغفل عن أي حاجة لهم، أو تخطىء في تقدير ما يتوقعونه منها. هكذا تتجلى صورة حواء بأبهى معالمها!.

لماذا لا يحفظ الرجال أسماء تلك الأزهار اللعينة؟

أما صورة الرجل فمختلفة. فبعد أن يقوم بواجباته، حسب دفتر شروطه الخاص، أي تأمين لقمة العيش والسقف الملائم لعائلته، يصبح كل ما عدا ذلك ثانوياً. ولا تنسوا أنه يشعر بأن الناس يحاسبونه استناداً إلى نتيجة جهوده الرامية إلى تحقيق هذا الهدف. العطاء أمر حسن، إلا أنه يتطلب بعض المخاطرة. خطر ارتكاب خطأ، أو

تخييب أمل الآخر بعدم بلوغ المستوى المطلوب. فتصوّروا لو أخطأ يوماً في نوع الأزهار التي عليه أن يحضرها، أو في مكان المقاعد التي عليها أن يحجزها في المسرح، أو إذا حجز طاولة في مطعم غير مناسب!. تصوروا ماذا يحصل لو أنه عاد يوماً وهو يحمل بطاقات سفر لقضاء عطلة على الثلج يمارس فيها الرياضات الشتوية، بينما عائلته كلها تحلم بعطلة في بلاد مشمسة وبالبحر الأزرق الصافي وأشجار جوز الهند العملاقة؟ كم مرة قيل له في المدرسة: «تستطيع أن تعطي نتيجة أفضل»؟، إذاً لم لا يقرر عدم القيام بأي مبادرة ما دام لم يطلع أحداً على نواياه؟ فهذا أفضل من التهور والمغامرة!!

والأسوأ من هذا هو أن الرجل كلما ازداد تعلقه بشخص ما، كلما اهتمّ لرأيه، وكلما خشي أن يخيّب أمله. والوضع أشبه بحلقة مفرغة.

ولكن إذا كانت المرأة تهب بدون حساب، فالرجل يتلقّى من دون اعتراض، حتى تشعر أنك في جمهورية فاضلة! ولكن لا!.

لم لا يكف الرجال عن طرح أسئلة سخيفة؟

العطاء أمر بديهي بالنسبة للمرأة. هذا صحيح. إلا أن الغريب في الأمر هو أنه بعد مضي وقت معين تشعر المرأة أنها لا تعطي مما عندها فحسب، بل تؤدي أعمالاً. فهي تعدّ الطعام، وتتبضّع، وتعقد صداقات جديدة. وهكذا تصبح حياتها مملوءة بالأعمال. وبما أنها تكره أن يُطلب إليها القيام بعمل ما، ترفض هي أيضاً أن تطلب المساعدة من أحد. بل تذهب إلى أسوأ من ذلك، حين ترد خائباً «كل من يعرض عليها المساعدة طوعاً».

فإذا قلت لامرأة: «أستطيع أن أساعدك»، تجيبك دائماً بالرفض، وهي تكرر لنفسها بأنه لا بأس إن بدا المنزل غير مرتّب؛ يكفي أن تستخدم المكنسة الكهربائية وترتب الأسِرّة وترفع الغبار، وتشتري

الحاجيات وتعد طعام الغذاء وتحضر الثياب من المصبغة. وتقول في نفسها: «لو كان فعلاً يرغب بمساعدتي لما سألني بخبث إن كنت أحتاجها أم لا، بل لساعدني بدون سؤال».

أما الرجل، الذي حاول تقديم المساعدة، فيشعر بأنه أتمّ واجباته عندما يسمع كلمة الرفض، فيدوّن ذلك في سجله ويعطي لنفسه، استناداً إلى ما سمعه، الحقّ بأن يجلس في كرسيه ويفتح صحيفته ويشغّل التلفاز. حتى أنه يستغرب حين تصطدم المكنسة الكهربائية ثلاث مرات متتالية بقدميه. ولكن الحق يقال إن علينا الاعتراف بشجاعة الرجل عندما يعرض المساعدة على المرأة: لأن مجرد التطوع يتطلب منه مجهوداً جباراً.

لم لا تتوقف النساء عن استعمال المكنسة الكهربائية؟

الحل الأمثل لهذه المشكلة هو أن ترضى المرأة بأن تقلّل أعمالها أو أن تخفف من زخم عطائها. وحتى لو كفّت عن العطاء نهائياً، فلا بأس؛ إذ نكسب عندئذٍ امرأة ذات مزاج مرح. وأظن أننا نحن الرجال نستطيع أن نكتفي بالسندويشات على العشاء، إذا كان هذا هو ثمن تطبيق مبدأ التوقف عن تقديم الخدمات؛ لكن ذلك صعب جداً للأسف في ظل ما تؤول إليه الأمور عادة، عندما يتعلق الأمر بموهبة النساء الفطرية هذه! فحتى لو قرر الرجال التنازل عن خدمات النساء لن يحققوا أي مكسب، لأن النساء تماماً كالرجال، لا يتحوّلن بكبسة زر من برنامج إلى آخر، بمعنى أنه لا يمكن تغييرهن بسهولة. وهكذا سوف تستمر النساء ببذل عطاءات تفوق تلك التي تطلب منهنّ. والرجال أيضاً سيستمرون في اعتقادهم أن المرأة تبذل جهوداً إضافية لغاية في نفسها. فلعلّها مثلاً ارتكبت هفوة تسعى إلى كسب التغاضي عنها بهذه الطريقة!!

لم لا يتعلم الرجال العطاء؟

ثمة افتراض آخر، وهو أن يتعلم الرجل كيفية العطاء. وعلى المرأة في هذه الحالة أن تبدأ بطمأنة الرجل فتقسم له أن النيّة هي الأساس، وحتى لو أخطأ في اختيار ما يهبه، سيحتسب له هذا العطاء. حسناً، حسناً... لن يكون من السهل أن تلجم المرأة ضحكتها أمام ياقة ثوب من الفراء الاصطناعي الوردي اللون وتكبت التعليق الذي يتبادر إلى ذهنها حالما ترى ما تراه: «بربّك أين وجدت ثوباً كهذا؟ في متجر لبيع الملابس التنكرية؟»، لن يكون هذا سهلاً أبداً، لكن ذلك هو الثمن. فثابري على أمل أن يتكرر هذا العطاء، والله أعلم، قد يتحسّن ذوقه فيجيد الاختيار في المرة الثانية أو يأخذه اليأس فيطلب المساعدة.

وحتى تحافظ المرأة على مظهر جاد غير ساخر يمكنها مثلاً أن تركز انتباهها على رواية مغامرة شراء الهدية، وبخاصة على اللحظة التي يؤكد فيها الرجل أن البائعة في المتجر، أكّدت له أن الثوب هو نفسه الذي كانت ترتديه عارضة جميلة على غلاف أهم المجلات النسائية. وأرجوك، أرجوك سيدتي، لا تسأليه: «هل قالت لك البائعة في أي سنة صدر هذا العدد من المجلّة؟».

لتشجيع مثل هذه المبادرات ينبغي أن تؤكد المرأة للرجل دوماً أن المراقبين كلهم يجمعون على أن النساء، لا يحتجن للشعور بالسعادة، إلى هدايا ومبادرات باهظة من حيث الثمن أو الذوق، بل يفضّلن الكثير من الهدايا الصغيرة. مع التشديد على كلمة «الكثير».

لم لا تتعلم النساء كيفية التلّقي؟

بقيت وسيلة وحيدة يمكن اختبارها علّها تنجح، وهي أن نزيد قدرة

المرأة على التلقي أو الأخذ. لا مجال للتأكد هنا أيضاً من إمكانية النجاح، إذا لم تكن المرأة من النوع الذي يطلب. لكن حين تقرر أن تفعل وتتدبّر أمرها مستعينة على ذلك بالكلام غير المباشر، الذي يصعب فكّ رموزه، فلا بد إذاً أن يكون لديها عذر وجيه. وعوض التعبير بصراحة عما تريده أو تفكر به فتقول مثلاً: «لطالما رغبت بشراء حقيبة يد بهذا اللون»، تترجم بصوت عال عبارتها هذه وتقول: «ألا ترى أن هذه الحقيبة تشبه قليلاً تلك التي كانت أمي تحملها يوم عرسنا»؟. وإنما تفعل ذلك لأنها تتحلّى بشيء من المثابرة والعناد لتحقيق مرادها.

يجدر بنا أن نضيف تفسيراً دقيقاً لموقفها هذا: لا تكره المرأة تلقي أو أخذ الهدايا، لكنها تخشى أن تعتاد على ذلك فتعتمد على التلقي بدون مقابل. أو أن تبدأ بالاستمتاع بهذا الأمر في المرحلة التي يخفّ دفق الهدايا، حتى يكاد يجف. باختصار، الموقف أشبه بما يقوله غينسبرغ «اهرب من السعادة قبل أن تهرب منك» والمرأة تخشى أن يعوزها شيء، لذلك تفضل أن تحرم نفسها منه. وانطلاقاً من هذه المعلومة، ينبغي على الرجل أن يستمر بعد الانطلاق، وإلا فعليه أن يتوقّع انتقاماً عنيفاً.

لم لا يكف الرجل عن تمثيل دور الشخص غير اللطيف؟

نعم، هذا في الواقع ما يجعل العلاقة بين الزوجين هشّة، عندما تدخل حياتهما دوّامة الروتين. ثمة عوامل كثيرة تشترك للتسبب بهذه الحالة. لكن أحد تلك الأسباب هو أن الرجل يتغير بنسبة لا يستهان بها. ففي فترة الخطوبة يجد الرجل الطاقة والنشاط الكافيين لإظهار وإثبات اهتمامه بالإنسانة التي لفتت انتباهه، فتراه يغدق عليها الهدايا والعناية الخاصة. وبعد أن يبلغ هدفه ـ ولا تنسوا أن الرجال لا

يتحركون إلا بعد تحديد أهداف ـ وبعد أن يستحوذ عليها ـ ولا تنسوا أنه مفطور على المنافسة. . . عندئذ ينتقل إلى هدف آخر ـ ولا تنسوا أن دماغه المجزء إلى أقسام لا يؤهله لأن يصبو إلى أكثر من هدف في آن معاً؛ هكذا ينام الرجال على أمجادهم!

المرأة التي أرادها، التي ناضل للحصول عليها، ها قد امتلكها، بل كسبها. وما الدليل على انتصاره هذا؟ إنه يجدها كل ليلة في بيته عندما يعود من العمل.

هذا ما يقتضيه المنطق، على الأقل من وجهة النظر الذكورية. . . ينبغي أن ينقل الآن اهتمامه إلى «شيء آخر». . . لا. . . لا تتسرعوا في الحكم، فنحن لم نقل إلى «شخص آخر».

من جهتها، تروح المرأة، التي من طبعها الفطري أن تعطي عن غير قصد أو تصميم، تمنح ما في ذاتها لذاك الرجل بالذات أكثر من سائر الناس، بحجة أنه أعجبها. فقد بدأت تراهن على علاقة ثابتة به.. لا تنسوا توق البشر إلى ضمان استمرارية جنسهم!. على خط آخر، تطمئن المرأة إلى بوادر الاهتمام، ولو كانت واهية، فهي تلتقطها كالرادار. . . تعرف المرأة في قرارة نفسها حقيقة مشاعره نحوها وتشعر بصدقها؛ والجهد الذي تبذله جبّار. . . فهي تضغط على نفسها لتخفف من تحفّظها وخوفها، ولتتخلّى عن دفاعاتها الحصينة فتتقبّل عطاءاته.

ولكن المرأة تستفيق في صباحية أحد الأيام، وهي تدرك التراجع في اهتمام زوجها بها، إن لم نقل انعدام هذا الاهتمام. ما يدفعها إلى الشعور بأنه خدعها.. لا تنسوا أن الرجل هو المبادر الرسمي في كل شيء.

لا يسعنا طبعاً أن ننكر على المرأة شعورها هذا، فأي شخص في

موقفها كان لينتابه الإحساس نفسه. وبما أن المرأة ليست من النوع الذي يتجاهل انفعالاته وعواطفه، وبما أنها تتألم لما آل إليه وضعها... تحسم أمرها وترحل.

لم لا تعيد النساء النظر في موقفهن من الخداع؟

سعياً منّا إلى إحقاق الحق وحرصاً على العدل، لا مفر من ذكر السبب الوجيه الآخر الذي يؤدي إلى قطع متسرّع للعلاقة بين الرجل والمرأة: إنه التغيير الذي يطرأ على المرأة. ففي بداية العلاقة، تكون المرأة مقتنعة تمام الاقتناع بأنها لا تستحق الاهتمام الذي يبديه الرجل بها، ربما لأنها غير معتادة على التلقّي. وتؤدي هذه الحالة إلى انجرافها في تيار المظاهر الخدّاعة؛ وإليكم السيناريو المعبّر: «ياه، باقة أزهار لي أنا! صحيح أنها مجرد زنابق، ولكن لا بأس، فهي أزهار على أية حال». «ما ألطفه! يتصل بي في المكتب ليقول إنه يفكر بي! صحيح أن الاتصال جاء حين كنت أعالج خطأ على جهاز الكمبيوتر، فكدت أفشل في ذلك، ولكن لا بأس، يسعدني أن أعرف أنه يفكر بي». أو «يا له من شخص محبّ! أتى ليأخذني من المكتب من دون أن يخبرني بقدومه! حسن، كنت أنوي أن أذهب الليلة إلى النادي الرياضي، ولكن لا بأس، فقد كلّف نفسه عناء الحضور». أو «أحسنت حبيبي، أرى أنك مررت بالمصبغة لإحضار الثياب! ماذا فعلت أنا في هذا الوقت؟ لا شيء مهمّ! غسّلت الصحون وكويت الثياب، وملأت أوراق الضمان الاجتماعي المهملة منذ شهرين، وتلك الخاصة بك أيضاً، واتصلت بالسمكري لتأجيل موعدنا معه، واتصلت أيضاً بوالديك لأقول لهما إننا لن نستطيع الحضور للعشاء في منزلهما. الحمد لله أنك مررت بالمصبغة وأنت عائد إلى البيت، أتعبتك معي».

والمصيبة أن ردة فعل المرأة على هذه التصرفات، تأتي دهشة واستغراباً، وتعكس سعادة فائقة، حتى تكاد تشعر بها عبر سلك التلفون؛ الأمر الذي يفرح الرجل فرحاً عظيماً.

تمرّ أشهر أو بضع سنوات... ويتغيّر المشهد: «زنبق؟ أتسخر منّي!». أو «ألو، أهذا أنت؟ سأقفل الخط، اتصل لاحقاً، أنت تزعجني الآن، عليّ حفظ ملفّاتي»، أو «لِمَ لم تتصل قبل أن تأتي لاصطحابي.. أنا ذاهبة الليلة إلى النادي الرياضي. عد وحدك إلى البيت، اتفقنا؟» أو «أحضرت الثياب من المصبغة؟ يا له من إنجاز! أتريد أن أخبرك بما فعلته أنا في هذا الوقت؟».

عليك أن تسترجعي سيدتي إحساسك بعرفان الجميل، أتظنين أن ذلك ليس عدلاً؟ أوَ تتساءلين إن كان هو يعترف بجميلك حين تفعلين كل ما تفعلينه؟ أوَ تقولين في نفسك إن إحضار الثياب من المصبغة لا يضاهي لائحة الأعمال المضنية الأخرى التي تنجزينها؟

نعم، أنتِ محقّة من حيث المبدأ. ولكن إن أردته أن يعيد الكرّة فيريحك ولو من مهمة واحدة، أو إذا أردته أن يحسّن أداءه، عليك أن تبدي له شكرك وتقديرك للجهد الذي قام به. إنه تصرّف إلزامي، لأن الرجل يحتاج إلى تشجيع لكي يتخطى ذاته وقدراته. ولا تنسي أن الرجل ليس من النوع الذي يتحمّل الانتقاد، وأن ذلك يؤلمه ويدفعه إلى الرحيل.

لم لا نلعب لعبة البائع والشاري؟

إن المرأة بحاجة إلى أن يهتم الآخر بها، ويثبت اهتمامه ببعض المبادرات، وهذه ميزة نسائية بحتة، تتجلى من خلال ما تراه في عالم التجارة. فقد عمدت بعض الشركات والمتاجر الهامة إلى تدوين تواريخ مولد زبائنها من النساء، وحرصت على عدم إغفالها، وهو أمر

بات سهلاً مع انتشار وسائل المعلوماتية؛ فترى هذه المؤسسة أو تلك تفسّر تخفيضات الأسعار بأنها نتيجة لمشاركة النساء في إنجاح المؤسسة عبر شراء منتجاتها. وترى أخرى تقدم «عروضاً حصرية» أو «تنزيلات خاصة»... من المؤكد أن تلك الشركات والمتاجر فهمت حاجة النساء إلى المبادرات التي تنمّ عن الاهتمام بهنّ. إنها سياسة تسويق، ولكن ألا تعتمد سياسات التسويق كافة على علم النفس ومبادئه الأولية؟!

فإذا تقبّلت كبرى الشركات حقيقة المرأة هذه، واستخدمتها لصالحها، ولِمَ لا يقدر الرجل أن يقبل بها؟

الرجل والمرأة مختلفان
وهذا نذير خلافات!

عندما تتشاجر المرأة والرجل، لا يتواجهان كشخصين فريدين من نوعهما، بل كنموذجين يمثّل كل منهما جنسه بشكل منقطع النظير. ويحاولان أن يبرز كل من جهته ميّزاته الفريدة.

لا نتحمّل نحن مسؤولية هذه الفوارق على صعيد فردي، بل هي تركة جماعية تعنينا كلنا. ماذا نستنتج من هذا التحليل؟ بشرى سارة... كلنا أناس طبيعيون!

لا بد أنكم تفكرون بأن لا شيء يضحك ويمتع في فكرة أننا جميعنا متشابهون! لكن ألا يريحكم أن تتركوا العتاب جانباً وتكفّوا عن محاولة تغيير الآخر بهدف أن يشبهكم في النهاية؟ إنها محاولة عقيمة في كافة الأحوال. عجب عجب لما نقدم عليه من تصرفات غريبة في الحياة! ليس لأجلنا، على حد قولنا، بل لأجل الجنس الآخر!.

في الحياة، المرأة تعيش والرجل يعمل

لنعد إلى فجر الإنسانية، حين كان الناس يسكنون الكهوف، ولنتأمل النساء اللواتي تحلّقن حول النار تؤنس إحداهن الأخرى. لعل هذا المشهد يبدو غريباً بعض الشيء، غير أنه في هذا الجوّ الهادىء واللطيف، لا تبدو النساء اللواتي توردت خدودهن من وهج النار وكأنهن يفعلن شيئاً ذا أهمية. فالنساء ما كنّ يعملن طبعاً لأن عليهن الاعتناء بأطفالهن وإطعامهم والاهتمام بهم. إلا أنهن ما كنّ كنساء اليوم يتوترن ويتصرفن بعصبية، بل بدا أنهن يتركن الوقت يمر بسلام إلى حين عودة الصيّادين حاملين معهم الطرائد.

والمرأة في القديم البعيد ما كانت تجلس طوال النهار مكتوفة الأيدي. أبداً! فلكثرة ما مكثت مع النساء الأخريات، تعلمت كيف تتفهمهن وتهتمّ لأمرهن. واعتادت على فهم ما يردنه وما يتمنّينه. فراحت تقدم العون للأخريات دون أن يُطلب ذلك منها؛ فالآخر بالنسبة للمرأة هو نساء الجماعة الأخريات وهو أيضاً رجال القبيلة عندما يكونون حاضرين.

النساء تتواصل بواسطة نبرات الصوت والحركة. ويعتمد كيانهن على المشاعر والأحاسيس والانفعالات. في الواقع، إن النساء في قديم الزمان كنّ يعملن الكثير، إلا أن العمل ما كان يظهر عليهن، في حين أن الرجال يرمون الطريدة في وسط الجمع، بعد أن يتحلّق أفراد القبيلة كلهم للاستمتاع بمشهد الوجبة الشهية. الرجل يعمل وهذا هو

الدليل. ولا مجال للشك بأن الرجال يحبّون أن تظهر أعمالهم أمام الناس جميعاً.

على ماذا يدلّ هذا الإنجاز؟ على كفاءة الرجل وتفوقه على الآخرين وعلى العوامل الطبيعية!

تسعى المرأة إلى إقامة الانسجام

لم يتغير شيء، لقد اكتسبت النساء الحقوق كلها حتى حق مجاراة الرجال في كل شيء، إن لم يكن التفوق عليهم أيضاً. ولكن في أعماق أنفسهن شيء ما يحتل مرتبة مرموقة في لائحة تطلعاتهن. فالأهم بنظرهن هو الحضور الفعّال، المنسجم... الانسجام مع أنفسهن ومع الآخرين ومع انفعالاتهن.

ما يهم المرأة هو أن تفهم الآخر ويفهمها.

عندما تتكلم النساء في ما بينهن يدور الحديث في معظم الأحيان عن حياتهن: علاقتهن بأزواجهن ومحيطهن، مما يؤكد اهتمامهن بفهم الآخرين.

يتحدثن أيضاً عن الحميات المنحّفة لأنهن يرغبن بأن يكن في أفضل حال ممكنة؛ ويتكلمن عمّا يتبضعنه من حاجيات فيكشفن عن رغبة في تدليل أنفسهن.

والرجال... عمّا تراهم يتحدّثون عندما يجتمعون؟!

عن أفعالهم وإنجازاتهم في المكتب وعلى أرض ملعب رياضي أو في العطل. فيتباهون بأنهم كتبوا تقريراً من ٢٥٠ صفحة، أو ربحوا ثلاث جولات أو نجحوا في تحقيق أهداف فجعلوا الكرة تدخل الحفرة ١٨ مرّة وهم يلعبون البولو. ويتحدثون عن رحلاتهم إلى

البيرو أو جبال الهملايا أو عن براعتهم في تحضير وجبات لذيذة أو حتى. . . لا، هذا لا!.

يسعى الرجال للنجاح

حين نعرف لماذا يشعر الرجل بأنه يحاسب بحسب قدراته، يبطل العجب. وهذا بالذات ما يدفعه إلى عدم الاعتراف بمكامن ضعفه أمام أعدائه. فهم طبعاً سيستغلّون هذا الأمر. وهو لا يعترف بها حتى أمام حلفائه فطلب المساعدة منهم يعني الشك بكفاءته.

الرجل مبرمج إذاً، على الاكتفاء الذاتي وهو يفضّل أن يتوه ألف مرّة عن الطريق الصحيح على أن يستوقف أحدهم ليرشده إليها، بإشارة من إصبعه. الجميع يعرف، عن سابق تجربة، أن الرجل لا يستعلم عن طريقه، حتى بات الأمر أشبه بمبدأ أخلاقي. وإذا اقترفت المرأة الجالسة قربه في السيارة الخطأ المميت، فطلبت منه بلطف أن يسأل أحدهم عن الطريق، لأنها تجهل أن للرجل مثل هذه الحساسية، حصدت للحال ثمرة تهورها وعلمت لماذا يسمّى المقعد قرب السائق في الغرب «مكان الميت».

فردّة فعل الرجل الذي تخاطبه، غضب ساطع قاتل. لا يقبل الرجل المساعدة قط، فهو لم يتقبّل المساعدة حين حاول معالجة ضعفه بمادة الرياضيات في سن المراهقة لذلك حصل على باكالوريوس فرع أدبي. ولم يطلب المساعدة حين حاول جاهداً تشغيل عصّارة الفاكهة أو جهاز الكمبيوتر الجديد أو آلة جزّ العشب. إنه يريد أن ينجح بمجهوده الخاص. وإن لم ينجح فهو لا يأبه. وهو الخاسر طبعاً، لأنه في كافة الأحوال لن يستطيع بلوغ النجاح وحده دون مساعدة من أحد!.

المرأة تتقدم والرجل في المقدمة

يتمتع دماغ المرأة بحواس مرهفة ما يجعله مبرمجاً للتفاعل مع الناس والذبذبات التي يطلقونها. ما يهم المرأة هو بساطة العلاقات مع الأفراد والتواصل الذي يقيمونه معها وفيما بينهم، والانسجام الذي يتوصلون إليه مع بعضهم البعض. تفضّل المرأة التعاون والمشاركة والمساهمة، وهي تقيس نجاحها أكثر ما تقيسه بحسب التقدم الذي أحرزته قياساً إلى ما كانت عليه سابقاً، عوض أن تحصي عدد الضحايا الذي أوقعته في طريقها إلى تحقيق هدفها.

ولنتجنب من جديد الوقوع في خطأ وصف المرأة بالمخلوق الملائكي، نشير إلى أنها قادرة على سحق أي منافس للحصول على مبتغاها. غير أنها لن تعلق نجاحها وساماً على لوحة إنجازاتها. تفضّل المرأة أن تنسى ما حققته من تفوّق لأنها تعتقد أن السبب في نجاحها ليس فشل الآخرين.

أما الرجل فبفضل قدرته المدهشة على رؤية الأشياء بالأبعاد الثلاثة، يتفاعل دماغه الذكوري مع الأشياء وأشكالها، ويبدي اهتماماً بالعلاقة التي تربط الأشياء ببعضها البعض. ومن ثم بالعلاقات التي يبنيها لتحسين طريقة عمل هذه الأشياء. هذا ما يفسّر هوس الرجل بالآلات والسيارات السريعة والطائرات التي تحلّق عالياً... وعلى حدّ قول مثل أمريكي: «الفرق بين الرجل والصبي هو الفرق في سعر ألعابهما». فالرجل يهتم بالنتيجة أو المبتغى. وفي الحياة عامة، يبدي اهتماماً كبيراً بالمركز الاجتماعي، أو بالسلطة بروح مفطورة على المنافسة دائماً. فمن مِنَ الرجال، المزوّدين جميعهم بهذه النعمة، يستطيع أن يتفوّق على الآخرين؟ من سيتغلب في النهاية؟ من سيفوز؟ من سينتصر؟ وبالتالي من هم المهزومون وكم عددهم؟

تؤخذ هذه المعطيات كلها بعين الاعتبار عندما يُحسب نجاح الرجل على الصعيد الشخصي.

المرأة تهتم بالناس والرجل بالأشياء

منذ الولادة تشعر الفتاة بانجذاب إلى الوجوه وتبقى تتأملها لبضع دقائق أكثر مما يفعل الصبي الذي تجذبه الدمى المتحركة المعلّقة فوق سريره.

وما تكاد الفتاة تبلغ بضعة أشهر حتى تتمكن من التمييز بين الوجوه المألوفة وتلك الغريبة منها. في المرحلة ذاتها يعجز الصبي عن ذلك، غير أنه يبرع في العثور في محيطه على لعبة أوقعها.

في هذا الإطار أُجري اختبار على أولاد لم يبلغوا عمر الدخول إلى المدرسة، وعُرضت عليهم صور أشخاص وأماكن وطُلب منهم أن يتكلموا عما رأوه. فراح الصبيان يصفون الأماكن أما الفتيات فذكرن الأشخاص. وحين وضعت قطع الليغو (قطع خشبية أو بلاستيكية تبنى منها أشكال) أمام الأولاد، أخذ الصبيان يبنون منها عمارات وأبراج ويحرصون على أن تكون مرتفعة ضخمة. أما الفتيات فقمن ببناء شيء غير محدد، لا شكل له (أهو منزل؟ أو مدرسة؟) وروين حياة الأشخاص الذين يعيشون في داخله. واستناداً إلى هذه الاختبارات راحت كبرى شركات صناعة الألعاب تضيف إلى صناديق ألعاب الليغو التي تهدى اليوم للفتيات أيضاً، أشخاصاً وحيوانات بلاستيكية في حين أنها لم تكن في البداية تحتوي إلا قطع التركيب.

وفي إطار الاختبار نفسه، أُعطي رجال ونساء ذاهبون في عطلة آلات تصوير وعرضت الصور التي أخذوها بعد عودتهم من العطلة. وستندهشون عندما تعرفون أن الرجال صوّروا مجموعة من المواقع الأثرية والمناظر الطبيعية، أما النساء فصوّرن أشخاصاً ووجوهاً.

رغم الجهود التي يبذلها الأهل لتربية أولادهم تربية عقلانية، يعجزون عن منع الصبيان من الاهتمام بالآلات وطريقة عملها، لأنهم مبرمجون على هذا. ولا حول ولا قوة للأهل أمام ميل الفتيات إلى تفضيل الناس وعلاقتهم ببعضهم البعض.

تلك حقيقة ثابتة... وهكذا هي تركيبتنا العقليّة، التي تفرض على الجنسين ميولاً معينة، وتحدد ما نفضّله من الأشياء. فما السبيل إلى مواجهة هذه الحقيقة؟ أو بالأحرى، لماذا علينا أن نواجه حقيقتنا ونقاومها؟!

المرأة ثابتة والرجل متقلّب

إنها المعطيات نفسها التي تجعل الرجل والمرأة يتصرفان بشكل مختلف حين يمسكان جهاز التحكم عن بعد ويجلسان أمام شاشة التلفاز. فحين يشاهد الرجل فيلماً يهتمّ أكثر ما يهتم ببدايته ونهايته. أما ما يحصل بين هاتين المرحلتين، من مشاعر واضطرابات ونزاعات، فما أهميته؟!

يتنقّل الرجل بين محطة وأخرى، ويتوصل دون جهد يذكر، إلى مشاهدة برامج عدّة في آن واحد.

ولكن الوضع يختلف طبعاً إذا ما كان البرنامج رياضياً حيث تستحق كل قفزة أن تُشاهد أكثر من مرّة، وفي إعادة بطيئة أيضاً لمعرفة من هو الرياضي الأقوى والأبرز.

أما بالنسبة للمرأة، فالصورة معكوسة. تراها تهتم بتسلسل الأحداث وترابطها وتطور المشاعر، فما إن تختار محطة ما حتى تثبتها عليها فلا تغيّرها حتى أثناء الوقفة الإعلانية، لأن تغيير المحطة يشوّش اهتمامها بتطور القصة، هذا إن لم يصرف انتباهها إلى برنامج آخر.

لذلك تختار أن تتحمّل الفقرة الإعلانية باستسلام أو بعدم مبالاة.

الرجل والمرأة والعطل

تتحول كل الأشياء، وحتى أوقات المتعة، بحسب المعايير الذكورية، إلى أهداف ينبغي تحقيقها.

إن مشاهدة رجل ينطلق لقضاء عطلة تثير الدهشة، لا سيما إن رافقته زوجته وزاد الأولاد الأمور تعقيداً.

تبدأ العطلة برأي الرجل عند وصوله إلى المكان الذي سيمضي العطلة فيه. إذاً، عليه أن يبلغه بأسرع وقت ممكن. لذا نراه يحدّد وقت الرحلة وساعة الوصول ناهيك عن عدد المحطات التي سيتوقف فيها، ومدة الاستراحات. وما يكاد يحين وقت توضيب الأغراض في السيارة حتى تبدأ المأساة، فمهما كان عدد الحقائب هناك دائماً واحدة لا يبقى لها متّسع في السيارة. ولا يتخلّى صاحب هذه الحقيبة، رغم توسلات باقي الركاب عن حقيبته هذه. كما لو كان الأمر يتعلق بالتنازل عن حيوان منزلي أليف.

وعندما يفشل الرجل بإقناع صاحب الحقيبة بالتخلّي عنها، يبدأ باستغلال قدرته على رؤية الأشياء بكافة أبعادها ويضع نصب عينيه النجاح في إدخال الحقيبة المشاكسة في السيارة.

يبدو في البداية أن الأمور تسير على ما يرام: يفرغ الرجل حمولة السيارة لاعتقاده بأنه سينجح بحلّ المشكلة إن هو أعاد ترتيب الحقائب في داخلها بشكل مختلف، فيتمكن من تحقيق غايته وهي الانطلاق أخيراً في رحلة العطلة. وعبثاً تحاول زوجته أن تشرح له أن تغيير الترتيب لن ينفع. فالكتب كلها أجمعت على هوية صاحب القدرة الفائقة على رؤية الأشياء بكافة أبعادها!

إنه الرجل دائماً وأبداً!

يكفي أن يعرف هذا ويصرّ على المضي قدماً حتى تحقيق الهدف. والمرأة في هذه الحالة لا تجرؤ على التفكير بأنها هي المحقّة ورأيها هو الصائب من حيث المنطق والعقل!.

الأمر الذي يدفعها إلى كبت الملاحظة الفظّة التي تكاد تفلت منها عندما ترى أنه عاد إلى نقطة الصفر: «ما زال لدينا حقيبة إضافية. نعم... نعم ليست الحقيبة التي بقيت خارج الصندوق في البداية. ولكن ها نحن مع حقيبة إضافية رغم كل ما فعلته!».

الرجل والمرأة ومكان العطلة

ينتهي الأمر بالمرأة دائماً بوضع الحقيبة بين ساقيها في المقعد الأمامي حقناً للشجار وإرضاءً للجميع. لا يهم! وإذا أرادت أن تصل من دون أن ترتسم على ساقيها خطوط عميقة، ما عليها إلا أن تدهنهما بمقدار أكبر من الكريم المزيل للتجاعيد.

الخلاف جعلهم يضيعون نصف ساعة أخرى، والتأخير ليس مستحباً. يحاول الرجل أن يحسب الوقت وهو يتذمّر... ويقرّر عدم التوقف لقضاء حاجاته. لكن لسوء الحظ، ها هو ابنه الصغير يقول في هذه اللحظة بالذات أنه لن يستطيع حبس نفسه أكثر وهو يحتاج أن يتبوّل. عمر الولد عشر سنوات لكن البابا يتمنى لو أنه لا يزال يضع الحفاض، فهو الحلّ الأنسب في ظروف كهذه!! لا بد من التوقف طبعاً، ولأكثر من مرّة... بل أكثر من المتوقع... مما سيجعلهم يتأخّرون أكثر فأكثر.

لكن على ماذا تُراهم يتأخّرون؟

المرأة في هذا الوقت تقول في نفسها كلاماً بسيطاً إلى حدّ

السخافة: «إذا وصلنا قبل الوقت بساعة أو بعده بساعة، بمَ يؤثر علينا ذلك؟ ماذا نربح أو ماذا نخسر؟».

لمَ تقول شيئاً بهذه الغرابة؟ شيئاً لن يتقبّله ذلك الذي يفرغ السيارة بتذمّر! لماذا تجعل نفسها مسؤولة عن إفساد جوّ السهرة الأولى على شاطىء البحر؟! لا، لن تقول ما يجول في خاطرها.

العطلة بالنسبة إليها بدأت منذ الصباح، منذ الانطلاق، أو بالأحرى منذ توضيب الحقائب، بل أكثر، منذ أن رأت اللائحة التي أعدّها زوجها بما يحتاجونه. إنها مسألة غاية ووسيلة... فعينا الرجل تنظران إلى الهدف في حين تستمتع المرأة بالطريق.

هل يعيد التاريخ نفسه؟! هل يذكرنا ذلك بالصيد والقطاف؟! ربما وربما لا!.

الرجل والمراة والتسوق

تُطرح المشكلة ذاتها تقريباً عندما يحين موعد الذهاب للتسوق في السوبر ماركت.

هل لاحظتم يوماً إصرار الرجل على إعداد لائحة بالحاجيات التي ينبغي شراؤها؟ لائحة كاملة تامة، لا ينقص فيها شيء.

مرتّبة ومنسّقة بحسب الرفوف التي سيمرّان فيها تباعاً داخل المتجر. حتى يكاد الرجل يطبع تلك اللائحة ويسحب منها نسخاً كثيرة يوزعها على فريقه المغوار. فبالنسبة إليه، يشكل التسوّق مهمة عليه إتمامها، وهي شراء الطعام ولا مجال للتهاون أو التساهل في قضية كهذه!!

أما المرأة فتعد اللائحة مرغمة، لكنها تنساها في المنزل. ولعلها

تفعل ذلك عمداً وعن سابق إصرار وتصميم لأن ما يغريها في فكرة التسوق هو التوقف أمام الرفوف كلها وشراء كل ما يقع تحت يدها وتساورها نفسها بوضعه في العربة التي تجرّها... حتى لو كانت ستكره نفسها عندما تعود إلى المنزل وتبدأ بتوضيب الأغراض في الخزائن. عندئذٍ فقط ستلاحظ الأشياء غير الضرورية التي ابتاعتها ولا تعلم الآن أين تضعها. إلا أنها تشتري بنهم متغاضية عمّا سيلحق بها من ملاحظات لاذعة لا بدّ لزوجها أن يتلفّظ بها بسبب ما اشترته من حاجيات غير ضرورية. وأسوأ ما في الأمر أنه على حق في ما يقوله!!

أيذكركم هذا بالصيد أو بالقطاف؟ ربما وربما لا!

الرجل والمرأة والواجهات

لنتبعهما الآن عصر ذلك اليوم نفسه. سيذهبان لشراء الثياب... المرأة تفكّر بالتوقّف أمام المتاجر لرؤية ما يعرض في الواجهات، في حين يفكر الرجل بشراء ما يحتاجانه. الفجوة باتت واضحة، ولكن في الوقت الحاضر لا أحد يراها.

يبحثان الآن عن مكان يركنان فيه السيارة. ويتساءل الرجل متسامحاً: «أين أركن السيارة؟» فتجيبه المرأة وكأنها مستعدة للتحاور: «حيثما تريد» ويرد عليها وقد بدأت أمارات الغضب تظهر عليه: «أنا لا أريد شيئاً، نحن هنا للتبضع وليس للتنزّه» أما هي فتقول في نفسها: «هذا نذير شؤم». لكنها تحرص على ألا تعبّر عما تفكر به. فيبجيبها من جديد وقد ارتسمت على وجهه بسمة جامدة بعض الشيء: «حسناً، ماذا سنشتري؟».

كانت تتوقع سماع مثل هذا السؤال بقليل من التخوّف.

تعدّد له غرضين أو ثلاثة، لم تفكر بهما من قبل! وتشير فجأة، مسرورة لمقاطعته، إلى مكان خالٍ قائلة: «اركنها هنا». وتضيف بقليل من سوء النيّة: «المكان ليس بعيداً، سنذهب مشياً». بالنسبة إليه، مجرد التفكير في المشي يجعله يفقد صوابه: «السير؟! في وسط المدينة؟ وما الفائدة؟ أوافق على أن نركض وهذا منطقي، فقد يبدو وكأننا نمارس الرياضة، ولكن أن نمشي... ولم لا نلقي نظرة على الواجهات مثلاً، ما دمنا هنا؟!» تبدو مسرورة لأنها حققت مبتغاها دون مساعدة أحد، وتجيب: «طالما نحن هنا، يا لها من فكرة سديدة!».

أيذكركم هذا بالصيد أو بالقطاف؟ ربما وربما لا!

الرجل والمرأة والتبضع

هذا المساء عند عودتهما، لن يحملا معهما أي مشتريات. على أي حال، لم يشتريا ما ذهبا لشرائه في ما خلا جوارب لها وقطع دومينو للأولاد وقفّازين له... قفّازين صغيرين بعض الشيء، ولكن الجلد سرعان ما يرتخي. هذا على الأقل ما أكّدته البائعة التي نصحته بالعودة الأسبوع المقبل، لأنها ستتلقى قفّازات تناسب قياس يديه.

أما سبب عدم إصرارها فهو عائد إلى أن ساعة الإقفال قد حانت. وبدا هو متمسكاً للغاية بفكرة شراء قفّازات أصغر من قياس يديه.

بالعودة إلى المرأة، فهي لم تترك شيئاً لم تجرّبه، بدءاً بالكنزات مروراً بالتنانير والأحذية. وأفرغت بضائع المخازن كلها لأنها تبحث عن معطف للصغير، ومزلاجين للبكر، وطناجر للمطبخ. ولكنها لم تشتر شيئاً. ستعود فيما بعد لأنها لا ترغب بالشراء في الحال. فكرة الشراء بحد ذاتها تجعلها تشعر بأنها تشتري، لأنها تجد متعة في التجوّل في الطرقات بقدر ما تجدها بالوصول إلى هدفها. في النهاية،

تقضي وقتاً مسلّياً حتى لو لم تشتر شيئاً!.

أما الرجل المسكين، فرغم أنه اشترى قفّازين، يكون قد أمضى يوماً مقرفاً نكداً. كحصان اصطحبه صاحبه إلى السوق قبل أن يطعمه. وها هو يعود في نهاية النهار منكس الرأس، يشعر بالخيبة والخجل والغيظ... ينتابه شعور بالعار وعدم الفائدة!

أيذكركم هذا بالصيد أو بالقطاف؟ ربما وربما لا!

الرجل والمرأة والثياب

في اليوم التالي، انظروا إليها تقف أمام خزانة ملابسها منذ ربع ساعة ثم تصرخ وهي على وشك أن تصاب بنوبة عصبية: «سئمت، سئمت! لا أجد أبداً ما أرتديه». ما هي برأيكم ردّة فعل زوجها في هذه الحالة؟ عادية؟ رغم إرادته الطيبة، علينا أن نعترف أن ما يستطيع فعله محدود جداً!

فهو إما أن يسكت ويخاطر بأن تصفه بالأناني وأن توبّخه مجدداً لأنه لم يصغ إليها... ولكن على أي حال يعتبر هذا التصرف أفضل موقف يمكن أن يتخذه أو على الأقل الأكثر حذراً. وإما أن يجيبها بشيء من هذا القبيل: «ولم تعتقدين أننا أمضينا ثلاث ساعات في المتاجر أمس؟ ألكي نرفع عدد زوّارهم في الإحصاءات؟» وهنا تسكت شهرزاد عن الكلام المباح. فأيّ ردّ يمكن أن يفجّر الموقف، فتندلع حرب كلامية تدوم ثلاثة أو أربعة أيام، بحسب طباع الزوجين، يتبادلان أثناءها إطلاق الشتائم والإهانات من العيار الثقيل.

وإما أن يسديها نصيحة قائلاً: «هذا الطقم الأسود والقميص الذي أهديتك إياه قد...» لكنه يواجه الطريق المسدود نفسه، وذلك لسبب وجيه. عليه أن يعرف أن المرأة حين تقول إنها لا تملك ما ترتديه

فهذا لا يعني أن ليس لديها ما ترتديه!

الرجل والمرأة والمزاجية

هذا الموقف يعطينا فرصة للقيام بمراجعة بسيطة. أولاً، المرأة تميل إلى المبالغة، فخزانتها ممتلئة بالثياب وهي تدرك ذلك جيداً؛ ولكن لا علاقة للثياب بالأمر. فتلك هي طريقتها الخاصة في التعبير. ثانياً، المرأة تعيش تبعاً لانفعالاتها، ولا تختار ملابسها بحسب الظروف، الأمر الذي يصعب على الرجل فهمه، لأن الظروف تتتالى وتتشابه. إنما هي تختار الملابس تبعاً لمزاجها الذي يتغيّر كما سبق وأوضحنا. ففي صباح أحد الأيام التي تسبق الحيض مثلاً، تعجز المرأة عن اختيار من بين ١٧ تنوّرة تلك التي لا تشعرها برغبة العودة إلى الفراش والانفجار بالبكاء. وما من تنّورة في العالم تستطيع أن تقضي على رغبتها بالعودة إلى الفراش والاستمرار في التذمّر! عندما تبدأ المرأة بالتذمّر، فلا تعطيها سيدي نصائح! فالكلام يريحها. وهي تتخلّص من ضيقها حين تتحدث عنه. أصغ إليها أو ادّع الإصغاء! أعرف أن الأمر ليس سهلاً في كافة الظروف، لكنه يستحق عناء التمرين! قل لها مثلاً: «نعم، نعم...» أو «نعم، فهمت» أو «أفهم ذلك». ولكن لا، اطمئن؛ ليس مطلوباً منك أن تفهم، بل أن تقول إنك فهمت وأن تدّعي الفهم، ثم أن تصمت لخمس دقائق. فإذا استمر سيل الكلام ما عليك سوى العودة إلى المناورة: «نعم، نعم»، «نعم، فهمت»، «أفهم ذلك». واحرص على ألا تبدو غير مبال وألا تقوم بشيء آخر حين تتحدث هي وإلا أفسدت الجو المطلوب.

اعترف سيدي بأن هذه المهمة سهلة، وأن بوسع الجميع القيام بها، حتى أغبى الأغبياء من الرجال.

ولكن رغم بساطة هذه الطريقة العلاجية، لا تزال تشكل تحدياً

خطيراً يستحيل على الرجال عامة دفعه! لماذا؟!

لأن الرجل يقدّم، منذ الأزل وإلى الأبد، خدمة إلزامية بعد البيع! كيف؟ إقرأوا ما يلي...

الرجل والخدمة بعد البيع

إن دماغ الرجل مفطور على رؤية الأشياء وفهم طريقة سيرها والتأكد من أنها تعمل، لذلك من السهل جداً أن تتحرك فيه ميزة الخدمة بعد البيع. فالرجل يُدان بحسب ما استطاع أن يصلح من أشياء! قد ينهار المنزل تحت أكوام الغسيل الوسخ، ويفيض حوض المطبخ بالأواني المستعملة وتختفي السجّادة تحت طبقات من الغبار، إلا أن الرجل حين يدخل منزله لا يلاحظ إلا اللوحة غير المستقيمة على الحائط.

فيتوجّه إليها مباشرة ويجلسها بإصبعه لتعود موازية لطرف الحائط وعمودية مستقيمة تماماً.

لا عجب في ذلك!

إن هذه المقاربة المتخصصة التي يتميّز بها الرجل، تؤثر على أوجه أخرى في الحياة. فإذا كلمته زوجته في مشكلة لن يستمع إليها فحسب، بل سيتصرف كمصلّح يحمل إجازة في تصليح ما تعطل من أشياء وهو يقول في نفسه: «إذا طرحت عليّ مشكلة فلا بد أن أجد لها حلاً، وإلا فما نفع الثرثرة؟» ووسط طوفان الكلمات الذي ينهمر عليه بفوضى تضلّله بعض الشيء، سيبحث عن الوقت المناسب لإطلاق حلّه الحكيم! أما إذا اعترض الطرف الآخر على الحل أو استهتر به، فينغلق الرجل على نفسه أو يتنحّى جانباً أو يكفّ عن الإصغاء.

من الممتع جداً مراقبة ردّة فعله الجسدية على أي حال. فعندما نقول إنه ينغلق على نفسه يظهر ذلك بالعين المجردة، إذ يضمّ ساقيه ويكتّف ذراعيه. وعندما نقول إنه يتنحّى جانباً نراه غالباً ينهض بحجة تدوين شيء قبل أن ينساه أو إحضار كوب من الماء لأنه يشعر بالعطش. وعندما نقول إنه يكفّ عن الإصغاء فما من حاجة للتوضيح، الجميع يعرف عمّا نتكلّم.

المرأة وميلها إلى نجدة الأصدقاء

أمّا دماغ المرأة المفطور على مراقبة الناس وفهم تصرفاتهم والتأكد من أنهم بحالة جيدة، فمن السهل جداً أن يحرّك فيها ميلها إلى نجدة الأصدقاء، لأن المرأة أمينة أسرار بنات جنسها.

يردد لها زوجها بلهجة مقنعة: «كل شيء على ما يرام، أؤكد لك، لا ما من مشكلة، نعم أمضيت يوماً جيداً، إطلاقاً لم تحدث أي مشكلة في المكتب». وإذا شكّت بكلمة أثارت حفيظتها، لا تتراجع أبداً. وإذا أجبتها سيدي بطريقة فظّة قائلاً: «كل شيء على ما يرام حتى الآن، ولكن إن استمريت في استجوابي أشك بأن الوضع سيتغيّر!».

عندئذ، تجيبك ملؤها الثقة: «أرأيت؟ ألم أقل لك إن هناك مشكلة ما؟».

هذا ما يحصل إن لم يكن للمشكلة وجود أصلاً، فتصوروا كيف سيكون الوضع لو أن هناك مشكلة فعلاً؟!

فالرجل الذي يحترم نفسه كرجل بكل ما للكلمة من معنى يرفض الكلام عن مشاكله، أتذكرون؟ الرجل الحق لا يحتاج أبداً إلى المساعدة.

إنه راشد ويستطيع حلّ مشاكله بنفسه.

ونتساءل أحياناً كيف يتمكن الرجال والنساء من العيش معاً؟ لو لم يكن على الجنسين تأمين استمرار الجنس البشري اللعين، لكانا يتفاديان الاحتكاك طوال أيام حياتهما!

أما الحياة الزوجية فتصاب إصابة مباشرة وتغرق كحطام سفينة!!

في المواقف التي تتطلّب الإقدام
المرأة تملك القدرة
والرجل يمتلك الإرادة

مرة أخرى يتجلّى مدى تأثُّر اللاوعي الجماعي، بصورة الأيام التي عاشها الإنسان في فجر التاريخ في الكهوف. إذ تبرز في الذاكرة الجماعية ميزتان يتجلّى فيهما التمييز الجنسي بوضوح؛ هاتان الميزتان اللتان بقيتا لوقت طويل توصفان بالعبارة التالية: المرأة لا تنطلق لتحقيق ما تريده والرجل عدائي بطبعه، والعدائية هنا تعني الحركة والإقدام.

كانت المرأة في العصور السحيقة تلازم الكهف مما جعلها توصف دائماً بصفة من تنتظر أن يأتي ما تريده إليها، أن يهبط عليها من السماء. وهي صفة خلّدها القول المأثور: «يوماً ما، سيأتي أمير الأحلام ويحملني على حصانه الأبيض». ولا داعي للإنكار! أليس هذا ما نسمع معظم صديقاتنا يرددنه، عندما يتحدّثن عن العواطف والخيارات التي يجب أن يتخذنها في حياتهن؟ أما الرجل، فيمضي بحثاً عمّا يريده أو من يريدها، تماماً كالصقر المدرّب!

«الرجل يفكّر والمرأة تدبّر»

تلك هي العبارة التي اعتمدت عليها العلاقات العاطفية لوقت

طويل، وهي تبرّر ضرورة أن يقوم الرجل بالخطوة الأولى: «الرجل يفكّر والمرأة تدّبر»... أضحت هذه القاعدة بالية في أيامنا هذه. فالمرأة لم تعد تجلس في منزلها تحيك الصوف أو تصنع بساطاً، وتقلّب بتوتر بطاقات الدعوة إلى حفلات راقصة، وتنتظر بصبر فارغ أن يخطر على بال أحد الرجال الحاضرين دعوتها للرقص معه! لا بد أن قواعد اللياقة الاجتماعية هذه لم تعد رائجة أو كما يُقال «لم تعد على الموضة». تريدون دليلاً على هذا النعي؟ حسن... ألا ترون الفتيات العصريات يرقصن وحدهن، من دون طلب شريك؟! تقولون إننا لا نرى فتيات كثيرات يدعين الرجال إلى رقصة «سلو» رومنسية! السبب واضح! لم يعد «السلو» نفسه رائجاً. لكن لا بد من الاعتراف، بأنه حتى لو لم تعد هذه قاعدة إلزامية، وأعني ضرورة أن ترقص الفتاة مع شاب، فعقليات الناس إجمالاً لا تزال ثابتة على حالها. فبعد اللقاء الأول، نجد الشاب هو من يبادر إلى القول: «سأتصل بك». والفتاة تجيبه دائماً بقلق: «حسن، سأكون في المنزل هذا المساء، لن أتحرك».

ألا تلاحظون معي أن توزيع الأدوار هذا يعتمد بخاصة على الفطرة الجنسية لا على التمييز الجنسي؟ فما إن نبتعد عن العلاقات العاطفية الغرامية، حتى يفقد هذا المبدأ مصداقيته. ففي الحياة المهنية على سبيل المثال، نلاحظ غالباً أن المرأة أسرع إلى المبادرة. ومن أصل عشر نساء غير راضيات عن وضعهن، نرى سبعاً يحاولن الحصول على وظيفة جديدة بعد ستة أشهر، مقابل أربعة رجال من أصل خمسة يفعلون ذلك أيضاً.

المرأة تلتزم بمثال ما، أما الرجل فيتميّز

ترتاح المرأة إلى التشبّه بسائر أفراد الجماعة التي تنتمي إليها. وهي

تسعى لأن تنتمي قلباً وقالباً إلى جماعة، فتلتزم بقيمها وتلقى فيها القبول والتبني.

في هذا الإطار، نذكر ظاهرة الموضة النسائية، القائمة على الحاجة إلى الالتزام بصورة معيّنة. وما الموضة إلا مجموعة قواعد ونماذج ينبغي احترامها ليحظى الفرد بمكان له في الجماعة، وليطمئن إلى مكانته فيها. وضحايا الموضة في صفوف النساء أكثر منهم في عداد الرجال. فاختيار الزينة المناسبة، وانتقاء اللون اللائق والمصمم الرائج، هو بمثابة تأكيد تعطيه المرأة لبنات جنسها، إثباتاً لانتمائها إلى الجماعة والمعسكر نفسه. الهدف واحد: تقديم أدلّة على إرادة إقامة علاقات مع المحيط بطريقة سلمية.

أما الرجال فموقفهم من الملابس مختلف. إنهم لا يرتدون الملابس للتأنق بل يعتبرونها مجرد كسوة، حتى أن فكرة الموضة الرجالية لا تؤخذ على محمل الجدّ. والرجال لا يعيرون انتباهاً للتفاصيل، لذا لا يعطونها أهمية كبيرة. وعندما يرتدون ملابسهم لا يتقيدون بمثال، ولا يالون بهذا النظام الذي لا يفهمون فيه الكثير.

لكن ما إن يجد الرجال أنفسهم في حقل معروف ومعترف به، حتى يسعون إلى التميّز. فلكي يحيوا يحتاجون لا لأن يظهروا فحسب بل أن يبرزوا، وأن يتميزوا عن سائر الرجال. ولا مانع لديهم أن يحصلوا في النهاية على لقب رئيس أو قائد أو زعيم!

الفتيات يلعبن ضمن مجموعة، أما الصبيان فضمن جماعة

خطر لعالميّ أنتروبولوجيا أن يراقبا الأولاد وهم يلعبون. وقد اتّضح لهما أن الأمور ترتسم ابتداء من الطفولة، وتذكّرنا بأجداد أجدادنا. الصبيان أولاً يفضّلون اللعب في الخارج، أما البنات فيلعبن في الداخل.

عندما ينظِّم الصبيان لعبة ما، يسارعون إلى تعيين قائد. وإذا ترشّح لهذا المنصب أشخاص عدّة تختار الجماعة من تريد، وتلتزم بقرارها. في حين أن الفتيات يتعاملن كصديقات مخلصات، ويشكلن فرقاً مؤلفة من فتاتين أو ثلاث، وينضمّ إليهن أحياناً فتيات يتعاطفن مع قضيتهن.

ولا ننسى أخيراً حديث الصبيان والبنات، المختلف تمام الاختلاف. فالصبيان يتحدّثون بلغة الأمر، صيغة ولهجة. فيقولون مثلاً: «خذ هذه الكرة... كف عن الركض فوراً... ارم الكرة... مررها...»، أما الفتيات فيتكلّمن بلغة لطيفة مبطّنة ويفضّلن الكلام بلغة استدراجية: «ما رأيك لو نلعب بالكرة؟»، «ما رأيك لو مثّلت أنا دور الأميرة وأنت دور الساحرة؟»، «ما رأيك لو نلعب لعبة تثقيفية؟».

الفتيات يحببن اللَعِب والصبيان يعشقون الربح

في ألعاب الصبيان ثمة رابح وخاسر دائماً، حتى لو لعبوا داخل المنزل بالسيارات أو الليغو. فسيارة الفيراري تتخطى أحياناً سيارة الجاغوار ويعلو برج على الآخر.

أما الفتيات فلا قواعد في ألعابهن، فحتى حين يلعبن في الهواء الطلق أو في ملعب المدرسة، يلعبن كلّ بدورها وتترك الواحدة مجالاً لتشترك الأخرى، ولا يناقشن خسارة هذه أو تلك في المجموعة.

لعلنا نستطيع شرح موقف الصبيان من اللعب، عبر التذكير بحاجة الرجل لأن يتميّز ويعترف الآخرون به. الرجال يحتاجون إلى سلطة، إلى موقع، وهذا ما يجعلهم يميلون إلى تقبّل التسلسل الهرمي. أليسوا هم من ابتكر النظام الهرمي الأكثر نجاحاً؟ ونعني الجيش. فيما تحتاج النساء للتقدير أكثر منه للاعتراف بموقعهن في المجتمع.

المرأة يحركها الانفعال، والرجل يحركه حبّ السيطرة

طُلب من مجموعة من النساء والرجال، أن يختاروا، في إطار دراسة حديثة، كلمات من لائحة كاملة، تعبّر برأيهم عن القيم التي يعتمدونها في حياتهم أو التي يتمنّون أن يعتمدوها. وقد وقع اختيار الرجال على الكلمات التالية مرتّبة بحسب أهميتها بنظرهم: «الجرأة، السيطرة، السلطة، الإعجاب، الطرق العملية». أما النساء فاخترن الكلمات التالية: «الكرم، الانجذاب، العطاء، الدفء، العاطفة».

وفي الإطار ذاته، حاولت باحثة كندية أن تحدد بواسطة صور السكانر والتصوير بالرنين المغناطيسي، المنطقة الدماغية التي تحكم انفعالات الرجل والمرأة. وتبين لها على أثر أبحاثها أن هذه المنطقة تقع عند الرجل في منطقة معينة من دماغه الأيمن. لكن أيدهش أحداً أن يعلم أن هذه المنطقة منتشرة عند المرأة في نصفي الدماغ وأنها لا تتمركز في مكان واحد بل تتواجد في أجزاء الدماغ كافة؟

أثناء شجار لا يبدي الرجل من انفعالاته إلا نزراً يسيراً، وهذا أمر طبيعي لأن دماغه مجزّء مرتب ولا يستطيع أن ينفعل ويفكّر في الوقت عينه. لذلك نراه يعدد حججه بترتيب وانضباط شديد، حتى لو حاولت المرأة التي يعمل دماغها على الربط بين الأفكار، جرّه إلى موضوع آخر. أحياناً يبدو لنا أنه فقد الاهتمام بالنقاش. لكنه يفعل ذلك لأنه يحتاج فسحة يعيد فيها تنظيم أفكاره، فجوابه ليس جاهزاً للإعلان بعد. إنه أشبه بالكمبيوتر عندما نعطيه مهمة ينجزها فتظهر على شاشته صورة ساعة. ولا يبقى أمامنا سوى الانتظار، حتى ينطلق من جديد.

أما المرأة، فهي تبكي وتشتم وتتّهم وتدافع عن نفسها في آن معاً. ولا عجب في ذلك، فهي تفكر وتتألم في الوقت عينه. وكلما فكرت

بما يزعجها كلما كرهته. فهي تتوقع أن تكون الخاسرة، تلك التي تتراجع. وأحياناً تخلط الأمور ببعضها البعض، لماذا؟ لأنها بكل بساطة تفكر بشيء آخر، لم تتكلّم عنه في حينه، لأنها لم تشأ إثارة مشكلة؛ لكنها الآن تذكره، فالمشكلة واقعة لا محالة... وهي في هذا الوضع أشبه بالكمبيوتر عندما تظهر على شاشته صورة قنبلة.

لا يبقى أمامنا سوى أن نقطع التيار الكهربائي، ونبدأ كل شيء من جديد.

في المواقف التي تسبب التوتر العصبي المرأة تثرثر أما الرجل فينسحب

لننتقل من شجار إلى آخر، تماماً كما يحصل في واقع الحياة. يبدأ الخلاف كالعادة بسبب سوء تفاهم. وعبارة «سوء تفاهم» مختارة هنا بعناية، وستعرفون ما السبب.

يترجّلان من السيارة. تلمح على الرصيف عربة صغيرة فيها طفل. تنظر إليه بحنان كبير. تنظر إلى الطفل لا إلى زوجها. وفجأة تقطّب حاجبيها وتقسو نظرتها. والرجل في هذه الأثناء ينتظر أن تلحق به ليخرجا معاً من صندوق السيارة الأغراض الكثيرة التي اشترياها بعض الظهر. إنه يصفّر فَرِحاً، منتظراً أن تلحق به. ها هو يراها قادمة نحوه ولكن ليس بالصورة التي توقعها. تبدو حردة، وفجأة ترشقه بالتعليق المرير التالي: «أفكر بكل هذه العلب الكرتونية... ماذا تريدني أن أفعل بها؟» آخ! ها قد بدأت من جديد. ما يصيبها أشبه بمرض دوري يظهر عليها من حين إلى آخر. يظهر عليها هي، لكن هو من يتحمّل تبعاته.

الرجل يصمت عندما يشعر بالضيق

بالعودة إلى الوراء، إلى عشرين سنة ليس أكثر، حين كان طفلهما على وشك أن يولد، أجّل مراراً إفراغ علب الكرتون التي تحتوي أثاث غرفة الطفل؛ وتتذرّع كل مرّة بحجج واهية.

وحين فتح باب المنزل في إحدى الأمسيات، عائداً من العمل، وجدها، أي زوجته، ملتوية متقوقعة على الكنبة، تكاد تعجز عن التلفّظ بالكلمات: «حسن، لم أعد بحاجة إليك لتفرغ علب الأثاث؛ فعلت ذلك بنفسي. والنتيجة... أشعر الآن بالتقلّصات».

يراها تمسك بطنها، ولم يحن وقت الإحساس بالتقلصات بعد. ما زال أمامها خمسة أو ستة أسابيع تقريباً. إنه يشعر باليأس. لا يعلم ماذا يقول، لذلك يصمت. إلا أن التقلصات تتكرر... فتصرخ به: «اتصل بالمستشفى» ووجهها يتغضّن ألماً. فيمتثل لأمرها، ويهرعان معاً إلى المستشفى.

تمرّ بضعة أيام ويولد الطفل... طفل جميل وبصحة جيدة لكن وزنه قليل، وهذا طبيعي، لأنه ولد في نهاية الشهر الثامن. مرّت الولادة على خير وأقام الوالد والوالدة حفلة للاحتفاء بالقادم الجديد. ونسي الاثنان قصة علب الأثاث بل حاولا أن ينسياها. حاول هو بالتحديد.

لكن في الحقيقة، تصرّ هي على تذكيره بها بانتظام. إلا أنها لم تتمادَ كثيراً، ربما لأنها تشعر في قرارة نفسها ببعض الذنب، لكنها لن تعترف له بذلك؛ فلم يكن يفترض بها أن تعرّض الطفل لأي خطر بهدف تلقين درس لوالده؛ وهذا الوالد لم يجد إلا الصمت ملاذاً في تأنيب زوجته وتأنيب ضميره الحاد. وهو يصمت في كل مرة تشير فيها إلى هذا الموضوع. حتى بعد مرور عشرين سنة، ما الذي يستطيع أن يفعله غير ذلك؟

ويبدأ الحديث من جديد، كما لو لم يحصل أي شيء... يتكلمان في موضوع آخر. وتترابط أطراف الحديث بالطريقة نفسها، وينتهي النقاش بالنتيجة نفسها: شجار. لكن سبب الشجار ليس موضوع الحديث الجاري، إنه أمر آخر وسبب آخر مرتبط بحديث آخر.

حين تشعر المرأة بالضيق تحتاج أن تتكلم عن سبب ضيقها

أسوأ ما في المواقف المزعجة، أنها لا تحتاج سوى القليل من الجهد ليتبدد التوتر المهيمن عليها. لكنه، أي الرجل، لا يعرف كيف يبذل جهداً لهذه الغاية، والأمر سيّان بالنسبة لها.

تسألون كيف؟

يكفي أن يجعلها تعلم أنه يصغي إلى ما تقوله، ويفهمه... يكفي أن يبدي ردّة فعل، أن يتصرّف؛ أن يقول لمرة واحدة: «أعرف أني أخطأت. إنها غلطتي؛ لكن لحسن الحظ انتهت الأمور على خير. ولد الولد بصحة جيدة، وكل شيء على ما يرام الآن». ويكفي أن تجيبه هي أيضاً: «أعرف أنني بالغت قليلاً». هكذا تنتهي المشكلة، لأن كل ما يجب أن يُقال قد قيل.

هل تُمحى الذكرى المؤلمة بهذا الشكل نهائياً؟

نعم، نهائياً.

ولماذا؟

لأن ذاكرة المرأة عاطفية، وهي تذكر كل ما يمرّ، ليس من أحداث فحسب، بل ما يرافق هذه الأخيرة من انفعالات.

وعندما تذكر المرأة حدثاً مؤلماً، تتألم مرة أخرى. والسبيل الوحيد للتخلص من هذه الذكرى هو أن تتكلم عن المسألة، بعمق وتعمق. فما لم تتكلم عنها، تبقى عالقة في ذاكرتها «تضغط على قلبها» كما يقال. ما لم تتكلم عن أدنى تفاصيل القضية، لن تستطيع التخلص من ذكراها. ينبغي إذاً إفراغ القيح من الجرح لكي يندمل.

المرأة تحلّ مشاكلها حين تتكلم عنها

تتسلح المرأة بآلية موثوق بها لحلّ مشاكلها: الكلام. الحديث عن المشكلة يساعدها على وضع عنوان لها وتعريفها والتخلّص منها نهائياً. تماماً كما نفعل عندما نريد التخلّص من معلومات لا حاجة لنا بها في حاسوبنا.

المرأة تفرغ الضغط النفسي الذي تعاني منه بواسطة الكلام. فعندما تقع ضحية موقف صعب، تتحرك لديها ملكة الكلام أكثر من أي ملكة أخرى. فما أغرب هذه الحقيقة! تروح تتكلّم وتتكلّم كوعاء يفيض بما فيه. ومتى بدأت، عبثاً تحاولون لفت انتباهها إلى أنها تخلط الأمور وتخطىء في تحديد الأولويات.

الكلام بالنسبة لها جسر تمدّه للوصول إلى الآخر. وهو حقاً يجدي نفعاً في المواقف العصيبة. عندما تسوء أحوال المرأة تحتاج الآخرين والصِلات التي تربطها بهم، وهي تمسك بطرف خيط الحلّ بفضل تلك العلاقة التي تربطها بالآخر.

لا تعتبر المرأة الكلام عن مشاكلها تصرفاً غير لائق، بل مرحلة تجتازها لتدخل مع الآخر في علاقة حميمة. حتى أنها تقيس مدى متانة صداقاتها بحسب طبيعة المشاكل التي تخبرها لهذا الشخص أو ذاك وعمق الكلام الذي يدور بينهما.

ولا ننسَ أن المرأة تستطيع أن تفعل أشياء عدة في وقت واحد: عندما تتكلم لا شيء يمنعها من التفكير. وهي لا تحرم نفسها من الكلام والتفكير في آن معاً، لا لشيء، إلا لتنظيم أفكارها في الوقت العصيب. إذا كانت برفقتها امرأة، تعرف هذه الأخيرة ما ينبغي أن تفعله، وهو أن تصغي إليها بانتباه وتعاطف.

أما إذا كان جليسها رجلاً فهو لا يتصرف بالطريقة عينها أبداً.

الرجل يحلّ مشاكله بصمت

تعمل قدرة الرجل على رؤية الأشياء بأبعادها كافة، بشكل مفرط عندما يخضع لضغط نفسي ما. وهو يستخدم هذه القدرة ويستنزفها بحثاً عن حلول لمشاكله. فلا حاجة به إذاً للكلام، لا ليعرض المشكلة ولا ليجد لها حلاً.

وهو يستطيع التفكير من دون كلام. بل على العكس تماماً، فالمعروف أن الرجل لا يستطيع استخدام أكثر من وظيفة دماغية واحدة في آن واحد، لذا نراه يتخلّى في الأوقات العصيبة عمّا لا يحتاجه ميدانياً لبلوغ الهدف المنشود.

إنه يعتمد على التركيز وتوجيه الأفكار نحو المشكلة، وينغلق على نفسه ليجد في قرارتها الحلول التي تساعده على التخلّص من الضغط الذي يتعرض له. ولا داعي طبعاً لأن نكرر على مسامعكم حكاية الصيّاد التائه في وسط غابة نائية تعج بالمخاطر، ويواجه حيواناً ضخماً يستعد للانقضاض عليه؛ لكن هذه القصة لن تنفع في هذا السياق فحسب. . . بل تشرح قضيتنا هذه بشكل مناسب.

ما دمنا قد أتينا على ذكرها، دعونا نتصوّر في ظرف كهذا يعود تاريخه إلى الماضي السحيق، أن امرأة تدخل في المشهد وتعرض المساعدة على رجلها ساكن الكهف. لا شك أنه سيردّها على أعقابها، والأرجح أن يستخدم لهذه الغاية كلاماً جارحاً. وفي أيامنا هذه، لم يتغير شيء بعد. متى راح الرجل يفكر بأفضل سبيل لحل مشكلته، لا يطلب إلا أن يُترك بسلام. تخيلوه يضع على جبينه لافتة كُتب عليها «عدم الإزعاج»، ولتتنحَّ الزوجة والأولاد والزملاء من طريقه بحذر شديد. وهو يتوقع أن يتقدم منه أحدهم ليمدّ له يد

المساعدة إن هو ظلّ مع الناس ووسطهم، ما يدفعه إلى الهرب، إلى عزل نفسه. يحبس نفسه في نفسه، ويوصد عليه باب غرفته.

لمَ لا يحتاج إلى العون الذي تقدّمه له بسخاء زوجته أو ولده أو زميله؟ تذكروا أن الرجل لا يحتاج أبداً مساعدة أحد، ومشاكله يحلّها بنفسه، والكلام عنها يعني أنه يعترف بمعاناته منها والقبول بأن يكشف ضعفه أمام الناس.

في بحثه عن حلول لمشاكله يخلقّ الرجل مشاكل لزوجته

إذا ساءت حال الرجل إلى حد جعله ينطوي على ذاته، ينشغل بال المرأة وينتابها الوسواس. تحاول أن تقنع نفسها بأن الأمور ستعود إلى نصابها عاجلاً أم آجلاً، إلا أن القلق ينهشها. لأنها تقارنه بنفسها وهي تحتاج للكلام في مواقف كهذه: فلماذا يلتزم الصمت؟

الكلام عن مشاكلها يريحها من حملها: فلماذا يرفض حتى ذكر هذه المشاكل؟

ولو علمت المرأة في هذه اللحظة أن الرجل الذي يبدو وكأنه قطع صلته بالعالم، فعل ذلك فعلاً، لما قلقت بهذا الشكل. فها هي إذاً الفرصة السانحة للتعبير له عن ذلك.

عندما تسوء حال الرجل يتحول إلى مخلوق يشبه (هالك العجيب Incredible Hulk المسخ العجيب)، إذ يميل لونه إلى الاخضرار، ويصبح مزاجه نكداً وشعره مشعّثاً فلا نكاد نعرفه. واعلموا أنه هو أيضاً لا يكاد يرى أحداً وهو في هذه الحالة. إذ يصبح مبرمجاً على مهمة حلّ المشكلة، ويفصل التيار عن الوظائف الحياتية الأخرى كلها. ومن هذه الوظائف القدرة على الانفعال طبعاً، التي تعتبر أهم ما ينفصل عنه في وضع كهذا. وهو لا يتحمل أي تشويش يحدثه

انفعال ما يعكّر عليه صفو تفكيره. ويقطع أيضاً الطريق على محاولة الآخرين التقرب منه. فهو يقول في نفسه إنك لو كنت تحبينه حقاً لفهمته. إلا أن الزوجة تحاول التقرب منه وهو في هذه الحالة بدافع من الحب الذي تكنّه له، ولأنها للدافع نفسه تعجز عن فهم طلبه العزلة؛ ولكن ألا يجدر بها أن تقبل بنزاهة تصوّر نفسها في مكانه؟

وتضاف الحواس الخمس إلى لائحة القطيعة هذه. فهو لم يعد يرغب بالكلام ولا بالإصغاء ولا يكاد يرى ما يحصل من حوله فلما لا ينفصل نهائياً عن محيطه ليوفّر على نفسه المجهود الذي سيضطر لبذله لو بقي وسط الناس؟ إنه ينفصل ويقطع التيار الموصل. لا بد أنكِ فهمت الآن أن التشبيه لم يكن مجازياً. فهل اطمأنيتِ؟!

حين تبحث المرأة عن حل لمشاكلها تخلق المشاكل لزوجها

لنرَ الآن ما يحدث عندما نعكس الموقف. المرأة تواجه مشكلة فتروح تتكلم عنها للتخلص منها. تسمعونها تقول: «لم أعد أتحمل. . . الأمور تزداد سوءاً». وإذا كان جليسها رجلاً، يشعر المسكين بالضياع، والارتباك. يا للهول! لديها مشكلة! هل هو السبب؟ (غالباً ما يكون هو السبب فعلاً، لكننا الآن نتكلم عن ظرف آخر).

يشكك بنفسه ويسأل نفسه: هل أنا فاشل؟ لعلني لا أوفّر لها كل ما تحتاجه؟ ويحاول أن يجد لها مخرجاً: «لا تبالغي، الأمر لا يستحق كل هذا الشقاء. تعالي نستعرض الحلول. هيا لنشرح ما حصل من البداية». تعبس متمنّعة وتتابع. . . تتكلّم وتخبر وتبكي بكاء مرّاً. تدور حول الموضوع وتدور وتصل في النهاية إلى بيت القصيد فيعلم المسكين المعذّب أنه ليس سبب بؤسها، إنما هي مشكلة في

العمل: «عليّ أن أعدّ ثلاثة تقارير للأسبوع المقبل. وأنا أعلم أنني لن أستطيع إنهاءها في الوقت المحدد».

هل المهلة هي المشكلة؟! أنا متخصص في حلّ مثل هذا النوع من المشاكل. لا تنسي أنني أحمل شهادة في هذا المجال. نعم، سيعطيها نصيحة بسيطة وتصبح المشكلة في خبر كان: «ما عليك إلا أن تعملي في عطلة نهاية الأسبوع. سأهتمّ أنا بالأولاد. لا بأس بهذا أليس كذلك؟». هذه النصيحة المزدوجة التي تشمل الاهتمام بالأولاد، نافعة ومنطقية. لكنها تجيب: «ما رأيك لو أعمل ليلاً أيضاً؟!».

يصاب بصدمة. أو لم يعطها الحل المناسب؟ من يعترف له إذاً بشهادة حلّ المشاكل؟ وماذا يفعل المسكين في هذه الحالة؟ يقول في نفسه إنه ما دام عاجزاً عن المساعدة، يستحسن أن يتركها وشأنها. ويتنحّى حفاظاً على ماء الوجه، ويهرب بشرف. ها قد بلغ باب المدخل، أو بالأحرى باب الخروج.

وفي هذه اللحظة تناديه: «هل أنت ذاهب؟» وهذا السؤال يعني بصراحة: انتظر، لا تذهب، أنت لا تصغي وحلولك غير نافعة، لكنني أحتاجك، أحتاج وجودك معي، أحتاج أن تسمعني، أو أن تدّعي الإصغاء إلى همومي، وإن لم تفعل فمن المؤكد أنني سأصاب بانهيار عصبي.

لكن الرياح جرت ذلك اليوم بغير ما تشتهي السفن، فهو لم يفهم أنها تعني ما تقوله، وصفق الباب خلفه وخرج.

إنه مقتنع تمام الاقتناع بأن خروجه هو الحل الأمثل: سيترك لها الوقت الضروري لتفكر بمشكلتها، وتقدّر مدى صعوبتها. وربما توصلت إلى حلّ لها. أو ليس هذا ما يفيده شخصياً عندما يمرّ بأزمة كهذه؟

حين يصمت الرجل، تنشط قدرته على التحليل المنطقي

حين تسوء حال الرجل، يفيده جداً أن يشارك في مباراة على أرض ملعب رياضي أو في مدرّج. ولكن لا يخدعنّكم تواجده في الهواء الطلق لأن الرجل يتقوقع على نفسه عندما يمرّ بأزمة ما، ويزرع الحواجز من حوله. وإذا راح يلعب كرة القدم أو الغولف، فلأنه بواسطة الرياضة يلتقط أنفاسه، لشدة ما تعثّر أثناء تفكيره بالمشكلة التي يواجهها.

لقد قرر أن يدع كل شيء جانباً، في حالة تأهب. والرجل كعادته، لا يستطيع استخدام أكثر من وظيفة دماغية واحدة في آن واحد؛ فإذا أراد عدم التفكير بمشكلته يكفي أن يركز اهتمامه على كرة أو طابة. هكذا يشغل قدرته على رؤية الأمور في كافة أبعادها بشيء آخر، فيستدرجها بعيداً عن مشكلته الحقيقية.

إنها عطلة يرتاح فيها من وجع الرأس.

وإذا ساءت أحواله أكثر، وخطر لشريكة حياته أن تقترح عليه زيارة «أحدهم»، وهو التعبير الذي تستخدمه النساء عندما يكلّمن أزواجهن عن الطبيب النفساني، لا داعي للعجب إن جنّ جنونه. فالرجل يشعر بأنه عديم القيمة إن لم يجد بنفسه الحلول لمشاكله، ويعتبر ذلك مؤشر ضعف. وليس من باب الصدفة أن نجد بين ١٠ أشخاص يقصدون الطبيب النفساني رجلاً واحداً وتسع نساء. إذ تجد المرأة سعادة كبرى في التحدث إلى شخص يصغي إلى كلامها، حتى لو كانت تدفع له المال لقاء إصغائه.

حين تصمت المرأة، تبيّت الحقد

إن الكلام عن المشكلة أمام شخص يصغي بانتباه، مسألة حيوية

بالنسبة للمرأة. فإذا لم تروّح عن نفسها مع الإنسان الذي يشاركها حياتها، يتفاقم غضبها الذي تصبّه في النهاية عليه هو. لا لأنه منبع المشاكل التي تواجهها بل لأنه لم يكن البحر الذي تغرق فيه هذه المشاكل.

أيها الرجل، إذا كفّت زوجتك عن الإفصاح لك بكل ما يزعجها، لا تفرح وتهلّل قائلاً: «ياه! ها قد فهمت أخيراً أن لا فائدة من النواح والتأوّه. إنها الآن تتماسك، هذا أمر جيد! لقد أصبحت قوية ومستقلّة، لا بد أنها نضجت وكبرت. زوجتي كنز لا يقدّر بثمن. أستطيع الآن أن أرتاح».

عليك أن تقلق لأن ثمة ما يقلق. إن لم تعد زوجتك تطلعك على كل ما يعتمل في نفسها، فلأنها لم تعد تثق بك ولم تعد ترى في شخصك ملجأ لها وملاذاً تفرغ فيه الضغط الذي تتعرض له. ولعل التلوث قد بلغ في علاقتكما حدّاً يستوجب التدخل السريع لمنظمة حماية البيئة العالمية «غرين بيس».

لكن لنقف وقفة تفكير، ولنسأل أنفسنا بعدئذٍ كيف نستطيع أن نلوم الرجال؟ ففي الماضي، أي طوال ملايين السنين وحتى منتصف القرن الماضي، ظلّ الرجل يحضر لزوجته شيئاً يؤكل تعبيراً منه عن اهتمامه بها. قد تبدو لكم الصورة هزلية مضحكة إلا أنها ليست خاطئة من حيث المبدأ. وفي ذلك الحين كانت المرأة التي تريد «الاتصال بأحدهم»، أو الكلام مع أحد، أو مواجهة مشكلة تعترضها، تتجه نحو أمها أو نساء العائلة أو صديقاتها. وبما أنهن يقمن معاً في الكهف أو كل في جناحها من القصر، أو في جزء من المزرعة، لطالما وجدت المرأة امرأة أخرى تصغي لها. أما اليوم، فقد اختلفت طريقة تنظيم المجتمع. فمفهوم القبيلة أصبح من التاريخ القديم، والعائلة التي يقيم أفرادها مع بعضهم البعض، لم تعد تُشاهد إلا على شاشات

التلفزيون. وأصبح مشهد الزوجين المقيمين معاً وحيدين بعيداً عن عائلتيهما أكثر أنواع الخلايا الاجتماعية انتشاراً. ما هي النتيجة: الكل يطلب من الرجل أن يتواصل مع زوجته، في حين أنه لم يُعَدّ في الأصل لهذا أبداً.

لعلّه يجدر بنا أن نمنحه بعض الوقت ليتعلّم. فالمرأة قد احتاجت أيضاً آلاف السنين لتتفهم انغلاق زوجها على نفسه داخل شقتهما عندما تسوء أحواله!.

تحتاج المرأة في علاقتها مع الرجل للشعور بأنها محبوبة أما هو فيحتاج أن يشعر بأنه مفيد

حتى الآن، شملت الاختلافات الأساسية التي شرحناها، تلك القائمة بين الرجل والمرأة عامة، على مسرح علاقاتهما اليومية العادية، وتندرج أكثر ما تندرج في إطار جو العمل والأخبار الفكاهية التي تروى في السهرات، وبين الأصدقاء المقربين.

ها نحن نصل الآن إلى المشكلة الأكثر حساسية، إلى الجزء الأكثر رهافة في العلاقة: العلاقة العاطفية. فسواء أكانا زوجين ليوم واحد أو شهر أو عمر بطوله، نتناول الآن الحياة المشتركة بين المرأة والرجل.

الحياة معاً

ما يميز الحياة المشتركة بين الرجل والمرأة هو أنها شبيهة بالحالات الأخرى كلها، الصداقة والعلاقات المهنية، والعلاقات العائلية؛ وهذا لا يعد كثيراً بالخير.

المشاكل هي هي مع بعض الإضافات الحساسة جداً التي تعقد الأمور أكثر فأكثر وتجعلها مؤلمة أكثر منها في الحالات الأخرى.

المرأة تقيم مع زوجها، أي شريكها في الشقة. ولا بد أن تزعجها الحياة المشتركة إذا كانت من النوع الذي يتوقع من الزوج أن ينزل

أكياس النفايات من دون أن تطلب منه ذلك، وأن يصغي إليها حين تعود من عملها محبطة، وأن يخفض صوت التلفزيون حين تنام، حتى لو كانت الساعة الحادية عشرة... صباحاً؛ لكن لن يصل بها الأمر إلى حد البحث عن شقة معروضة للإيجار بغية تغيير محل إقامتها!.

أما الرجل، فإذا كان من النوع الذي يصفرّ لونه حين ينتظر في الصباح بفروغ صبر أن تخرج السيدة من الحمام وتخلي له الساحة قليلاً، وينتظر في المساء أن تترك له الوقت لمشاهدة أخبار الساعة الثامنة؛ إذا كان هذا الرجل قد ملّ رؤية معجون الأسنان من دون سدادة، وإذا كان يُجن جنونه حين يرى زوجته تعدّ على أصابعها عند حساب الفواتير، فلا بدّ أن يغضب ويتوتر، لكنه يعتاد على هذا الوضع ويتقبّله مع الوقت.

هل انتهت الصداقة في علاقتهما، هل هما زوجان عاشقان فحسب؟ إذاً فأبواب الجحيم مفتوحة أمامهما على مصراعيها!

في الفصل التالي نتناول العلاقات العاطفية والجنسية بين المرأة والرجل. وفي هذين الإطارين يمكن أن تتحول الاختلافات إلى خلافات عميقة حقيقية، قد تؤدي إلى أضرار جسيمة في العلاقة بين الزوجين.

يبطل العجب في هذه الحالة إن انطلقنا هنا من مبدأ واضح، وهو أنه في العلاقتين العاطفية والجنسية بين الزوجين، لا يكفي أن يحاول الطرفان التوصل إلى تفاهم بينهما، بل عليهما أيضاً أن يظلاّ متحابين. لن يكفي أن يحلاّ معاً مشاكلهما بل ينبغي أن يثير كلّ منهما مشاعر الآخر. ويستحسن أن تكون مشاعر طيبة!.

ياه! ما أجمله!

تخرّجت من الجامعة للتوّ وقبلت بوظيفة صغيرة. عليها أن تعدّ

أسئلة الإحصائيات، والشركة لا تدفع لها سوى القليل لقاء كل لائحة أسئلة تعدّها. لكن لا بأس؛ عليها أن تصعد السلم درجة درجة، وربما ربحت في نهاية المطاف تلك الرحلة إلى «تايلندا»، المخصّصة لأفضل عامل في حقل الإحصاءات.

إن مهمتها هي طرح الأسئلة على ربّات بيوت في ضواحي العاصمة. واليوم لم يبقَ باب واحد لم يقفل في وجهها. الساعة الآن الخامسة بعد الظهر، وهي لم تملأ حتى الآن أيّ ورقة. تايلندا تبدو بعيدة المنال! لقد نالت كفايتها اليوم، وستتوقف. تنتظر الباص لتعود إلى منزلها، لكنه لا يصل. تقوم بجولة صغيرة. . . في الجوار. لم تعد تعرف أين هي، إنها تائهة، تكاد الدموع تنهمر من عينيها. في تلك الساحة الواسعة، الخالية من المارة، مقصورة هاتف. تتصل به. . . ويجيب. تبكي وتحكي له كل شيء: النهار الفاشل، والتعب والإحساس بأنها في مجاهل الأمازون، والتخاذل الذي ينتابها. يطلب منها أن تعطيه عنوان المكان الذي تتصل منه، فتجده على لافتة مضاءة وتقرأه. ولا تكاد تمسح أنفها مرتين أو ثلاث مرّات وتتساءل عما إذا أعطته العنوان الصحيح، حتى يصل.

يقترب منها بسيارته المفككة القديمة، لكنها تستطيع أن تقسم أنها ترى حصاناً أبيض يحملها على صهوته. أحست فجأة بأنه انتشلها من البؤرة التي كانت فيها. وشعرت بأنها محبوبة.

أما هو، فعندما رأى نفسه في عينيها، عرف أنه جميل الطلعة وقوي! يشبه بطلاً أسطورياً. هكذا ينتهي الفصل الأول.

ياه! كم هي محبوبة

مرت خمس سنوات. . . إنها تخضع اليوم لدورة تدريبية في أحد الفنادق على حساب الشركة التي تعمل فيها.

لقد تأخر الوقت. لا أحد من زملائها يستطيع أن يعيدها إلى المنزل، فتتصل به. لقد عاد من عمله. تطلب منه أن يأتي لاصطحابها فيوافق حالاً. تطلعه على عنوان الفندق. وتستعين على ذلك ببطاقة الفندق التي رسمت عليها الطريق المؤدية إليه. إلا أنها ارتبكت قليلاً طبعاً، فهي امرأة وتحديد الاتجاهات ليس إحدى نقاط قوتها. وتمرّ ساعة وهو لم يصل بعد. وعندما تراه آتياً، تشعر بالارتياح لكنها تحرد قليلاً. ماذا فعل طوال هذا الوقت؟ جفّ حلقه وهو يشرح لها أنها أخطأت في العنوان وأنها لم تصف الطريق بشكل صحيح، لكنها تظلّ عاقدة الحاجبين.

الجو ثقيل في السيارة طوال طريق العودة. لكن سوء التفاهم تبدّد مع الوقت. وها هما ينتظران هبوط المصعد يداً بيد. لطف منه طبعاً أن يأتي لأخذها رغم تعب النهار. لا مجال للشك... إنه يهتم لأمرها و... يحبها! تقبّله فيطير قلبه إلى السماء السابعة. وفي مرآة المصعد المتوجّه إلى الطابق الثالث، يرى صورة رجل قوي بهيّ الطلعة. بطل؟! نعم، لكن لنقل من المرتبة الثانية. وهكذا ينتهي الفصل الثاني.

ياه، كم هو سيء الأخلاق!

مرت عشر سنوات. ها هي تخرج من اجتماع في مركز إدارة إحدى الشركات الكبرى، خارج العاصمة.

لقد تأخر الوقت. إنها تفكّر بالأولاد الذين ينتظرونها بفروغ صبر. بالفتاة التي ترعاهم في غيابها، التي ستؤنبها على تأخيرها ما إن تدخل من باب المنزل. وتمرّ في بالها والدتها التي لم تتصل بها منذ ثلاثة أيام، وهي الآن قلقة عليها طبعاً. تحاول فتح أبواب السيارة بجهاز التحكم عن بعد. لكن لا حياة لمن تنادي. تلوّح بيدها مودّعة زبائنها

الذين ينطلقون في سياراتهم الصغيرة الدافئة. تضغط على الزر من جديد. لا شيء... تضغط بعصبية مرة أخرى.. تجرب فتح الباب بالمفتاح اليدوي، لكن القفل يقاوم. فتروح تلكم وتركل سيارتها... بدون فائدة. إنها تؤلم نفسها سدى. وها هي تقف وحيدة في وسط مرآب شاسع مظلم. تنظر من حولها، فلا ترى إلا سيارة رجال الأمن والمراقبة. البرد قارس... وقد نالت اليوم كفايتها من التعب والتوتر. لن تبكي طبعاً فهي الآن فتاة كبيرة. والمرأة... المرأة الفولاذية الفعلية، لم يعد يسمح لها اليوم بالبكاء. إلا أن عينيها تغرورقان بالدموع المحبوسة. تمرّ ببالها كل المصاعب التي تواجهها، وتخلّف أفكارها في حلقها طعماً مرّاً. لقد أطلعته على هذا الاجتماع... وأخبرته أنها ستتأخر كثيراً.

فهل عرض عليها ولو لمرة واحدة أن يعود إلى المنزل باكراً؟ طبعاً لا! فهو لا يأبه، لأنه اعتاد أن تهتم هي دائماً بكل شيء. أما هي فمن يهتم بما يفرحها أو يخفف عنها حِمْلها؟! تطلب رقمه من هاتفها النقّال ومن دون أن تكلّف نفسها عناء إلقاء التحية، تسأله: أين أنت؟ يجيبها: «في المكتب». تسأله بمرارة: «وهل تظنني أنا في مدينة الملاهي؟». يعلّق على كلامها بجواب يغضبها. كيف تشرح له أنها تريده أن يأتي لأخذها؟ تقول: «لا أستطيع فتح باب السيارة». يجيبها: «هل حاولت استعمال المفتاح؟» إنه يسديها نصيحة، ونصيحته تحطّم أعصابها، ترى من يخالها؟ بلهاء حمقاء؟! تسكت ويسكت هو أيضاً.

ياه، ما أتعسها!

«حسن، سأطلب سيارة أجرة».

ويقول في نفسه: «ستطلب سيارة أجرة، وأنا؟ ألم أعد مؤهلاً

لإحضارها؟ يبدو أنها لم تعد تثق بي، لم تعد معجبة بي، لم تعد تحبني كما أنا. وإذا استطاعت الاختيار لاختارت سيارة الأجرة».

ويشعر بأنه غير نافع لشيء. إنه مجرد صفر على اليسار. ومن الناحية الأخرى تحلّل هي في سرّها: سأطلب سيارة أجرة، وهو لم يحاول منعي! هل نسي أنه يملك سيارة؟ ألم يعد يحبني بالقدر الذي يدفعه إلى اجتياز مسافة ما في الساعة السابعة مساء؟ ألم يعد يهتم بي كالسابق؟ ألا يشعر بمدى يأسي؟ ألا يحسّ بأنني أحتاج ليد المساعدة؟ بل لليدين معاً؟

تقفل الخط من دون جواب. لم تقفل الخط فور سماع ردّه، بل انتظرت قليلاً ليقول شيئاً قبل أن تقفله من دون جواب. إلا أنها ستندم على ذلك عندما يحين أوان تبرير تصرّفها هذا. أرادت أن تنهي هذا الحديث العقيم بأسرع ما يمكن، لتسرع إلى طلب سيارة الأجرة للخروج من هذا الكابوس.

هكذا ينتهي الفصل الثالث. وربما تنتهي معه علاقة هذين الزوجين.

تحتاج النساء للشعور بأنهن محبوبات، لكي يعشن علاقة غرامية هانئة. فيما يحتاج الرجال إلى الإحساس بأنهم مفيدون. لا تبدو المعادلة صعبة ومعقدة، لكن مَن مِنَ الجنسين يستطيع أن يلبّي متطلبات الجنس الآخر كلها؟!

المرأة بحاجة لأن يهتم بها الآخر

تحتاج المرأة أن يهتم الرجل بها، لأنها تعيش حياتها ارتباطاً بعواطفها. وتنبهوا جيداً لكلمة «اهتمام»، فهي تعني أموراً كثيرة. فالرجل يترجم هذه الكلمة بالهدايا. وهذه هي الترجمة الأسهل بالنسبة له، إلا أن هذه الترجمة، التي لا غبار عليها من حيث المبدأ، يمكن

أن تفسّر بطريقة سلبية. يقول الرجل إن المرأة تريد أن تدلّل. لكن هذه الفكرة خطرة ومزاجية، تشبه إلى حد بعيد صورة أكل الدهر عليها وشرب، صورة المرأة الخليلة التي تعتاش على حساب من يحبها، فيغمرها بالهدايا، ويغدق عليها العطور الغالية، ويهديها ملابس النوم الشفافة والفراء الباهظة الثمن. والرجال يعتمدون على هذه الصورة ليستنتجوا أن المرأة التي تسعى إلى المساواة مع الرجل، لن تستطيع أن ترضى بهذه الصورة أبداً.

وهل تتخيلون مشهد امرأة متعصبة لجنسها مطالبة بالمساواة تتلقى مبتسمة إحدى تلك الهدايا المهينة المذلة؟! لم يعد ينقص الآن إلا أن يجد لها شقة صغيرة جميلة ويشتري لها كلباً ظريفاً يؤنسها حتى عودته في المساء.

لنبدأ إذاً بدقّ عنق تلك التفسيرات الخاطئة لكلمة «اهتمام».

نعم، قد تعبّر الهدية عن اهتمام. لكن لا داعي لأن تؤدي هذه الهدية إلى إفلاس شاريها. لم لا يحضر لها مثلاً، ذلك الحجر الغريب الشكل الذي لفت نظرها على الطريق لكنها لم تلتقطه؟ أو تلك الرزنامة الظريفة التي أعجبتها في الفندق الذي أمضيا فيه عطلة نهاية الأسبوع لكنها لم تجرؤ على سرقتها؟ من الممكن أن يفاوض صاحبة النزل للحصول عليها.

نعم، الهدية قد تعني الاهتمام، ولكن ليس بالضرورة. يكفي أن تمرّ لاصطحابها من العمل يوم تعلم أن سيارتها عند الميكانيكي... أن تتصل بها قبل اجتماع يقلقها، لتقول لها إنك تفكر بها... أن تشتري لها الفيتامين C لأنك لاحظت أن العلبة قد فرغت.

تعلم المرأة أنه من الصعب أن يفهمها الآخرين

كل ما عدّدناه جميل وممتاز. لكن أين المشكلة؟ المشكلة هي أن

يعرف الرجل أن هذا الشيء أو ذاك يسعد رفيقته. وهذا ما يعيدنا إلى كلمة «اهتمام» التي تعني أيضاً «انتباه». لأن الأمر يتطلب تنبّهاً. فالمرأة تحتاج تأكيداً على أن من يحبها لا يفارقها نظره لحظة واحدة، ويمنحها هذا التأكيد شعوراً بالطمأنينة! والله أعلم كم تحتاج المرأة للطمأنينة. فهي تعوزها أدلة على الحب أكثر من الحب بحد ذاته. وهي في ذلك تتخطّى الرجل. فمن هذه الأدلة تستمد صفاءها وثقتها بالخيار الذي أقدمت عليه، وتتثبّت من أنها لم تنخدع يوم اختارت شريكها. ولا شيء يحبط المرأة أكثر من إحساسها بأنها مهملة، عدا طبعاً الإحساس بأن شريكها لا يفهمها!

تدرك المرأة غالباً أنه ليس من السهل على الرجل أن يفهمها. وهي تعي تعقيد أفكارها وأحاسيسها. وهذا الوعي لا يتطلب ذكاء ماكراً، أفلا ترغب أحياناً بالشيء وعكسه في آن معاً؟ وتبغي أحياناً أخرى أكثر ما يزعجها في الدنيا؟ وتتفوّه أحياناً بكلام لا ينسجم وأفكارها الفعلية، أو لا يعبّر بصدق عمّا في قلبها؟

إنها تعلم كم هي صعبة المراس، ما يجعلها تسامح الفرّان إن أجابها نفياً إذا طلبت منه رغيف خبز محمّص ولكن غير مخبوز كثيراً... وتغفر أيضاً هفوة موظف وكالة السفر إن اتصل بها مراراً وتكراراً قبل السفر بيومين، لتأكيد اشتراكها في النزهة على صهوة الخيل في مجاهل الأمازون، وتتغاضى عن كلام مزين الشعر إذا أكّد لها أنها طلبت منه صبغ شعرها باللون الأشقر لا الكستنائي الفاتح وإلا لما كان زجّ نفسه في هذا الموقف الحرج. ويمكنها حتى أن تصفح عن خطيبها إذا عاتبها لأنها لم تقل إنها لا تحب الأطباق اليابانية قبل أن يجلسا إلى طاولة الطعام... ستغفر لهم جميعاً عتبهم عليها، وستتفاوض مع نفسها ومع الآخرين لتتقبل التذمّر.

المرأة تختار الرجل الذي يستطيع أن يفهمها

تقيم الدنيا ولا تقعدها إن قالت يوماً إنها مرهقة، فلفت شريك حياتها الغالي نظرها قائلاً: «ما الذي أتعبك؟ لم تفعلي الكثير في الواقع».

فلماذا برأيكم، اختارت رجلاً واحداً لا غير ليشاركها حياتها؟ لماذا اختارته هو وليس جاره مع أن هذا الأخير يبدو للوهلة الأولى وكأنه يفي بالحاجة نفسها؟

لأنها ظنّت أن هذا الرجل من دون سائر الرجال، بفضل كل الأدلة التي يفترض ألا تكون قد غشّتها، يتحلّى بالقدرة على فهمها.

عندما تقول إنها مرهقة فهي تعطي صورة عن حالتها، ومغزاها أنها لا ترغب في جلي كومة الصحون المتراكمة. ربما يبدو هذا الموضوع سخيفاً، ويشكل جزءاً من الحياة اليومية، وموقفاً واجهناه جميعنا في يوم وفي آخر. لكنه يستدعي الآن وقفة وعنواناً، لنثبت أن ردّات الفعل المتناقضة هذه التي تبدو عادية جداً، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتركيبتنا الدماغية المميزة.

المبالغة والمغالاة عند المرأة لا يعكسان رغبة لديها في أن تثير الاهتمام وتلفت الأنظار، وإنما هما نتيجة لسهولة تعبير تتمتع بها المرأة، وتقودها فطرياً إلى الاسترسال؛ إضافة إلى تلك الأدراج التي تفتح كلها معاً في عقلها، فتجعلها تفكر وتتكلم عن أشياء كثيرة في آن معاً. والكلام هو وسيلة تشرك المرأة بواسطته الآخر بانفعالاتها وأحاسيسها.

أما الرجل، فلا يناقشها في معنى عبارة تلفّظت بها، رغبة منه في لعب دور المعلّم، بل لأنه يواجه صعوبة في التعبير تدفعه إلى اختيار

الكلام بدقّة. لا شيء يزعجه أكثر من كلمة تستخدم في غير مكانها، أو عبارة قيلت مكان أخرى أو أُضيفت حباً بالإضافة لا غير. الكلام بالنسبة للرجل وسيلة لنقل معلومة أو حدث، ليس أكثر، وتفسير هذا هو تركيب عقل الرجل الذي تنفتح «أدراجه» درجاً درجاً الواحد تلو الآخر.

تعتقد المرأة أن المشوار يبدأ حين تقول «نعم»

يكمن جوهر القضية، في اعتقاد المرأة، بأن المشوار يبدأ ما إن ترضى بالحياة المشتركة. وهي تنتظر كل يوم للتأكد من أنها أحسنت الاختيار. وتفترض أن على الرجل أن يسعى إلى إحياء العلاقة التي سعى لإقامتها معها. وإلا فما الغاية من هذه العلاقة؟ لا شيء... حسن، ولكن الرجل يرى الأمر من المنظار نفسه. فهو يبذل كل الجهود، قبل أن تتخذ هي قرارها. فيشتري المنزل الذي يثبت صدق نواياه... ويعترف لها بحبه، ويتصل بها عشر مرّات في اليوم ولا يترك مساحة لأحد غيره على بريدها الإلكتروني. يفعل كل ما يفعله أي عاشق متيّم. ولكن ما نفع كل هذا بعد أن تصبح زوجته؟ فهي في منزله، بمتناول يده كل يوم، كل مساء وكل ليلة. وإذا أرادت أن يقدم لها إثباتاً على تعلّقه بها، فهذا الإثبات واضح جلي: أو ليس هو أيضاً في منزلها، بمتناول يدها، كل يوم، كل مساء وكل ليلة؟!

تسعى المرأة لسماع الإطراء، لكنها لن تعترف بهذا أبداً

هل لاحظتم يوماً وجه المرأة حين تقول لزوجها وهي تسوّي تنورتها الجديدة براحة يدها: «ما رأيك بي»؟ هل تعتقدون أنها بسؤالها هذا تطلب رأياً موضوعياً؟ إذاً كيف تتوقعون أن تكون ردّة فعلها، هي المرأة التي تستخدم الكلام لإشراك الآخرين بانفعالاتها، إن أجاب،

هو الرجل الذي يلجأ للكلام لإعطاء معلومة، قائلاً: «تنورتك تميل قليلاً إلى الأمام».

كم يكلفه أن يقول لها «تبدين رائعة؟» لا شيء البتة. ما الذي يمنعه من الادّعاء؟ لا شيء. ربما ينبغي أن نعلمه كيف يتصرف، أو نصحبه إلى كواليس عقل المرأة لنجعله يرى كيف تعمل هذه الآلية. ومتى فعلنا ذلك تنتهي مهمتنا.

عليكم إذاً أيها الرجال الاضطلاع بالمسؤوليات الملقاة على عاتقكم!

الرجل يختار المرأة التي تستطيع أن تُعجب به

يحتاج الرجل لأن تثق المرأة به، لأنه مفطور على القناعة بأنه يحاسب استناداً إلى نتيجة أعماله. يحتاج أن تعتمد عليه المرأة لتصليح ما تعطّل وشفاء ما يؤلم وإزالة ما يعيق الطريق. وكلما وثقت به تفوّق على نفسه وتحسّن أداؤه. فالرجل الذي تدعمه ثقة امرأة يستطيع أن يدهش الآخرين ويدهش نفسه أيضاً. تذكروا ما كان يحصل في أوروبا في القرون الوسطى! ألم يكن الفرسان المتبارزون، الرازحون تحت ثقل ألبسة فولاذية تزن أطناناً، يتقدمون بتواضع لأخذ محارم ملونة صغيرة من أيدي محبوباتهم؟ تلك المحارم كانت تمنحهم الشجاعة والقوة للقتال وتحقيق النصر. هكذا هم الرجال حقاً! يحتاجون امرأة معجبة بهم. وإذا شرد نظر تلك المرأة يوماً بعيداً عنهم، أو شكّت ولو للحظة واحدة بهم، يجنّ جنونهم.

في إحدى المسرحيات الفرنسية الشهيرة، Apollon du Belvédère، ينصح أحد الممثلين فتاة شابة بأن توجه دائماً الإطراء إلى الرجال الذين تلتقيهم. فالإطراء هو السبيل الوحيد لتحصل على كل ما ترغب به منهم. ويضيف قائلاً لها إنه من المستحسن أن تقول

لهم بأنهم يتمتعون بوسامة فائقة. وهي تسأله بسذاجة: «حتى لو كانوا بشعين؟» وهو يجيبها: «امدَحيهم بخاصة إذا كانوا بشعين. لأن إطراءك هذا لم يسمعوه كثيراً من قبل، لذا يلامس أعمق أعماق نفوسهم».

أتقولون إن هذا يحصل على المسرح فقط؟ إلا أن هذه التجربة فيها شيء من علم النفس، وليس أي علم نفس. فالرجل يعيش على المجاملات، التي هي في الواقع الإثبات الأسرع على ثقة الآخرين به. فكلما وثقنا برجل كلما زادت ثقته بنفسه، وكلما وثق بنفسه كلما أصبح مدعاة للإعجاب. وهذا أمر مناسب جداً. لأن الرجل يحتاج كثيراً أن يكون محطَ إعجاب الآخرين، كفريق كرة القدم الذي يلعب معه، وكزملائه، ولكن بخاصة زوجته.

الإعجاب هو الإشارة الوحيدة الأكيدة إلى أنه يلبي حاجة، وأنه يكسب المسابقات التي يشترك فيها.

وبفضل هذا يستطيع أن يكوّن عن نفسه صورة مختلفة، وينظر إليها بمتعة كبيرة، وحتى برضى. ما المشكلة في ذلك؟ ليفعل ما يريده؛ الأهم هو أن يسعى دائماً ليكون على مستوى تلك الصورة التي أعطاها عن نفسه.

الرجل يصعقه النقد

أما إذا أردت سيدتي تحطيم رجل ما، وتبديد جهوده أدراج الرياح، والقضاء على عزيمته، وحسن نواياه، ورغبته بتحقيق الأفضل، وتوقه لإسعاد الآخرين، فثمّة طريقة سهلة جداً لتحقيق هدفك: وجّهي له انتقاداً ما؛ انتقاداً صغيراً جداً، لا أهمية له البتة، أو يكفي أن تلمّحي إلى انتقاد من دون أن تعبّري عنه صراحة. قولي مثلاً: «أرى أنك ارتديت هذا القميص!» أو «هل اخترت فعلاً هذا

الطبق؟» وحتى لو كانت اللهجة لطيفة، مع القليل القليل من السخرية، كأن تقولي: «أتظن حقاً أننا سنذهب للتزلج في عطلتنا هذه السنة أيضاً؟». الرجل لا يتحمل الانتقاد أبداً، ولا يطيق أن يظهر بمظهر من أخطأ في تقديره. وهو في الأصل لا يتصور نفسه طالباً المساعدة من أحد، فما بالك بأن يقبل الخطأ في رأيه وتقديره! الخطأ يعني أنه لم ينجح في الاختيار، بل فشل في القيام بالواجب فعله، وفي أداء مهمته. كما لو أنه الرجل القديم حين يتخلّف عن إحضار الطعام المناسب لعائلته. ومختصر القول، يشعر الرجل بأنه فقد أهميته وقيمته. وإذا أردت سيدتي تحطيم رجل إلى أقصى الحدود، فجهّزي له انتقاداً صغيراً بسيطاً، خالياً من أي تلميح شرّير، وأسمعيه إياه صبحاً، وظهراً، ومساء على مدى بضعة أشهر وزيدي عيار هذا العقار مع مرور سنوات الزواج والحياة المشتركة. كوني على ثقة أنك تستطيعين بهذا الشكل أن تحوّلي أي فارس أحلام شهم أنيق إلى مخلوق كريه، أناني، غير آبه بشيء، مهمِل ومهمَل.

يصاب الرجل بعقدة التلميذ الفاشل

إليك أيضاً سيدتي طريقة أخرى لتحطيم الرجل.

هل من تصرف يزعجك لديه؟ لا ترددي بالتذمّر منه باستمرار. من المؤكد أن الرجل سيعود إليه غالباً، لا لشيء إلا للعناد والمشاكسة، ولأن الرجل لا يطيق سماع انتقاد أحد. وعودته إلى هذا التصرف ثانية تعطيك الفرصة لتأنيبه مجدداً، وهذا أمر مفيد إذا أردت القضاء على علاقتكما.

لنأخذ مثالاً عما قلناه من مشهد رجل يستحم وهو يدخن سيجارة. فإذا برمادها يقع في ماء المغطس الذي يستحمّ فيه. تكشرين قائلة: «شيء مقزز حقاً». وأراهنك على أنه سيكرر هذه الفعلة مرة أخرى،

إذا أدّيت الدور المنوط بك أداء جيداً. ومن المرجّح بنسبة ٩٩٪ أن يحوّل هذا الحادث، الذي وقع عرضاً في البداية، إلى أحد أحبّ الأعمال إلى قلبه.

هذا ما يسمّى بعقدة التلميذ الفاشل. يكفي أن يسمع الولد معلمته تقول لوالديه مرتين أو ثلاث مرّات متتالية إنه ليس موهوباً كثيراً، حتى يروح هذا الولد يفشل في كل واجباته المدرسية، حتى لو كان معدّل الذكاء لديه مرتفعاً جداً، استناداً إلى اختبارات كثيرة. ما يحصل في هذه الحالة، هو أن الولد يلتزم بالصورة المرسومة له.

والرجل أشبه بهذا التلميذ. قولي له إنه ذكي ووسيم، تريه كذلك. وقولي له إنه غبي وقبيح يبقَ على حاله هذه.

الرجل تحفّزه الإطراءات

ماذا تفعل المرأة إن لم يكن الرجل الذي تزوجته كامل الأوصاف؟ هل تحاول أن تتقبلّه وتتأقلم معه؟ ليس بالضرورة. تستطيع طبعاً أن تحاول تحسين أوضاعه. لكن إيّاها والكشف عن نيّتها هذه!

لقد سبق أن شرحنا أن الرجل يحب أن يسير على خطى مشاها أحد غيره، أن يلتزم بالخط المرسوم، بخاصة عندما يتعلق الأمر به هو شخصياً. فلا شيء يستبدل إلا إذا كان مكسوراً. وهو ليس مكسوراً، فلمَ يسعى لأن يغيّر نفسه؟ أما المرأة فقد قلنا أيضاً إنها تسعى إلى الأفضل في شتى الظروف. ولا عجب إن طبّقت رغبتها في تغيير كل ما يحيط بها، على الرجل الذي يشاركها حياتها.

أما هو فيدعها تفعل ما يحلو لها، ما دامت لا تغيّر له سوى قمصانه وأحذيته أو حتى تسريحة شعره... وهو أحياناً يتعاون معها بحماس مفرح. ولكن ما إن يصل المدّ إلى تغيير طباعه حتى يضغط

على المكابح بكل ما أُوتي من قوة، لا بل يعاند ويضرب الأرض بقدميه، ويقفل جميع الطرق المؤدية إلى الحوار.

في وضع كهذا، على المرأة أن تتسلح بالدماثة والعناد. وأن تتعلم كيفية إعطاء أهمية لكل جهد بسيط يبديه، حتى تتمكن من دفعه إلى المزيد من المحاولات.

هل تقيمان مأدبة طعام؟ ها هو قد فرش المائدة، بينما اهتميت أنت بتنظيف المنزل وترتيبه وشراء الحاجيات وإعداد المأكولات. حتى لو كنت تتحرّقين شوقاً للفت نظره إلى قلّة الإنصاف في ما قمت به أنت من أعمال مقارنة مع ما فعله هو؛ وحتى لو كنت عاجزة عن منع نفسك من القيام بهذه المقارنة، ينبغي أن تقدمي له الشكر.

اشكريه على الصحون العشر والأكواب التي وضعها على الطاولة، ولا تنسي الملاعق والسكاكين والفوط. عليك أن تشجّعي الرجل ليتقدم. وهذا الإطراء الماكر الذي تتكرّمين به عليه اليوم، سيعود عليك بتطوّع لكنس السجادة في المرة المقبلة، والله أعلم، فقد يقشّر البطاطا في المرة التالية. أما إذا زل لسانك وتفوّهت بلوم أو عتب، فستقع الصحون والأكواب وأدوات الطعام على رأسك في المرة التالية. أتدركين الآن فداحة الكارثة؟.

الرجل يتحسّن تحت تأثير التأنيب... الذي لا نسمعه إياه

ثمة طريقة أخرى لا يمكن أن تخيب إذا نوينا أن ندفع الرجل إلى التحسّن. وتقوم هذه الطريقة على أن نلجم كل الانتقادات التي تمرّ ببالنا قبل أن تتمكن من تخطّي شفاهنا. فالرجل يمتنّ لزوجته أشدّ الامتنان إن هي أعفته من لوم يعرف أنه يستحقه. إذا نسي مثلاً أن يحضر الخبز وهو في طريقه إلى البيت، وكانت هذه المرة الثالثة التي ينسى فيها هذا الأسبوع إحضار شيء طلبته منه، فقولي له مثلاً بلهجة

متفهمّة: «اسمع، لا بأس، لدينا الكثير من الخبز في الثلاجة». فالرجل عندما ينسى إحضار شيء يبدأ بالانزلاق نحو عقدة «التلميذ الفاشل»، لأن طبعه المفطور على تأمين الطعام يتلقى صفعة قوية. إن التسامح الذي تبدينه في موقف كهذا يجعله يبذل جهوداً جهيدة لئلا ينسى في المرة التالية. فكلما عرف مدى تقديرك له كلما بذل جهداً أكبر. ربما تعتقدين أن في الأمر تناقضاً، ولعل الرجل في الواقع مخلوق غريب عجيب!.

ماذا أعرف عن الجنس الآخر

«تدخل عيادتي طفلة في الثالثة أو الرابعة من عمرها برفقة والدتها، التي لم تجد من يبقى مع ابنتها ريثما تعود. تجلس الطفلة على المقعد وتصب اهتمامها على كتاب أو لعبة. وإذا تحركت من مكانها، فلا تتخطى محيط المقعد بكثير، وتأخذ في طرح الأسئلة.

أما حين يدخل عليّ طفل برفقة والدته، فهو يقفز فور دخوله على الكرسي ويتسلل تحت المكتب، ويصعد على الميزان كلما مرّ أمامه، ويفتح الخزائن ويغلقها ويدور حول الكراسي. ولا تمر لحظات حتى يكون قد استكشف العيادة بدون أن ينبس ببنت شفة.

في مشهد آخر، نرى أن الأم الحامل تتأثر أثناء إجراء الصورة الصوتية، لرؤية الجنين يتحرك وقلبه ينبض. أما الوالد، فينفعل لمشهد الطفل في أحشاء زوجته، ولكن ما إن تمرّ لحظة الانفعال، حتى يؤخذ بآلة التصوير الصوتي وطريقة عملها. وحين يأتيني رجل لأفحصه، يشرح لي ما يعاني منه بجملة أو جملتين، بطريقة مختصرة جداً.

يختار مفردات دقيقة ولا تظهر على وجهه انفعالات كثيرة. لكنني أعلم أن ما يظهر منها حقيقي وصادق. أما حين تزورني امرأة فيحدث العكس، فهي قبل أن تطلعني على سبب زيارتها، تبدأ برواية قصة طويلة، تخبرني أشياء ربما يعود تاريخها إلى أكثر من عشرة أعوام. انطلاقاً من حدث هام، تخبرني عن وقائع ولكن أيضاً عن عواطف وترتسم على وجهها مجموعة من التعابير المختلفة بما في ذلك البكاء. ويحدث أحياناً أن أبقى جاهلة لسبب زيارتها لي حتى بعد مرور عشر دقائق على دخولها العيادة».

آن دوكيرفاسدويه، طبيبة نسائية

نص مقتطع من مجلة **Revue des deux mondes**

في عددها الصادر في أيلول ٢٠٠٠

وفي أحد الأيام تحررت المرأة...
وفكر الرجل في أن يستغل تحررها

ها قد بلغنا من الكتاب موضوعاً هو الأكثر حساسية ودقة، الأكثر تعقيداً وإثارة للجدل، عندما نتحدث عن فروقات بين الرجل والمرأة: إنه موضوع الجنس! أما التيار التحرري الذي انطلق في أوروبا سنة ١٩٧٠ ليطال العالم بأسره، فلم يساعد على تبديد اللغط القائم في هذا الموضوع، لا بل العكس هو الصحيح.

انطلقت فكرة تحرير المرأة من مبدأ إفساح المجال لها لكي تحتل موقعاً آخر في المجتمع غير المنزل، إذا رغبت هي بذلك، ولكي تعمل وتحقق ذاتها كفرد وليس كأم وزوجة فحسب. أي باختصار، أن تعيش لأجل نفسها، وبالطريقة التي تريدها، وتحقق رغباتها الخاصة، لا أن تخضع بإذعان لقواعد وضع الرجال معظمها حتى الآن.

لنعد إلى السبعينات، كتعبير عن صورة الكهف.

ظنّ الرجال أن تحرر المرأة لا بد أن يجر معه تحرراً جنسياً، فاحتفلوا! فحتى ذلك الحين كانت علاقة المرأة بزوجها تقتصر على مقولة «الواجب الزوجي». وهذا التحرر يعتبر تقدماً ملحوظاً. أخيراً، ستتكلم النساء عن العلاقة الجنسية! سيعترفن برغبتهن بها! وراح الرجال يتوقعون الأفضل!.

وعلى خط آخر، لم يستطع عدد كبير من النساء الخروج من

وضعهن الخاضع، فاكتفين باحترام قواعد اللعبة الجديدة، وفعلن ما بوسعهن لترسيخ هذه الفكرة في عقول الرجال. قبل السبعينات كان هناك الزوجات والنساء الأخريات اللواتي يسمين أيضاً «النساء السلع». وبعد السبعينات أصبحت هذه الفئة الأخيرة معرّضة للانقراض، في ما خلا بضعة نماذج حفظت كدليل للأجيال الصاعدة. فقد تعلمت الزوجات التصرف «كنساء السلع» تماماً وهن يلعنّ هذه العبارة، واعتمدن التصرفات نفسها والطرق الملتوية ذاتها، متسلحات بمقولة: «كوني عشيقة زوجك»... واستمري في الوقت نفسه بالنهوض بواجبات الزوجة والأم. يُضاف إلى ذلك كله أنهن في المرحلة نفسها رحن يعملن؛ فهل يعتبر هذا التحرر تحرراً؟ قوّموا بأنفسكم!

المرأة تبالغ، حتى في الرغبة

وهذا لا يعني أن المرأة تكذب بشأن ما تشعر به من رغبة، وأنها تدّعي حب ممارسة الجنس، ولكن مهما فعلت لن تستطيع تكذيب الهرمونات. فإذا كان هناك حقل يختلف فيه الرجال والنساء اختلافاً كبيراً ولا يتساوون فيه البتة، فهو الجنس؛ فإن معدل التستوسترون لدى الرجل يفوق معدله لدى المرأة بـ ١٥ ضعفاً. وعدد النساء اللواتي يجارين الرجال في هذا المجال لا يتخطّى الواحدة على عشرة، أي أن امرأة واحدة من أصل عشرة يمتلكن معدل تستوسترون يساوي معدله لدى الرجال.

ولا مفر في هذا الإطار من مواجهة درس الطب الإلزامي: إن المركز الدماغي الذي يتحكم بمسائل الجنس يقع في منطقة تحت المهاد، وهي أشبه بحبة حمص لا يزيد وزنها عن خمسة غرامات. ولنبدأ بالقول إن حجمها لدى الرجل أكبر منه لدى المرأة؛ ولنكمل بالإشارة إلى أنه في هذه الغدة الصغيرة يتم إفراز التستوسترون، الذي

يزيد معدله لدى الرجل من عشرة إلى عشرين ضعفاً عنه لدى المرأة. هذا الهرمون هو الذي يُحدث ما نسميه بالرغبة الجنسية. ولنختم بالقول إن المرأة مهما حاولت أن تفعل لن ترغب بممارسة الجنس بالقدر الذي يرغب به الرجل. . . أي طوال الوقت. لا، ليس طوال الوقت، لعل هذه العبارة مبالغ فيها: فقد أشارت دراسة إلى أن أربعة رجال من أصل عشرة يفكّرون بالجنس كل ٣٠ دقيقة كمعدل وسطي. لكن هذا لا يمنع الستة الآخرين من اغتنام الفرصة إذا ما سنحت لهم.

وتجدر الإشارة إلى أن إفراز التستوسترون لدى الرجال يحصل على شكل موجات متعددة على امتداد اليوم، ويبلغ ذروته في الصباح. هل يذكركم هذا بشيء؟!

أخيراً، يمكن أن يفيدنا ذكر دراسة أميركية ونتائجها، إن لم يكن لأي دافع، فلنيّة شريرة: لقد ربطت هذه الدراسة ما بين الذكاء والرغبة الجنسية، وأوضحت أنه كلما كان مستوى الرجل الفكري عالياً كلما ضعفت رغبته الجنسية.

لا بد لهذه الدراسة أن تسعد الممثل «وودي ألن»، الذي لا يخفي رغبته الجنسية القوية، على الأقل في الأدوار السينمائية التي يمثلها.

ونذكر في هذا الإطار مشهداً «لآني هول» التي تشرح بوضوح كبير هذا الفارق الكبير في الرغبة الجنسية ما بين الرجل والمرأة، حتى يكاد هذا المشهد وحده يكفي لإيضاح الأمر. الشاشة مقسومة إلى جزئين: إلى اليسار «ديان كيتون»، في عيادة طبيبها النفسي تقول: «نحن نمارس الحب طوال الوقت؛ إنه أمر مريع، على الأقل مرتين أو ثلاث في الأسبوع». وإلى اليمين «وودي ألن» في عيادة طبيبه النفسي يقول: «لا نكاد نمارس الحب أبداً. إنه أمر مريع. بالكاد يحصل هذا مرتين أو ثلاث في الأسبوع».

الرجل يصدّق استطلاعات الرأي، حتى تلك المبالغ فيها

ما هي حقيقة الرغبة التي تشعر بها المرأة؟ من المستحيل الإجابة عن هذا السؤال بشكل حاسم. إنه موضوع خاص جداً وحميم جداً، صحيح أن دراسات كثيرة أجريت حوله، إلا أن المعلومات التي تمّ التوصل إليها لم تكن صحيحة مئة بالمئة، فقد اعتمد فيها على مجموعة من الأسئلة، وبخاصة تلك الدراسات التي أُجريت في أميركا. وحتى لو كانت الأسماء لا تذكر في هذه الاستجوابات، هل من الممكن الوثوق بصدقها ونزاهتها؟

تستحق بعض الاستطلاعات الأوّلية أن تذكر في هذا الإطار. فهي غالباً ما تحاول تحديد انتظام العلاقات الجنسية، ما يشكل بداية للحصول على معلومات؛ حتى لو كانت المرأة تتقبل الاتصال الجنسي من دون أن ترغب به فعلياً.

وبصرف النظر عن البلدان التي أُجري فيها الإحصاء نحصل على النتيجة التالية: يمارس الشبان الحب ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً. أما الأقل شباباً فمرتين أو ثلاث. وتقتصر علاقات الأكبر سناً على مرّة أو مرتين أسبوعياً. وعدم الدقة في الأرقام مقصود هنا، فعند الجمع ما بين استطلاعات رأي عديدة، تطال كل مرة أزواجاً أو أفراداً، وتشكل بحد ذاتها معدلات، لن يكون تأكيد صحة النتائج نزيهاً.

وانطلاقاً من هذه المعطيات، ينبغي العودة إلى تفصيلين أو ثلاثة تفاصيل على قدر كبير من الأهمية.

تجدر الإشارة قبل كل شيء إلى أن هذه الاستطلاعات محرجة. فصحيح أن المرأة تتكلم، وتحب الثرثرة وإخبار القصص، وصحيح أنها لا تشعر بالحرج ولا تحجم عن مناقشة أي موضوع، حتى أكثر المواضيع حميمية، إلا أنها حين تتحدث مع رفاقها لا تحسب نفسها

مشاركة في إحصائية، وبالتالي لا تخشى أن تغيّر نتائج إحصائية ما بأجوبتها. وهذا ما يجعلها تقول بصراحة، إن ما من امرأة تعيش بحسب النمط المذكور، وبالتالي فزوجها أيضاً لا يعيش بهذا الشكل.

إذاً من أين يحصل الباحثون على أرقامهم؟ ما من رجل لم يطّلع يوماً على استطلاعات الرأي هذه، وما من رجل استطاع عند الاطلاع عليها، أن يمتنع عن التفكير بأن جميع الرجال من حوله أوفر حظاً منه. أما النساء اللواتي قرأن هذه الاستطلاعات، فلا بدّ أنهن شعرن ببعض الذنب. فماذا لو كنّ حقاً غير طبيعيات، كما يقول أزواجهن؟

رغبة المرأة متقلبة

الرغبة عند الرجل ثابتة أما عند المرأة فهي، ككل شيء فيها، متقلبة.

متقلّبة بحسب العمر أولاً: تبلغ الطاقة الجنسية ذروتها لدى الرجل ما بين سن ١٨ و٢٠. بينما تصل الرغبة الجنسية عند المرأة أوجها في سن الخامسة والثلاثين، أي في الوقت الذي لا يتبقى لها فيه سوى سنوات قليلة لتحمل وتلد. إنه الوقت الذي تحاول فيه الطبيعة مرة أخيرة أن توقع بها في شركها. والمرأة في هذه المرحلة بالذات تتمتع، بحسب الإحصاءات، برغبة جنسية تتخطى رغبة الرجل. فليست رغبة الرجل هي التي تعاني الركود في هذه المرحلة، إنما قدرته على تحقيق الانتصاب. إنها المرحلة الوحيدة أيضاً التي نسمع فيها الرجل يردد عبارات مثل «المرأة السلعة»: من تعتبرني؟ هل تظن نفسها قادرة أن تستغلني ثم ترميني كمحرمة ورقية؟ أما من شيء في الدنيا إلا الجنس؟!» طبعاً، هناك أشياء أخرى، مثل التسوّق. ذلك هو رد النساء عامة... النساء اللواتي لا يفوتنّ فرصة لإذلال أزواجهن المساكين!

تتقلب الرغبة الجنسية لدى المرأة بحسب الظروف أيضاً. في بداية العلاقة، أي في شهورها الأولى، يمكن أن تبقى رغبة المرأة متّقدة، فتعبّر عنها وتظهرها.

يقارن الرجل لاحقاً بين زخم حياته الجنسية الزوجية الحالية وبين ما عهده في بداية الزواج، مما يثير متاعب زوجية كثيرة. في الواقع نشير هنا إلى أن الطبيعة تسعى في هذه المرحلة إلى ترسيخ العلاقة بين الزوجين وتثبيتها حتى يأتي الطفل المنتظر ويكرسها. لذلك يزداد إفراز الهرمونات عند الزوجين في هذه المرحلة.

وما إن يثبت الزوجين في علاقتهما حتى تعود هرمونات المرأة إلى حالتها الطبيعية بعد أن عرفت ارتفاعاً ملحوظاً. يؤدي هذا الانخفاض إلى تراجع في رغبتها. في حين يبدأ الرجل، الذي بقي لديه مخزون من التستوسترون، بالإحساس بتفاوت مؤلم بين رغبته ورغبة زوجته.

تأتي أوقات في السنة تشعر فيها المرأة بأنها راغبة بحصول اتصال جنسي مع زوجها. ولعل العطلة والرمل الدافىء وأشجار جوز الهند والتكاسل، أو بعض المواقف المناسبة التي ينجز فيها زوجها عملاً خارقاً أو يبدو وسيماً جداً، لعل كل هذا يساهم في تمهيد الأجواء.

وقد ترغب المرأة بحصول الاتصال بعد فترة انقطاع، شرط أن يتّفق الزوجان على مدة انقطاع طويلة. الرجل يحدّد هذه المدة بالساعات وربما بالأيام وفي أسوأ الأحوال بالأسابيع، غير أن المرأة تقيسها بالأشهر وربما بالسنوات.

رغبة المرأة سريعة العطب

يكفي أن تعيش يوماً مضطرباً، أو تقلق على صغيرها أو تتشاجر مع عاملة الصندوق في المتجر، حتى تتبخّر الرغبة ولا يبقى لها أثر.

في حين أن ممارسة الحب تعتبر بالنسبة للرجل الوسيلة الشافية الفضلى، إذ تلهيه عن همومه، وتبدد ما يتعرض له من ضغط نفسي وتوتر. . . وتساعده حتى على الاسترسال في النوم.

تتقلب رغبة المرأة أحياناً لأسباب غير محددة، يصعب على الرجل فهمها. فالمرأة تُقبل على ممارسة الحب بحماس إذا كانت راضية عن مظهرها. وهي تكون مستعدة حين ترى نفسها جميلة رشيقة، نظيفة، ومغرية. أما إذا رأت نفسها سمينة وغير جميلة، فهي تتمنّع.

كم من رجل صدم أمام امرأة أبدت له أمارات القبول، وتمنّعت في اللحظة الأخيرة. ما الذي جال في رأسه في تلك اللحظة، وأي أسئلة طرحها على نفسه؟ من المؤكد أن السبب الحقيقي الكامن وراء هذا التمنع ليس الحياء ولا الشعور بالتعب ولا حقيقة شعورها نحوه. لا طبعاً! المشكلة الحقيقية، التي اكتشفتها في اللحظة الحاسمة هي أنها لم تنزع الشعر الزائد قبل ذلك. تخيلوا إذاً قوة رغبتها الجامحة!.

وأخيراً، نشير إلى أن رغبة المرأة موجّهة، على عكس رغبة الرجل. . . موجهة إلى شخص معين. فإذا أثار أحدهم إعجاب المرأة أكان زميلاً أو خادماً أو رجلاً جلس قربها في المواصلات، فمن المؤكد تقريباً، أنها ستكون متحفّظة مع زوجها في المساء. فأي انفعال تبديه حيال شخص آخر، يبعدها عن شريكها قليلاً. أما ما يحدث مع الرجل فهو العكس. لأنه يطلق العنان مع زوجته مساء، لكل الرغبة التي أحسّ بها أثناء النهار ولم يستطع إشباعها.

الرجل لا يمكن إرضاؤه

لا عجب إذاً بعد كل ما قلناه، أن تشكل الحياة الجنسية أحد الأسباب الرئيسة في الخلافات بين المرأة والرجل؟ مرة أخرى نكتشف، بعد مراقبة الأمور عن كثب، أن المشكلة الفعلية لا تنشأ عن

فروقات في الحاجات والرغبات، التي يمكن أن تعدّل بشيء من الإرادة، بل عن الأفكار المسبقة والأحكام المسبقة والصورة التي تنتج عن هذه الأفكار والأحكام. بكلام أبسط، ما دام الرجل يقنع نفسه بأن للمرأة حاجات ورغبات مماثلة لحاجاته ورغباته، فسيبقى أمله في تحقيق هذه الحاجات والرغبات معها ضئيلاً. ما دام الرجل يظن بين غضب وتسليم، أن المرأة الوحيدة التي لا ترغب أبداً بممارسة الحب، هي لسوء الحظ زوجته، فسيجد صعوبة في ترغيب نفسه بها وبالتالي بترغيبها به. وما دامت استطلاعات الرأي تنشر نتائج قائمة على أجوبة تقريبية، ما لم تكن مغلوطة، فستظل النساء بنظر أنفسهن وبنظر أزواجهن مخلوقات فاترات جنسياً. ويدفعهن هذا الوضع إلى عدم القيام بأي مجهود لدحض هذه السمعة.

الرجل والمرأة تغيّرا كثيراً عبر الأزمنة...

صحيح أننا ورثة أجدادنا الذين سكنوا المغاور، أجدادنا الذين نجدهم اليوم غريبي الأطوار، لأن همهم الأول والأخير كان الإنجاب، إلا أننا نعيش اليوم، في الظروف العصرية التي وصلنا إليها، بفضلهم هم. ومنذ العهود التي عاشوا فيها حتى عصرنا الحالي حصلت أشياء كثيرة. تغيّرنا تغييراً عميقاً، أصبحنا أكثر تمدّناً وثقافة وانضباطاً. لم يعد الرجل العصري يقفز على كل ما يتحرك أمامه، كما كان الرجل القديم يفعل بحجة ضمان استمرارية الجنس البشري. علماً أن البعض قد تعجبهم هذه الحجة وتناسبهم كثيراً!.

لم يعد الرجل والمرأة يكتفيان اليوم بالتكاثر، بل راحا يسعيان إلى إثارة الإعجاب. فتراهما يبتسمان ويتعانقان وتتشابك أيديهما، فيخفق القلبان، وتتلامس الشفاه في قبلة حارة ومداعبات تنتهي بهما إلى ممارسة الحب. وغالباً ما يحدث ذلك بدون نيّة الإنجاب، وهذا دليل

على التحول والتطور! ودليل أيضاً على أننا لا نعلم دائماً بأي دافع نفعل ما نفعله حقاً.

فإذا كان الوقوع في الحب نتيجة عملية كيميائية قديمة قدم الزمن، فهو أيضاً نتيجة تفاعل كيميائي لا مفرّ منه.

الرجل والمرأة ما زالا خاضعين لتاثير ما

عندما نقع في الغرام، نتحول إلى سلسلة من ردّات فعل كيميائية، غايتها أن تمنحنا شعوراً بالسعادة ولكن بأي هدف؟ الهدف هو الاستمرار، والبدء من جديد. علّنا في النهاية نتوصل إلى الهدف الأسمى وهو إنجاب الأطفال...

عند القبلة الأولى، يبدأ الدماغ بتحليل سريع لريق الشريك، للتوصل إلى تشخيص فوري للتوافق الوراثي. أما دماغ المرأة فيجري تحليلاً إضافياً صغيراً للتأكد من قوة الجهاز المناعي للرجل. على خط آخر، يطلق الانفعال الذي يشعر به المرء في هذه اللحظة عملية إفراز مادة من عائلة الأنفيتامينات تخدّر الجسم، وهي مادة نجدها في الشوكولا؛ فعليكم به إذا ما كنتم تنوون الوقوع في الغرام في القريب العاجل! تسرّع هذه المادة نبضات القلب، وتثير إحساساً برطوبة اليدين. والأغرب من هذا كله، أنها تسكّن الجوع، إذ يشعر المرء بعقدة في معدته. فنصيحتنا للمهووسين بالحميات المنحفة، الذين يحاولون خسارة الوزن على أمل مقابلة فتى الأحلام، أن يعكسوا الآية؛ إن الحب هو مفتاح النحافة.

ويترافق إفراز هذه المادة مع ارتفاع نسبة الأدرينالين وهو الهرمون الذي يمنح الإحساس بالقوة والطاقة. إضافة إلى هرمون الأندروفين الذي يُشعر المرء بالهناء، ويساهم في تعزيز جهاز المناعة.

وحصيلة هذا الفحص، الذي يكاد يكون طبياً صحياً، هي الاستنتاج التالي: عندما يكون المرء مغرماً، غالباً ما يكون في حالة جسدية ونفسية جيدة. فما بالكم إذا علمنا أن الحب يزيد الإنسان جمالاً...

ما دور العملية الجنسية في كل هذا؟

الآن وقد وصفنا مسرح العلاقة العاطفية التي تربط الرجل بالمرأة، حان وقت توزيع الأدوار. ونذكّر بأن التناسل هو الهدف الأساسي من التزاوج، وبأننا أداة لتنفيذ نظام يتخطّانا، وبأن الرغبة الجنسية عند المرأة تتحكم بها المعدلات الهرمونية المنخفضة لديها والعالية لدى الرجل.

تقولون ما دور الجنس في كل هذا؟ وها قد بلغنا بيت القصيد. لنبدأ بشكل طبيعي بالمقدّمات: لقد تأثّر الرجل منذ أقدم العصور برؤية المظاهر الأنثوية، حتى أن تكوينه يجعله يشعر بهذه الإثارة للتأكد من مساهمته قلباً وقالباً في عملية التناسل. فلا عجب إذا كان الرجل يحب ممارسة الحب في النور؛ وهذا فعلاً ما يفضّله ٨ رجال من أصل ١٠، مقابل ٤ نساء من أصل ١٠، كمعدل وسطي.

أما المرأة فهي متعددة الحواس. وحواسها تعمل كلها في آن معاً. وإذا تخلّت عن إحداها، فلتجني فائدة كبرى من الحواس الأخرى. وحين تغمض عينيها أو تطلب إطفاء النور، فهي لا تفعل هذا حياء.

وماذا عن المداعبات؟ لقد سبق أن قلنا إن المرأة مزوّدة بعدد كبير من اللواقط موزّعة بشكل متوازن على جسمها كله. وهي ترحّب بأي مداعبة مهما كان موضعها. في حين أن الرجل، الذي قسّت جسمه قرون طويلة من التجوال في الغابة، فيبدي ميلاً إلى مداعبات معينة.

المرأة لا يهمها بلوغ ذروة النشوة، غير أن الرجل يحاسب الآخرين

ويحاسب نفسه بحسب النتائج التي يتوصّل إليها. وهو بالتالي لا يجد بدّاً من بلوغ الذروة، ويقصد أن تبلغها شريكته أيضاً.

فلم العجب إذاً بعد كل ما قيل، إن ادّعت المرأة بلوغ الذروة؟! تلك المرأة التي هدّها التعب بعد منتصف الليل، في حين أن زوجها يتجاهل إحساسها بالإرهاق لأنه لم يفكر بسوى ذلك طوال النهار... تلك المرأة التي تفكر قلقة بما ستفعله يوم غد، في حين أن زوجها يتمتع بدماغ مقسّم منظم لا يفكر إلا بشيء واحد في وقت واحد.. تلك المرأة التي تخشى في كل لحظة دخول أحد أولادها عليها، في حين أن الرجل يصب كل تركيزه على ما يفعله، وينوي بلوغ هدفه وتحقيق النصر...

وبعد كرّ وفرّ يدوم ١٠ دقائق أو أكثر، لا تجد تلك المرأة مفرّاً إلاّ الإدعاء.

الخيانة والمكر

ولدت في العصر الحديث أخلاقيات جديدة حكمت علاقة الزوجين. وتقوم تلك الأخلاقيات على وعد يقطعه الزوجان بإنهاء العلاقة بينهما ما إن يشعرا بفتور عواطفهما ويترافق هذا الوعد بوعد آخر مفاده التعبير المتبادل عن كل ما يجول في خاطر الطرفين والاعتراف بكل شيء في حال وقوع خيانة. كما لو أن مجرد الإفصاح والكلام يمكنه أن يحلّ المشكلة. والواقع أن العكس هو ما يحصل في معظم الأحيان. فالزوجان اللذان يتّفقان على أن يعيش كل منهما حياته الخاصة، ينفصلان بسرعة لأنه، شئنا أم أبينا، لا أحد يستطيع تحمّل خيانة الآخر إلا في حالة واحدة، وهي إن كفّ عن حبه. ونذكر في معرض الكلام، على سبيل التذكير لا غير، إن صدفة غريبة شاءت أن يكون الرجل في معظم الأحيان، المبادر إلى الخيانة، تتبعه الزوجة بقصد الانتقام.

ونستشهد بفيلم أميركي عرض في الخمسينيات هو «٣٠ دقيقة في طوكيو». في هذا الفيلم تفاجىء فتاة والدها متلبساً بجرم الخيانة. فيروح يبرر لها فعلته مؤكداً أن هذه طبيعة الرجال كلهم من دون استثناء، وأنهم جميعاً يخونون زوجاتهم. ويتابع شارحاً أن الأزواج يدّعون الإخلاص لأنهم لا يستطيعون غير ذلك، والزوجات يتغاضين ويسكتن باسم مبدأ التضامن المتّفق عليه ضمناً. ألا يذكركم هذا الوضع بقانون التزام الصمت المطّبق في عصابات المافيا؟

ويصبح السؤال المطروح «هل يجب أن يعترف الرجال بخياناتهم أم لا؟» وليس كما نعتقد «هل يجب أن يخون الرجال زوجاتهم أم لا؟».

الثرثرة والعجلة رذيلتان مؤذيتان

يكره الرجل الحديث في الأوقات الحميمة. لماذا؟ هل قلتم لأن دماغه لا يخوّله القيام إلا بعمل واحد في وقت واحد؟ أحسنتم. الرجل ينصرف بكل حواسه إلى العمل الذي يقوم به. ومن المستحيل أن يمارس الحب ويثرثر في آن معاً. والأسوأ هو أن تبدأ المرأة فجأة بالثرثرة معه، وأن يشعر بضرورة الردّ على كلامها. فهذا ليس وقت الحديث عن مدينة أفلاطون الفاضلة، ولا وقت الكلام عن أفضل وصفة طعام. يفضّل الرجل أن تعلّق المرأة على ما يفعلانه في هذه اللحظة، وتعبّر عمّا تشعر به، وأي كلام آخر يمكن أن يعرقل مساعيه وينتهي به نهاية غير مرضية.

من جهتها، تشعر المرأة بأن الأجواء غير مؤاتية، إذا أبدى الرجل عجلة. . . إذا أظهر أنه يريد الدخول في صلب الموضوع بدون مقدمات وأنه يريد الانتهاء بأسرع ما يمكن. لا شيء كالعجلة يعطي المرأة انطباعاً بأنها «الشيء» الذي يرغبه شريكها. ولا شيء كالعجلة يقضي على رغبتها.

ثمة طرفة رائجة على شبكة الأنترنت، مفادها أن أكثر المقدمات شيوعاً التي يضطر الرجل للمرور بها، هي استعطاء علاقة جنسية، نصف ساعة على الأقل قبل الحصول على موافقة! وحين تمنحه المرأة هذه المنحة، لا تتوقع منه أبداً أن يدخل صلب الموضوع مباشرة. نذكّر بأن المرأة تلفّ وتدور. إلا أنها تحتاج للشعور بالأمان، وبأنها هي المرغوبة وليس غيرها. . . وبأن شريكها يحاول أن يفهمها «هي» ويشبع رغباتها الخاصة.

وما تحتاجه من اللحظة التي يتقرّب فيها زوجها منها إلى النهاية السعيدة، هو التروي والوقت الكافي.

ويبقى مفعول هذه المطالبة سارياً من بداية العلاقة. وبعد مرور سنوات الزواج الأولى، ستطالبه هي شخصياً بزيادة السرعة، إما لأن الوقت قد تأخر وهي تعمل في الغد، إما لأنها لا تحظى بما تريده من هذه الجلسات. ولا تخدعنّكم المظاهر، فبعد مرور سنوات الزواج الأولى، إذا خُيّرت المرأة بين جلسة تدليك طويلة من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها مروراً بظهرها، وبين ممارسة الحب بالطريقة التقليدية العادية، فمن المرجّح أن تفضّل الخيار الأول، وتتنازل عن الاقتراح الثاني من دون تردد أو ندم. لحسن الحظ أن بعض الرجال فهموا ضرورة الدمج بين الافتراضين إذا أرادوا بلوغ الهدف. وحسناً فعلوا!.

التخيل والرغبة مختلفان

الفرق بين التخيّل والرغبة، هو أن التخيّل لا يفترض أن يصبح حقيقة بل يجب أن يبقى تخيّلاً. وهكذا هي المرأة من الناحية الجنسية. أما الرجل فيحتاج للتطبيق. ما يشعر به هو الرغبة الصرفة. رغبة ينبغي إشباعها. رغبة ملحّة جداً حتى أنها قد تدخله، إذا لم يلبها، في حالة انفصال عن الواقع. إن ممارسة الحب، بالنسبة

للرجل، وسيلة للتخلّص من التوتر. . . ذلك التوتر المتراكم لديه، الذي يتبدّد عند الشعور بالنشوة.

عندما يدخل الرجل في المرحلة الناشطة من العلاقة الجنسية، يكون مكتمل التحمية، الأمر الذي يجعله متعجلاً. وإن لم يحصل، في هذا الوضع المتوتر جداً، ما يخلّصه من الضغط، يتأثر تركيزه سلباً، فلا يعود يسمع جيداً ولا يفكّر جيداً ولا يتصرف كما يجب.

أما المرأة فحين تدخل هذه المرحلة الناشطة نفسها، تكون عند المستوى صفر، صفحة بيضاء، أرض عذراء. تنتظر الملامسات الأولى والكلمات الأولى لتنطلق. عندئذٍ تغوص في أعماق نفسها، بحثاً عن التخيّلات المخزّنة في داخلها. وعدد النساء اللواتي يفكّرن بشخص آخر أثناء العلاقة الجنسية، أكبر من عدد الرجال. . . فالرجال، بشهادة النساء جميعاً، لا يفكّرون بشيء في مثل هذه اللحظات. . . تتصاعد الرغبة لدى المرأة ببطء، هذا إذا علم شريكها كيف يتصرف. وحتى لو لم تبلغ ذروة النشوة في نهاية المطاف، لا تشعر بخيبة؛ فلا تنسوا أن المرأة تحب الرحلة بالقدر نفسه الذي تحب فيه بلوغ المقصود.

وخير الكلام أننا، نحن معشر النساء، لا نمتّ بصلة إلى أولئك النساء المتعطشات للجنس، اللواتي تصورّهن السينما وبعض الروايات للمجتمع. تظهر بعض الممثلات أو المغنيات بمظهر مثير يدفع إلى الاعتقاد بأنهن أكثر ميلاً من سائر النساء إلى ممارسة الجنس، وإذا بالغن أحياناً في هذه الصورة فليؤكدن صدق الشخصية التي رسمنها لأنفسهن، بحسب الموضة الرائجة أو الميول السائدة. لكن من المضحك أن نرى كيف تحولت «مادونا» من قنبلة جنسية تتجوّل بثياب فاضحة، إلى سيدة إنكليزية أرستقراطية، ترتدي التايور الأنيق المحتشم وتعقص شعرها في شينيون بسيط.

لا ننكر أن ثمة نساء مهووسات بهذه الناحية الحميمة من حياتهن، تماماً كما هناك رجال لا تعني لهم هذه الناحية شيئاً. لكن لا أولئك النساء ولا أولئك الرجال يشكّلون الأكثرية.

طرفة منقولة عن شبكة الأنترنت

ما يميّز الرجل صفة هي في الواقع سيف ذو حذين: الحد الأول هو أنه مُني بعضو ذكري مهمته تأمين المتعة لصاحبه وشريكة صاحبه. ومُني أيضاً بدماغ يفكر ويعمل ويبدع أشياء رائعة. أما الحد القاطع الآخر فهو أنه حُرم من الدم الكافي لعمل هذين الجزءين من جسمه في آن معاً!.

لِمَ هناك ملايين الحوينات المنوية فيما هناك بويضة واحدة؟ لأن الرجل لا يسأل أبداً عن الطريق حتى لو كان تائهاً.

عن شبكة الأنترنت

شباط ٢٠٠١

الرجل والمرأة على مسرح الحياة
أنبكي أم نضحك؟

بعد أن عدّدنا الاختلافات بين الرجال والنساء، وشرحناها وعلّقنا عليها، لا تعتقدوا أنه يكفي أن تحفظوها عن ظهر قلب وبالترتيب الأبجدي لتتخلصوا من تأثيرها السلبي. جيد أن تعترفي بأنها صفة رجولية بحتة حين لا يرى زوجك البيض، بالرغم من وجوده في مكانه المعتاد في البراد. إنما ذلك غير كافٍ. وجيد أن تتنبّه إلى أن في الأمر مسألة نسائية بامتياز، حين تمرّ زوجتك في الشارع نفسه ثلاث مرات على التوالي، بدون أن تلاحظ ذلك. لكن هذا لا يضمن لك النجاح في الامتحان!.

فهذه الاختلافات تتداخل غالباً وتتمازج وتتبدل حتى يصعب التمييز في ما بينها. وفي هذه الحالة، تبلغ قدرتها القصوى على تخريب أفضل العلاقات وأمتنها، بحذاقة وبراعة.

تظهر الاختلافات بين الرجال والنساء في كافة الميادين والأوقات، ولا سيّما حين لا نتوقّعها. أما حلّ هذه المعضلة فيكمن في التدرّب

على كشفها للحد من أضرارها.

والأمثلة في هذا الميدان كثيرة، لكننا اخترنا ههنا أشخاصاً عاديين، ليسوا منحرفين أو فظين. وإذا كانوا أيضاً غضوبين وشرسين أو سيئي النية، فستنتهي الكوميديا على الأرجح بجرائم قتل...

منطق أم انفعال؟

عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، وعلى المكتب المصمم على الطراز الحديث، المصنوع من الميلامين البنفسجي اللون، ذي الزوايا البلاستيكية التي تشبه المعدن إلى حدّ بعيد، يرنّ الهاتف للمرة السابعة. تعالى الرنين من دون أن يزعج الرجل الجالس أمام شاشة الكمبيوتر، يتحقق من حساب أحد المشتركين. سكت الهاتف للحظة، ثم عاود الرنين على الفور. فضغط على زر حفظ الملفات وترك ملفه ثم رفع سماعة الهاتف باليد نفسها. وتناهى إلى سمعه صوت امرأة تقول: «وأخيراً، حاولت الاتصال أكثر من عشرين مرّة منذ هذا الصباح، لكن أحداً لم يجب. فما هي مواعيد العمل في الإدارات؟!». التزم الرجل الصمت، بعد أن شلّته اللهجة المستخدمة. لهجة يمكن أن تعتبر مضطربة، لكنه اعتبرها تأنيباً وتعنيفاً. ويقول الرجل، في قرارة نفسه، إنه يستحيل أن تكون قد اتصلت عشرين مرة، فهو لم يتحرك من مكانه منذ وصل إلى عمله في الثامنة والنصف. صحيح أنه لم يعدّ الاتصالات لشدة انشغاله بعمله، لكنه واثق من أنّ هذه المرأة تبالغ. ويتشنج غريزياً، فهي تتهمه زوراً، وتلمّح إلى أنه تغيّب... أو تأخر... لا، إنه لا يتحمّل الانتقاد، لا سيّما حين لا يكون مبرراً.

دقة أم مبالغة؟

لكنه يتمالك أعصابه، فهو يعمل في إدارة عامة، وبالتالي مضطر

للتعامل مع الناس. إذاً، فلينته من هذه المسألة بأسرع ما يمكن. ولهذا، عليه أن يعود إلى علاقة أكثر موضوعية: «كيف لي أن أساعدكِ، سيدتي؟» وتعجز المرأة التي لم تفرغ ما في جعبتها بعد، ولم تنفّس عن غضبها، عن التحدّث بالنبرة المعتدلة نفسها. بل على العكس، تجيبه بلهجة مرهفة: «أتظن أنه ليس لديّ ما أفعله، سوى الاتصال ومعاودة الاتصال؟ شركتي صغيرة وأجد صعوبة في تشغيلها. ألا تعتقد أن بإمكاني استغلال الوقت الذي أضيّعه في محاولات الاتصال بشكل أفضل؟».

فيقاطعها، في محاولة منه لتهدئة الأمور: «حسناً، دعينا لا نضيّع وقتك ووقتي، كيف لي أن أخدمك؟».

شعرت المرأة بأنها قالت كل ما لديها، لكن بما أنه يسأل، شرحت له: «دفعت اشتراكاتي مع بعض التأخير، وهذا الصباح تلقيّت كتاباً يرغمني على دفع غرامات. هذا ليس عادلاً، فلست قادرة في الواقع على دفع الاشتراكات فما بالك بالغرامات؟ كما أن ساعي البريد رفض ترك الكتاب لمساعدتي، فقصدت مركز البريد بنفسي، مما يعني المزيد من الوقت الضائع...».

تعب الرجل من الحديث. ألا يمكنها أن تكون أكثر دقة؟ وأن تختصر أكثر؟

ـ «أعطني رقم اشتراكك من فضلك؟»

يا إلهي، أين الرقم اللعين؟ لمَ لا تجده بسرعة. الكتاب الذي تلقته هذا الصباح بين يديها والملف أيضاً. لكن، بما أنّ الإدارة لم تجبها على الفور، اهتمت بألف مسألة ومسألة أخرى.

ولم تجد أمامها سوى لائحة المشتريات التي عليها الاهتمام بها هذا المساء عند عودتها إلى المنزل. فقالت له مرتبكة: «انتظر،

اعذرني لحظة، سأبحث عنه». وأجابها الرجل، الذي لم يساوره الشعور بأنه يقدّم نصيحة: «كان عليك أن تحضريه».

فقالت المرأة، التي يمكنها أن تستغني عن درس مماثل: «نعم كان عليّ أن أفعل».

موعظة أم تهكّم؟

ألقت نظرة على ساعتها، ألن تتأخر على موعدها التالي؟ لكن، أين ركنت سيارتها؟ وفتحت مفكرتها، لترى مفاجأة بانتظارها: أمر الدفع فيها، على صفحة اليوم! أعطته الرقم، فأدخله إلى الكمبيوتر، ثم قال بلهجة منتقدة لاذعة: «تأخرّت عن الدفع ثلاثة أشهر، يا سيدتي، ثلاثة أشهر من دون أن تكلّفي نفسك عناء الاتفاق معنا على سجل استحقاق مسبق». لكن من يظن نفسه؟ سجل استحقاق؟ ثلاثة أشهر؟ ولمَ لم يصدروا اقتراحاً بتوجيه اللوم إليها؟ وماذا عن دعوة مجلس الوزراء للانعقاد؟ أو الأمم المتحدة لعقد مؤتمر عاجل؟

ـ «نعم، ثلاثة أشهر. وأنا أدرى الناس بذلك، بما أنني دفعت الاشتراكات بنفسي. لكن، ما الذي يتغيّر في الأمر؟».

في الواقع، لن يغيّر شيئاً، مع أنه يمكنها تقديم طلب لإعفائها من دفع غرامات التأخير. لكنها تعدّت حدودها، واستطاعت أن تثير أعصاب الرجل بنبرتها المتهكمة. فأجابها بلهجة حاسمة:

ـ «في هذه الحالة، أخشى ألاّ نتمكّن من تغيير الأمور يا سيدتي».

وأزعجته كذبته النسبية، لكنه أضاف ليفقدها صوابها كلياً: «إذا أردت، يمكنك أن تتصلي في الغد، سيكون زميلي موجوداً».

في هذا الحديث العادي، يظهر الصراع وراء كل كلمة لفظت،

لمجرد أنه حديث رجل وامرأة.

ماذا كان ليحدث في ذلك الصباح، لو أنّ الموظف الجالس وراء المكتب نفسه امرأة؟

وسيلة تعبير أم وسيلة تواصل؟

يجب أن نتذكر الفروقات بين الجنسين، أينما كنّا، في مركز الضمان الاجتماعي، في البريد، في المصرف، في المطعم، وحتى في القطار. إن لم نتذكرها كلها، فالضرورية منها على الأقل. الكلام للمرأة وسيلة تعبير، في حين أنه وسيلة تواصل بالنسبة إلى الرجل. وحين قالت هذه المرأة عشرين مرة، لم تكن تبالغ، بل صوّرت كم بدا لها الوقت طويلاً. وعندما قالت: «بعض التأخير»، لم تكن تحاول توريط الموظف، بل إعلامه بأنها دفعت في أسرع وقت ممكن.

إذا لم تتطرق مباشرة إلى صلب الموضوع، فلأنها عاجزة عن ذلك: اللغة وسيلتها لإنشاء علاقة ورابط مع الآخر. ولو جرى الحوار نفسه مع امرأة أخرى، لسارت الأمور على ما يرام، لكن محاولتها فشلت لأنها اصطدمت برجل.

فالرجل حين تحدّث عن سجل استحقاق مسبق، لم يكن يحاول أن يثير اضطرابها بكلمات غريبة عجيبة، بل أن يستعمل الكلمات المناسبة.

تستعمل المرأة الكلمات لتعبّر عن انفعالها وعن اضطرابها وتوترها. ولسوء الحظ، يودّ هذا الرجل، صاحب الروح المُصْلِحة، أن يساعدها فيعطيها نصيحة للمرة التالية إن تكرّر التأخير «كان عليك أن تحضّريه» من دون أن يتنبّه إلى أنّ المرأة لا تبحث سوى عمّن يستمع إليها.

لا يتحمّل الرجل اللوم، فكيف له أن يتحمّل الانتقادات؟ ولو لم تباشر المرأة الحديث بهذه اللهجة القاسية، لما ثار ضدها ولأظهر استعداداً أكبر للمهادنة ولمساعدتها.

حصر أو توزيع؟

دماغ الرجل مقسّم إلى أجزاء، ولا يقوم إلاّ بعمل واحد في آن، أي أنه محدود بعض الشيء. أما المرأة فتفتح ملفاتها كلها في الوقت نفسه، لكن من قال إنها مشتتة؟ لو كان الموظف امرأة، لما وجدت صعوبة في الرد على الهاتف، وهي تعمل على الكمبيوتر. وبالتالي، لما اضطرت المرأة الأخرى للاتصال مرات عدة، حتى تفقد صبرها.

الرجل منطقي والمرأة عاطفية. لو كان الموظف امرأة، لتأثرت لقلق واضطراب من تحدّثها وأظهرت بعض التسامح تجاهها. ولقدّمت لها حلاً واقترحت عليها تأجيل دفع غرامة التأخير.

حسناً، لن نعود إلى الفصل الأول من الكتاب، فقد أدركتم الآلية.

إنما، ولننتهي هذه الفقرة ونظهر بعض الإنصاف، نشير إلى أن الوضع كان ليختلف لو أنّ المتحدّثين رجلان. فالرجل ما كان ليتصل ثماني مرات متتالية، بل لانشغل بأمر آخر، بعد محاولة الاتصال الفاشلة الأولى، على أن يتصل لاحقاً. أي لترك للموظف الوقت اللازم لينهي عمله. وعند معاودة الاتصال، لبدأ الرجل حديثه بإعطاء رقمه كمشترك، ليذكر بعد ذلك سبب اتصاله، من دون انفعال أو اضطراب، ولا سيما من دون تهكّم وسخرية. وبما أن كلام الطرفين على المستوى نفسه، أي عملية تبادل للمعلومات، لاقترح عليه الموظف إمكانية تأجيل دفع غرامة التأخير.

ربح أم تعاون؟

الرجل يسعى للربح في حين أن المرأة تسعى للتعاون، وهذا التباين

يظهر جلياً ويأخذ كامل أبعاده في الحقل المهني أكثر منه في الميادين الأخرى. وعندما تحتك روح المنافسة لدى الرجل بروح التعاون لدى المرأة، قد يحصل أيّ شيء، الأسوأ أو الأفضل على حدّ سواء.

يعمل الاثنان على الملف نفسه، على مستوى المبادرة والقرار نفسيهما.

مرّت أول جلسة عمل على ما يرام، أو تقريباً. فعندما راح يشرح كيفية معالجة الموضوع برأيه، قاطعته مرتين أو ثلاث. لم يعجبه تصرفها، لكنه لم يعلّق عليه، إنما لو تكرر الأمر، لوضع النقاط على الحروف.

أما هي، فلم تتنبّه إلى أنّ ما فعلته أزعجه، وجلّ ما حاولت أن تفعله هو أن تظهر له أنها توافقه الرأي. فهذه طريقتها في مشاركته الرأي، وفي أن تقول له: «نحن في الخندق نفسه، سنواجه الأمور معاً»، وطريقتها في تعزيز الروابط فيما بينهما.

كانت الجلسة الثانية بنّاءة، إذ قدّمت تقريراً دقيقاً عن تقدّم عملها. وقدّم لها الاقتراحات مرتين أو ثلاثاً، فوجدتها ذكية وفي محلها، حتى أنها قالت إنها ستأخذها بعين الاعتبار، مما جعله يشعر بالاعتزاز.

في الواقع، لم تكن تنوي الاستفادة من اقتراحاته، لكنها لم تكن لتعترف بذلك أبداً. إذ لا يمكن لها أن تجرحه، فهما يعملان على الملف نفسه.

مقابلة وجهات النظر أم تبادل للآراء؟

قبل اللقاء الثالث، قال لزميله وهما يشربان القهوة: «سنقابل وجهات نظرنا». بعدئذ، وفي مطعم الشركة قالت له: «سنتبادل الآراء»، إذ كان لا بدّ لها أن تضع النقاط على الحروف. فهو يميل

إلى لعب دور المسؤول والمرشد، لهذا ذكّرته، بلطف إنما بحزم، أنهما يعملان معاً وعلى قدم المساواة على هذا المشروع. معاً، إنه يعلم ذلك. لكن، حين سلّمها عدداً من الوثائق، وهو يقول: «هلاّ اهتممت بمسألة تصوير الوثائق» بذلت جهداً جباراً لئلا ترمي الوثائق اللعينة في وجهه.

لكنها، تمالكت نفسها وهدأت، لأنها لن ترضى بإثارة الفوضى في حين أن الأمور تسير على ما يرام.

أما هو، فراح يتساءل بعد أن تركها، عمّا دفعها إلى التكلم بلهجة متكلفة عن «كيفية العمل معاً» على هذا المشروع، نعم نعم حسناً! لمَ أضاعت ربع ساعة من الوقت وهي تعيد وتكرر الموضوع عينه؟ لمَ لا تصل النساء إلى صلب الموضوع مباشرة؟

في اللقاء الرابع، اتصلت لتعلمه أنها ستتأخر لبضع دقائق، اعتذرت عن التأخير مراراً وتكراراً، لكنه لم يستطع كبت انفعاله وانزعاجه. لا بدّ أن لديها غرضاً تشتريه أو اتصالاً تجريه، فالنساء متشابهات لا يمكنهن التركيز على العمل أبداً. وعندما وصلت أخيراً، بعد أن أنهت اجتماعها مع أحد أهم الزبائن وأقنعته بإعادة توقيع عقده مع الشركة للسنة المقبلة، شعر ببعض الذنب لأنه لم يكن منصفاً بحقها. علماً أنها أفكار راودته ولم يعبّر عنها، إنما الإحساس بالخطأ لا يسرّ الإنسان. وترافق شعوره بالذنب مع شعور بالإخفاق والانخداع، فلماذا تم اختيارها هي للقيام بهذا العمل؟ ألا يعتبرونه قادراً على إتمام المهمة، أو ليس كفؤاً بما فيه الكفاية؟

تحفّظ أم تطفّل؟

لا بدّ أنه واجه مشكلة على الغداء، هذا ما فكرت فيه، عندما وصلت مقطوعة الأنفاس. لمَ هذا التجهّم؟ هل استاء لأنه انتظرها؟

لقد انتظرها عشر دقائق فقط، فلا داعي للمبالغة. حين تأخر على اجتماعهما الأخير ربع ساعة لم تعلّق على الموضوع، وهذا طبيعي، فالصبر ميزة. لعل لديه مشاكل عائلية؟ لكنها لن تسأله، بالرغم من رغبتها في ذلك. فعندما حاولت، في إحدى المرات، أن تسأل زميلاً لها عن سبب قلقه، أجابها بأن الأمر لا يعنيها. ما بال الرجال يرفضون أي مساعدة؟ على أي حال، المسألة لا تهمها كما أنها لا تعنيها. إنما... من الصعب ألاّ يهتم المرء بحياة الذين يحيطون به.

في الاجتماع الخامس، وجدت نفسها أمام معضلة، وواجهت مشكلة في ملف. حاولت أن تحدّثه عنها، لتتوضح لها، لكنه ما انفك يقترح عليها الحلول من دون أن يصغي بإمعان إلى ما تقوله. ولم تكن حلوله مناسبة جداً، لأنه لم يتكبد عناء دراسة أوجه المسألة كلها. وللمرة الأولى، أحسّت أنه ليس بالكفاءة التي تصوّرتها أو بالذكاء الذي تخيّلته. وللمرة الأولى، شعرت بأنّ عليها ألاّ تثق به ثقة عمياء.

بعد هذا الاجتماع، خرج محبطاً وخائب الأمل. كانت تواجه مشكلة، فعرضتها عليه بطريقة معقّدة ومشوّشة ربما، إنما تمكّن من حلّ الألغاز والرموز. حاول مراراً أن يساعدها ويقدّم لها الحلول، لكن بدا له أنها لا ترحّب بمحاولاته. وللمرة الأولى، شعر أنها تريد أن تتصرف بمفردها وأن تحلّ أمورها بنفسها. وللمرة الأولى، أحسّ أنها لا تثق فيه فعلياً.

يوم تقديم العمل، كانا جاهزين. حضر حاملاً ملفاته وأوراقه وحضرت هي وقد خزّنت المعلومات في دماغها. تولّى هو الكلام غالباً وأسهب أيضاً، لكن ذلك لم يزعجها، لا سيّما وقد بدا عليه السرور لتوليه إدارة العمليات.

حتى حين قال في نهاية الاجتماع إنه سيحضّر التقرير في أسرع وقت ممكن، ويعممه على الأقسام كلها، لم تُظهر أيّ رد فعل. خطر

في بالها أنه يحاول أن يدّعي بأن العمل عمله، لكنها استبعدت الفكرة على الفور، قائلة في سرّها إنه يحاول تقديم خدماته.

شهرتها أم شهرة زوجها؟

إلا أنها لم تشعر بالرضى، حين تلقت التقرير لتعطي موافقتها عليه قبل تعميمه، إذ جاء ذكرها في المرتبة الثانية من بعده. وخطر لها أنّ عليه ذكرها أولاً، بدافع الشهامة، لكنها استبعدت الفكرة حياءً. الشهامة، يا لها من فكرة! بعد ٣٠ عاماً من النضال من أجل حقوق المرأة، تجد نفسها عاجزة عن كبح هذه الأفكار اللاإرادية السخيفة. حسناً، بدافع الأدب، احتراماً للأصول المهنية ولروح العمل ضمن فريق.

لهذا، اتصلت به وحدّثته بالموضوع مباشرة. حسناً... بعد عشر دقائق من الأحاديث الجانبية التافهة لئلا تواجهه فيحصل صدام بينهما.

لكنه أجاب: «إنها مسألة ترتيب أبجدي».

فردت غير مصدّقة: «ترتيب أبجدي؟».

يعتمد الترتيب الأبجدي لوضع إسمين، أهذا ضروري؟ يا له من نذل، اختار الحجة التي لا يمكنني مناقشتها أو انتقادها. وكما يعلم الجميع، لقد تولّى بنفسه مهمة كتابة التقرير، وإذا ما ورد اسمه أولاً، فسيعتبر الجميع أنني تقبّلت هذه الأولوية. وبالتالي، ستعترف بنظر الجميع بأنه قام بالقسم الأكبر من العمل.

ساد الصمت على الطرف الآخر من الخط. وتصوّرته يستمتع بانتصاره الصغير، بابتسامة ساخرة على شفتيه. وفي الوقت نفسه، راح دماغها يعمل بسرعة القطار السريع، فوجدت الحل.

«إذا ما كانت المسألة مسألة ترتيب أبجدي، فلن أجادل. لكن في هذه الحالة، يأتي اسم زوجي قبل اسمك».

ويسألها: «تزوجت حديثاً؟»

فتجيب بلهجة طبيعية قدر الإمكان: «منذ ست سنوات، لكني قررت الآن استخدام اسمه. لهذا سأورده قبل اسمي، من أجل الأولاد، لا بدّ أنك تفهم وجهة نظري...».

لقد فهمها بالطبع.

يشكّل الرجل والمرأة أحياناً زوجين مثاليين. لكن إلى متى؟

عندما نكتب عن الرجال والنساء، من الصعب ألاّ نأتي على ذكر موضوع الزوج أو الثنائي. إلاّ أنّ الإحصاءات في فرنسا مثلاً، قاطعة: ثنائي من أصل اثنين يطلق.

وفي هذا الإطار، يشكّل اكتشاف الاختلافات والفروقات بين النساء والرجال أمراً أساسياً، لكنه لا يكفي. ربما ينبغي النظر إلى مسائل أخرى في الربع الأخير من القرن الماضي، لنجد لهذا الرقم الغريب أسباباً.

الرقم القياسي للطلاق، أواخر القرن العشرين، في الدول الغربية

السبب الأول هو غياب النماذج القديمة بعد الثورة الاجتماعية التي حدثت في السبعينات في أوروبا. فبغياب أي نموذج، من نتبع وإلى

من نرجع؟ رفض النماذج القديمة التي تكوّنت على امتداد آلاف السنوات، أمر جيد، لكن ما العمل بانتظار وضع نماذج أخرى جديدة؟ نرتجل، لكننا لا ننجح في كل مرة.

السبب الثاني، هو نتيجة لا إرادية وسلبية لظهور المجتمع الاستهلاكي: فكل ما لا يعمل جيداً، نرميه بدلاً من بذل أيّ جهد لإصلاحه. وينطبق ذلك على الزواج أيضاً.

السبب الثالث، هو البحث عن شخص خالٍ من العيوب. اخترعت الشركات في الثمانينات هذا المفهوم الذكي؛ وهدفه إنتاج سلعة أو خدمة لا عيب فيها. وشكّل هذا المفهوم الشغل الشاغل لأناس عدة، كانوا ليواجهوا متاعب كثيرة من دونه. وهو محاولة لتنظيم عمل كل قسم تنظيماً دقيقاً، بغية تقديم أفضل خدمة للزبون. مع الإشارة إلى أنّ هذا المفهوم لا يزال سارياً في بعض الشركات.

لكن ما لم تحسب هذه الشركات حسابه هو أنّ هذا المفهوم سيتجذّر في فكر الأشخاص، فيتخذه الأزواج معياراً لهم. لهذا، لم يعد أحد يرضى بشريك يجمع تقريباً كل الميّزات المطلوبة. وهل من شيء تقريبي، أكثر من حياة زوجين بعد مرور سنوات عدّة على زواجهما.

معرض الطفولة، العام ١٩٥٧

في الماضي، ومنذ زمن بعيد، حين كان الصبي الصغير يتساءل عن كيفية التصرّف في الحياة، كان يلتفت إلى المثال الموجود في حياته: أبيه. وينطبق الأمر نفسه على الفتاة الصغيرة، التي تتمثّل بأمها.

لكن السبعينات غيّرت المعايير كلها، فهذه الثورة رمت بالنماذج إلى النار.

لنأخذ نهاية الخمسينات مثلاً، وهي الفترة التي سبقت الانقلاب الكبير.

لم يعد الرجل يخرج للصيد، بل أصبح يتوجّه إلى المكتب أو إلى المصنع. باختصار، إلى عمله. ولم يعد يحمل الطعام عند عودته، بل المال لشراء الغذاء، والمال ضروري بوجود عائلة كبيرة. فالرجل يعرف أنّ لديه أطفالاً، لأن عليه أن يعرف عدد الأفواه التي عليه إطعامها، ولأنه من يسجّلهم في الدوائر الرسمية.

وإلاّ، لتناسى وجودهم، باستثناء حين تقول له الأم: «عزيزي، عليك أن تردع الأولاد قليلاً لأني لم أعد قادرة على ضبطهم». عندها، يضع جريدته جانباً، ويستخدم صوته الجهوري ليقول لهم إنّ ذلك يكفي وإن عليهم أن يتعقّلوا، وإلاّ...

معرض الفنون المنزلية، العام ١٩٦١

ومن ثم يلهو الأولاد في الخارج حتى موعد الوجبة التالية، حيث يرون والدهم من دون أن يحقّ لهم التحدث إليه. فالكلام أثناء تناول الطعام ممنوع، كما لا يجوز للأولاد التحدّث إلى شخص راشد ما لم يوجّه إليهم الحديث أولاً.

ولم يكن الأباء يعرفون أعمار أولادهم بدقة، كما يجهلون أيام أعياد ميلادهم. فهذا من شأن الأم، لأنها من يهتم بالأولاد.

ولم تعد النساء في كهوفهن، بل في منازلهن، حيث يرعين أولادهن، لأن هذا من واجباتهن. وتقوم المرأة بذلك، وهي تحضّر الطعام وتتحدّث عبر الهاتف مع صديقاتها اللواتي يعشن على النمط نفسه. وكانت شركات الآلات الكهربائية قد حررتهن منذ فترة وجيزة، فبدت الحياة رائعة في أعينهن.

القطاف؟ لا بل التسوّق، وحيدات أو مع أولادهن كما في الأوقات الغابرة. في المتجر القريب أو في المراكز التجارية الضخمة التي تضم متاجر متنوعة.

معرض السيارات، العام ١٩٦٥

كانت النساء يقرأن المجلات النسائية بهدف التسلية، إذ تعطيهن هذه المجلات بعض الوصفات وبعض الأفكار أحياناً. آه، هذا الممثل، لم يعد شاباً أبداً، كما أنه يعرج... لكن يا لوسامته! لا، ليس وسيماً، إنما... حسناً، أنتم تفهمون ما نعنيه، ما من داعٍ للتفسير أكثر. لكن النساء يطردن هذه الفكرة سريعاً من رؤوسهن.
فالصيّاد لن يرضى بذلك ولن يعجبه الأمر... وإن كان لا يمتنع من حين إلى الآخر، عن... حسناً، هذا الأمر لا يعنيهن. فقد قالت لهن أمهاتهن إنّ الرجال لا يفكرون إلاّ في ذلك. لهذا، نجد صعوبة في ضبطهم والاحتفاظ بهم، إلاّ عن طريق بطونهم، أيّ عبر تحضير أطباق لذيذة وشهية.

عندما يعود الرجل إلى منزله مساءً، يصمت الأولاد وتروي له المرأة همومها اليومية، فيستمع إليها من دون تركيز، لأنه يخطط لإصلاح سيارته المعطّلة. علماً أنّ المشاكل بدأت منذ أعار سيارته لزوجته. آه من النساء حين يقدن السيارات...

أما الأولاد الذين يحضرون هذا المشهد، فيراقبونه جيداً ليعرفوا كيف عليهم أن يتصرفوا عندما يكبرون. وهم يتدربون يومياً على ذلك حين يلعبون لعبة الأم والأب (بيت بيوت).

الثورة الثقافية في فرنسا، العام ١٩٦٨

ها نحن في العام ١٩٦٨. كم يمرّ الوقت بسرعة، فقد وصلنا إلى

شهر أيار تحديداً.

بدأت المظاهرات الطلابية الأولى، وأعلنت الجامعات الإضراب، فتبعتها المصانع، وبدأت الفوضى والخلل في الإدارة.

صور جديدة تمحو أخرى. في بداية السبعينات، بما أننا دمرنا كل شيء، لم يبق أمامنا إلاّ أن نعيد البناء. لقد مزّقنا النماذج القديمة، بحثاً عن الجديد، عن شيء آخر، لكن ما هو؟... ومن أين نبدأ؟

قالت النساء في سرّهن، بما أنّ الرجال سعداء بكونهم رجالاً، فالأمر يستحق عناء التجربة. ماذا لو قلنا إننا نحن أيضاً رجال؟ فأجاب الرجال بالموافقة. تجدر الإشارة إلى أنهم كانوا مستعدين لتقديم الكثير من التنازلات، في الظاهر على الأقل، لتتركهم النساء بسلام. وفكّر الرجال، بنظرتهم المنطقية للأمور، ونظراً للظروف الراهنة، في أنّ هناك أماكن شاغرة. ففكروا في إنشاء وكالة لتدريب الآباء على حضانة الأولاد، وتعلّموا أن يبدّلوا الحفاضات لأطفالهم، وأن يقوموا ببعض الأعمال المنزلية. في حين تعلمت النساء الصبر، في مقاعد جلدية، أثناء اجتماعات تدوم ساعات وساعات.

تمّ تبادل الأدوار، وهذا حسن. وسارت الأمور على ما يرام نسبياً، لكنها شهدت تقدّماً على الأقل.

إنما ماذا بعد؟ ماذا عن المستقبل؟ والمستقبل هو الوقت الراهن.

فوضى عامة، العام ٢٠٠١

هل سيشكّل هذا الجيل مثالاً صالحاً لأولاده؟ ليس كثيراً، على ما يبدو. فقد عمدت صحافية من مجلة ماري فرانس الفرنسية إلى سؤال المراهقين عن رأيهم بالثنائي الذي يشكّله آباؤهم وأمهاتهم، وجاءت النتيجة سيئة، ورسب الجميع في الامتحان تقريباً. فالأزواج الذين

يحافظون على زواجهم، يتهمهم أولادهم بالبقاء معاً لأسباب غير مبررة. أما المطلّقون، فيظن أولادهم أنهم انفصلوا لأسباب غير منطقية وغير مبررة. والنتيجة، أنهم سيتصرّفون بشكل مختلف. كيف؟ سيقررون لاحقاً. لكن، ما هو مؤكد أنهم لا يريدون تكرار أخطاء أهلهم. ومن يسمعهم يظن أنه يسمع أهلهم في مثل سنّهم.

النماذج والأمثلة مزعجة، إذ تضطركم إلى النظر إلى حيث تطأ أقدامكم لتمشوا على خطى أولئك الذين سبقوكم. لكن هذا الأمر مريح أيضاً!.

مجتمع استهلاكي، أواخر الستينات

لم يتحفنا هذا القرن بأفكار جديدة وحسب، بل قدّم لنا المجتمع الاستهلاكي أيضاً. ومع بداية هذا المجتمع، انتهى عهد الجوارب التي ترتق، والملابس التي تتحول من سروال إلى تنورة والكنزة التي تحاك مرّات ومرّات، وعهد جلدة طنجرة الضغط التي تغيّر، ومجفف الشعر الذي نصلّحه. وبدأ عهد نرمي فيه كل ما لا يعمل جيداً من دون أن نصلحه. وطبّق هذا المبدأ في كافة الميادين، حتى على الزواج.

في الواقع، لنصل إلى هذه النسبة من حالات الطلاق (في المجتمعات الغربية)، لا بدّ أننا، في لحظة ما، لم نتكبّد عناء المحاولة، وفقدنا الثقة ببعضنا البعض.

فمراهقو السبعينات، في طريقهم إلى الحياة المشتركة، لم يتوقعوا الجحيم الذي ينتظرهم، حين وعدوا بعضهم البعض باعتماد الصراحة والصراحة التامة.

وبما أنهم حاولوا تغيير قواعد الحياة، استحال عليهم ألاّ يغيّروا أيضاً قواعد الحب. لكن، هل إلى هذا الحد ينبغي أن تُغيّر!

قواعد جديدة للحياة الزوجية، أواسط السبعينات

أن نعتمد الصراحة، يعني إهمال الشروط الأولية للحب الذي يتطلّب بعض الغموض. فمن يمكنه أن يسمع، بدون أن يجيب أو أن يتألم، شريك حياته يقول له: «منذ مدة لم أعد أتأثر حين أراك. وأنا أتساءل عمّا إذا كنت أحبك اليوم كما أحببتك في الماضي...»، أو أن تقول له زوجته: «أتعلم، هناك شخص في المكتب يرمقني بنظرات غريبة طوال الوقت. كما دعاني لشرب القهوة معه، فوافقت. لكنه دعاني اليوم لتناول العشاء، فما رأيك؟ هل أقبل دعوته؟».

أن نقول كل ما لدينا يعني أن نضطر لإيجاد ما نقوله. وبالتالي، القيام بما يستحق ذكره. وفي هيجان هذه الحقبة الجديدة يجب أن نعترف أن البعض يخطو هذه الخطوة ليلتزم بالنموذج السائد، لينفّذ الأوامر والتعليمات أو الموضة، من دون أن يبذل أيّ جهد.

أما الأزواج الملتزمون بالتعاليم الدينية فيقلّدون النماذج التقليدية القديمة من دون أن يطرحوا على أنفسهم الكثير من الأسئلة.

الهدف هو الخلو من أيّ عيب، بداية الثمانينات

في هذه الفترة، ظهر مفهوم جديد في الشركات الفرنسية ألاَ وهو البحث عن الكمال. وشُكّلت فرق كاملة بغية البحث عن أيّ عيب في تنظيم الشركات الداخلي وفي الخدمة التي تقدّمها للزبون. بالطبع، لم يتم التوصّل إلى هذا الكمال يوماً، لكن الهدف كان لائقاً وملائماً، فلا عجب إن انتقل إلى الحياة الخاصة.

وفي حين أنّ آباء وأمهات هذا الجيل، الذين انطلقوا في زواجهم من فكرة مشاركة الحياة حتى الممات، يحاولون التأقلم مع عيوب بعضهم البعض، لم يعد أبناؤهم يخشون القطيعة والفراق، فتراهم يهاجمون كل ما لا يناسبهم.

متطلّبات ثنائي التسعينات

تريد المرأة من الرجل أن يكون أفضل الآباء والأزواج والعشاق والأصدقاء. ويريد الرجل من المرأة الأمر نفسه: زوجة وأم وعشيقة وصديقة. أهذا أمر مشروع؟ نعم. إذاً لمَ لا نطلبه من الآخر؟ ربما لأننا غير قادرين على تقديمه للآخر، مما يثبت أنّ الأمر ليس سهلاً.

وبالرغم من أنه ليس ممنوعاً أن يطلب الواحد من الآخر، إلاّ أنّ ما من شيء يضمن لنا إمكانية العثور على ما نطلبه. كم من رجل طلّق زوجته، ليعود ويتزوج أخرى مثلها تماماً وليست أكثر شباباً منها. كم من امرأة هجرت زوجها، لتعود وتتزوج نسخة طبق الأصل عنه، وليس بالضرورة شخصاً ألطف منه. هناك قاعدة غير مكتوبة تنصّ على أننا نرتكب الأخطاء نفسها، ونقع دوماً على النوعية نفسها من الأشخاص. فلمَ نفترق، إذا ما كنّا سنجد أنفسنا، بعد وقت ليس بالطويل، في الوضع نفسه إنما مع شخص آخر لا يختلف كثيراً عن الذي سبقه؟

إلاّ إذا قررنا أن نعيش وحيدين؟ وهنا، لا يمكننا أن نعلّق! هكذا ينتهي النقاش. لكننا سنعود ونعلّق على المسألة، ما إن تظهر فرصة ما في الأفق، حتى وإن لم تكن استثنائية.

ولعلّنا ننفصل عن الشريك الأول ونعود لنرتبط بآخر مثله تماماً حنيناً إلى «أحاسيس المراحل الأولى من الحياة المشتركة». لكن هل تصمد هذه الحجة أمام هذه الإحصائية المؤكدة: تزيد نسبة الطلاق في الزواج الثاني أكثر منها في الزواج الأول (+١٠٪ كمعدل وسطي في فرنسا). لكن ما من إحصاءات مماثلة للزواج الثالث أو الرابع أو الخامس. . .

وتجدر الإشارة إلى أننا نعيش أربع سنوات إضافية كمعدل وسطي،

إذا ما عشنا زواجاً ناجحاً، وأنّ معدل الإصابة بأمراض القلب والشرايين والسرطان أقل في الزواج الناجح. صحيح أنها إحصاءات وحسب، لكنها كل ما لدينا.

استراتيجية مصالحة، بداية الألفية الثالثة

لا بد أن الكثيرين يتساءلون بديهياً عما إذا كانت النتيجة تستحق عناء محاولة إطالة عمر الزواج.

إلى الفصل التالي!

الرجل والمرأة يتصالحان... أخيراً!

لم يجد كل المراقبين الذين انكبّوا على دراسة طباع الرجل والمرأة، والاختلافات التي تميّزهما، مفرّاً من طرح السؤال القائل: لماذا إذاً يعيشان معاً تحت سقف واحد؟ لماذا لا يتجنب واحدهما الآخر حقناً للخلافات، وتجنباً للخيبات والكبت؟ لماذا لا يؤسس كل من جانبه، الرجال مع الرجال والنساء مع النساء، مجتمعاً لا مكان فيه لغير أبناء الجنس الواحد، يعيش أفراده في جو من التقدير والوئام والتفاهم؟

هكذا تعمل النساء مع النساء والرجال مع الرجال. . . وتخرج النساء مع النساء والرجال مع الرجال. . . وتلهو النساء مع النساء والرجال مع الرجال. . . وتعيش النساء مع النساء والرجال مع الرجال. . . ونميل إلى الإجابة عن هذه الأسئلة بقولنا إن الرجل والمرأة مهما كثرت اختلافاتهما، لا يستطيع أحدهما في الواقع أن يتخلى عن الآخر، لا في المكتب ولا في العائلة ولا بين الأصدقاء. وحجتهما الدامغة هي أنهما يتكاملان. وهذا التكامل لا يمكن أن تحلّ مكانه أي صيغة أخرى.

ونميل إلى الاعتقاد بأن هذه الفروقات بينهما هي بالذات ما يشدهما إلى بعضهما البعض بشكل لا يُقاوم...

في الواقع، يتّضح مرة أخرى أن الحقيقة أقل مدعاة للنشوة!

شاء الرجال والنساء أم أبوا، ما وجودهم على هذه المسكونة إلا لضمان استمرارية الجنس البشري. فما دمنا مجبرين جميعاً على التعايش، لما لا نبحث معاً عن وسائل العيش بسلام، لا بل عن طرق ليقدّر واحدنا الآخر؟ وأرجو منكم ألا تسخروا من كلامي هذا.

ما قلته لا يعني أبداً أن علينا الغوص في علاقة طويلة أو ناجحة مع كل ممثّلي الجنس الآخر الذين نلتقيهم في طريقنا.

تلك هي الفكرة التي دفعتني في الفصل الأخير من هذا الكتاب، إلى الكلام في بضعة حلول وحيل ونصائح يمكنها أن تجعل من علاقاتنا جنة أرضية، سواء لم يجمع بين الرجل والمرأة المعنيين سوى المكتب أم جمعتهما حياة مشتركة عليهما أن يقضياها معاً.

بضع حيل للحياة اليومية

في مكتب البريد، أو المصرف، في الدوائر الحكومية، أو المطعم، ثمة شخص يحتاج دائماً لخدمة وآخر بإمكانه أن يسديه تلك الخدمة، كأن يعطيه طابعاً بريدياً، أو يفتح له حساباً مصرفياً، أو يطلعه على معدل الفائدة، أو يقدم له قطعة لحم مشوية مع البطاطا المقلية. هذا المشهد يتكرّر في متجر السمانة والسوبرماركت والمصبغة وفي سائر الأماكن التي يقصدها الناس يومياً. أين يكمن الخلاف إذاً؟.

المشكلة هي في الطريقة التي تطلب بها الخدمة، وفي القدرة على الإصغاء.

على المرأة أن تبذل بعض الجهد

في هذه المواقف اليومية، تعلّمي سيدتي، أن تطلبي لمرة واحدة ونهائية ما تريدينه بكلام دقيق ومباشر. وأنت سيدي ابذل جهداً لتصغي إلى ما تريده المرأة التي أمامك. هكذا يتم تخطي نصف الخلافات، لأنها تسقط تلقائياً.

ادخلي سيدتي صلب الموضوع مباشرة. واذهبي إلى الهدف بدون لفّ أو دوران. ولا تخشي أن تطلبي وأن تتلقّي. إذا أحسست بالبرد في إحدى وسائل المواصلات، فتفادي المواقف المعقّدة. اطلبي من الجالس معك حتى وإن كنت لا تعرفينه، وكان هو يجهل أنك من

النوع الذي يشعر بالبرد. ببساطة، اطلبي منه أن يرفع درجة الحرارة في جهاز التدفئة. ربما تتساءلين عمّا عساك تفعلين لو أنه يشعر بالحرّ. لا تجزعي: إذا أحس هو بالاختناق حرّاً، فلن يتردد لحظة قبل أن يعلمك بأنه سيخفض حرارة التدفئة.

وعندما تتصلين بإدارة شركة ما، تعلّمي تحضير الأوراق الضرورية والمعلومات الخاصة بك والأرقام التي يمكن الاتصال بك عليها. أي باختصار شديد، أعدّي كل ما يلزم لعدم إضاعة وقتك ووقت الآخرين.

على الرجل أيضاً أن يبذل بعض الجهد

وأنت أيها الرجل، اسمع واسكت. كفّ عن الاعتقاد بأن الإصغاء لثلاث دقائق من دون إبداء الرأي، تصرف لا يليق بك. الرجال يميلون عادة إلى الظن بأن الكلام هدفه تقديم المعلومات، وبالتالي يصبح الهدف من الإصغاء هو تلقي المعلومات. أي التسليم بأن معلومات الآخر أكثر وفرة من معلوماتهم.

انسى أيها الرجل كل هذا، فالإصغاء يعني الاهتمام بالآخر وبرغباته.

وفي سائر المواقف الأخرى، حاولوا، نساء ورجالاً، أن تذكروا دوماً الاختلافات الجوهرية بين الرجل والمرأة، فهذا كفيل بالقضاء على النزاعات في مهدها.

إذا كنت سيدتي في مكتب البريد، ورأيت المسؤول عن الطرود يمضي أكثر من ثلاث دقائق ونصف الدقيقة في محاولة للصق طابعين بريديين على ورقة أمامه، فعوض أن تعتقدي بأنه يفعل ذلك لإثارة أعصابك، قولي في نفسك إنه نموذج عن أبناء جنسه. إنه غير قادر

على القيام بأعمال عديدة في وقت واحد. إذا قلت في نفسك وأنت تبتسمين: «تلك هي نتيجة الدماغ المقسّم المنظّم...»، فمن المؤكد أنك ستتخلصين في الحال من عدائيتك التي ستتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مزاج مرح.

أما إذا كانت الموظفة امرأة وأنت سيدي تنتظر إنهاء معاملات البريد التي تنجزها لك، لا تقل في نفسك إنك لن ترى رسالتك في طريقها إلى المرسل إليه، إذا رأيت تلك الموظّفة تجيب زميلتها التي تسأل بصوت عال عن أسعار الطرود المرسلة إلى جزيرة غوادلوب، وفي الوقت عينه تزن رسالة الزبون الذي وصل قبلك وتردّ على الهاتف قائلة إن المكاتب تقفل أبوابها في الساعة السادسة! اطمئن وتذكر أن المرأة تستطيع أن تنجز أعمالاً كثيرة في آن واحد. وراقب بإعجاب مهارتها المنقطعة النظير.

هذه النصيحة تناسب الجنسين، فتدبّروا أمركم بأنفسكم.

نصائح للمكتب

لن نكرّر قصة إبريق الزيت، لكن في المكتب أيضاً، اطلبي سيدتي ما تريدينه بوضوح، وأنت سيدي أصغِ لما تقوله زميلتك، فعلّ ذلك يحسّن علاقتكما.

«فرغت آلة تصوير المستندات من الورق»... هذه العبارة جميلة وصحيحة لغوياً، لكن إن أردت سيدتي أن تطلبي منه وضع الورق في الآلة، فلا شيء يضاهي العبارة التالية: «من فضلك، أيمكنك أن تضع أوراقاً في آلة التصوير؟».

ومن المفيد لك سيدي أن تتخلّى عن ميلك إلى «تقديم الخدمة بعد البيع». فعندما يكلّمك أحد، لا يعني ذلك أنه يتوقع منك إصلاح العالم، أو الشركة التي تعمل فيها أو المكتب الذي يضمّك وموظفين آخرين. إنه يريد أن يقول لك أمراً أو أن لديه خبراً أو معلومة يريد أن يشاركك بها، بخاصة إذا كان هذا الشخص هو المرأة الجالسة قبالتك.

الزائد مقابل الناقص

إنها معادلة خاصة بالعلاقات المهنية.

كل ما قلناه حتى الآن صحيح وناجح، مع زيادة بسيطة أو نقصان طفيف.

أما الزيادة فهي أن نتخلص من النواحي العاطفية في العلاقات المهنية، في ما خلا بعض الحالات المعقدة، كأن يعمل الزوجان في شركة واحدة، فيتطارحان الغرام في الليل ويعملان معاً في النهار. في العمل يظل الرجل والمرأة شخصين مختلفين، إلا أن لا أحد منهما يتوقّع أن يشبع الآخر رغباته أو يلبي له حاجاته. ثمة توقعات قليلة، يحددها بدقة عقد العمل وهي بالتالي شرعية تماماً.

أما النقصان الطفيف، فهو أن مكان العمل يشكل أحد ميدانين اثنين، يستطيع فيهما الرجال إظهار روح المنافسة التي يتحلون بها وجنون الانتصار والتفوق الذي يسكنهم. أما الميدان الثاني فهو الملاعب الرياضية. وفي العمل تظهر ميّزات الرجل بأشكال أخرى.

ما ينبغي التذكير به، ربما يكون شاعرياً بعض الشيء، إلا أنه ضروري: يكون الرجل في المنزل شخصاً لطيفاً إذا كانت الأمور تسير على ما يرام في عمله. أما المرأة فتكون فعّالة في عملها إذا كانت الأمور في المنزل تسير على ما يرام.

ربما تبدو لكم هذه المقولة بدائية، إلا أنها ضرورية لفهم تصرفات الأشخاص المحيطين بنا، أو على الأقل، الحصول على بعض المعلومات المتعلقة بهذه التصرفات.

العمل مقابل الحياة العائلية

تأتي بعض الدراسات التي أُجريت في الولايات المتحدة الأميركية وأستراليا وفرنسا وإيطاليا، لتؤكد مجتمعة على صحة بعض النتائج البارزة في هذا البحث.

عندما سُئِل الرجال والنساء الخاضعون للاستفتاء عن الأولويات الثلاث الأهم في الحياة، أجابوا على النحو التالي:

أكّد ٩٩٪ من الرجال أن الحياة الجنسية النشيطة تحتل المرتبة الأولى. وأعلن ٨٧٪ منهم أن الحياة المهنية تحتل المرتبة الثانية وهي الأهم بعد الحياة الجنسية بنظرهم.

وعلى خطٍ متوازٍ، ٥٪ فقط من النساء ذكرن العمل كأولوية في حياتهن.

وفي دراسة أخرى ظهر أن ٦ نساء من ١٠ تتراوح أعمارهن ما بين ٣٠ و٣٩ سنة، و٣ نساء من ١٠ تتراوح أعمارهن ما بين ١٨ و٢٩ سنة، ذكرن أن أهم أولوية في حياتهن هي الأمومة. وقد أكد ٨٠٪ منهن، على اختلاف أعمارهن، أن تعليم أولادهن هو الضرورة الأولى والمطلقة في حياتهن.

وأشارت نتيجة دراسة أخرى إلى أن ٩٣٪ من النساء اللواتي سُئلن عن الموضوع رفضن الاعتماد المادي على أزواجهن. من المؤكد أن عدداً كبيراً من النساء يعمل حباً بمهنتهن، أو لأن مهنتهن تعطيهن حافزاً جيداً في الحياة. إلا أن معظمهن يؤكد أنهن يعملن لأجل كسب المال، ونسبتهن تصل إلى ٧٧٪.

وختاماً نذكر ما جاء في هذه الدراسات، حتى لو لم يكن هذا المقال لهذا المقام: ١٪ فقط من النساء يعتبرن الحياة الجنسية أولوية.

التخصّص مقابل تعدّد الكفاءات

بعد ما قيل كله، يمكننا أن نستعرض كل الفروقات بين الرجل والمرأة، محاولين إدراك مدى تأثيرها على تصرفات الجنسين في العمل والارتباك الذي يمكن أن تتسبب به. حتى أن بإمكانها أن تحملهما على الشعور بالعدائية الواحد حيال الآخر. ويكفي أن نعلم كيفية التنبّه لهذه الفروقات، حتى نقضي على الخلافات المحتملة، ونعيش معاً في سلام.

يشكّل دماغ الرجل المقسّم المنظّم وقدرة المرأة على القيام بمهام متعددة في وقت واحد، شركاً للجنسين إذا وقعا فيه دبّت الخلافات بينهما.

إذا لم يتوقف الرجل عن إتمام ما يفعل لكي يجيب عن سؤال ملحّ طرحته عليه زميلة له، فهو لا يتجاهلها بدافع اللامبالاة ولا الازدراء ولا السفالة. إنما حجته الحاجة الفطرية التي لا يمكنه السيطرة عليها، لإنجاز العمل الذي يقوم به قبل الانتقال إلى عمل آخر.

والتبرير نفسه يسري، إذا دخلتِ سيدتي مكتب رجل يعمل، وطلبت منه أن يسديك خدمة ملحّة، فيشير لك برأسه موافقاً، ثم يختفي طيلة النهار فلا ترينه ولا ترين الخدمة منجزة. لكن لا تظني أنه لا يقدّر المسؤولية، فلا بد أنه كان منشغلاً منصرفاً إلى ما يفعله فلم يسمعك حين تكلمت وإنما الإشارة برأسه مجرد تحية، أو أن دماغه تخلّص من طلبك تلقائياً لأنه يشوّش عملية التفكير الجارية فيه.

أما النساء فمن الأفضل أن يعلم زملاؤهن أنهن يملن بطبيعتهن إلى القيام بعدّة مهام في وقت واحد. وما لم يفهم الرجل طبيعة المرأة هذه، فقد يتهمها بأنها مشتتة الذهن. وقد يعتبرها طامعة في الاستئثار بالإعجاب لنفسها، لذلك ترفض توزيع المهام على العاملين معها، وتسعى إلى التميّز عبر التطوع للقيام بعدّة مهام في آن معاً. وفي الإطار عينه، لا داعي سيدي للشعور بأن زميلتك تتهجّم عليك إذا تذكّرت بدون تردد أو جهد ظاهر، إسم مساعدي أحد الزبائن المهمين أو مهل التسليم الدقيقة للأشهر الخمسة المقبلة. فهي لم تسهر طوال الليل للتوصل إلى هذه البراعة، قاصدة إثبات عدم كفاءتك. لقد اكتفت بالإصغاء فحسب، وخزّنت المعلومات التي سمعتها.

التصلب مقابل التكيّف

الرجال يطبّقون ما يعرفونه، والنساء يسعين للأفضل. إنها قاعدة غريبة ينبغي على الرجال والنساء أن يعرفوها كي يتمكنوا من إحباط المشاكل المتأتية عن جهلها. فمتى اكتشفوا الطريقة التي تؤثر بها هذه القاعدة على التصرفات والسلوك يمكنهم أن يقاوموا ميولهم الخاصة بسهولة، وأن يبدوا تسامحاً أكبر حيال ميول الآخرين.

ولا تطبّق هذه القاعدة في إطار البحث عن الطريقة الفضلى لدراسة ملف ما وإنجازه، إنما تبقى سارية المفعول في السلوك الذي يعتمده الرجل والمرأة أثناء تناول الغداء ساعة الظهر في مطعم الشركة أو المطعم القريب. وتؤثر أيضاً على اختيار أزيائهما. إذ يبدو أن ثمة حالات شهيرة تروى عن بعض رؤساء الشركات أنهم يشترون عدّة قمصان وبزّات وربطات عنق من الطراز نفسه واللون نفسه. ويكفي أن تحذو النساء حذوهم حتى يجد السؤال الذي يطرحنه يومياً وهن واقفات أمام خزانة ملابسهن، الجواب الأفضل على الإطلاق، حتى من دون طرح السؤال على أنفسهن.

إن هذا الثبات في الخيارات، الذي يسميه الرجال مثابرة، والذي تميل بعض النساء إلى اعتباره عناداً، يمكن أن يودي بأهم أرباب العمل إلى الإفلاس الكامل. ألم نسمع كلنا العبارة القائلة: «لا أحد يغير رهانه على حصان رابح؟». وغالباً ما تسأل امرأة عند سماع هذه الجملة، بلهجة بريئة كاذبة «ولم لا؟». ولا تجد من يجيب عن سؤالها.

العناد مقابل التهوّر

والأمر سيّان بالنسبة إلى العبارة التي لا بد أن يلفظها الرجل في

وقت أو في آخر: «الناس يفعلون هذا منذ وقت طويل، وأنا لست على استعداد لتغيير الحال الآن». ويذهب بعضهم حتى إلى تبرير موقفه قائلاً: «ألا تعتقدين أن التحسينات التي تقترحين عليّ دراستها، قد مرّت في بالي؟». والمتكلم هنا هو رئيس شركة يتحدث إلى المرأة التي وظفها مؤخراً.

ويتابع قائلاً: «كان أمامنا ٢٠ سنة لتنفيذ هذه المقترحات». وتجيبه: «لكن لعل الظروف لم تكن ملائمة عندئذ...» فيقاطعها: «اسمعيني، لقد قررنا تناسي هذه المقترحات بعد دراستها دراسة فعلية. وأنا اليوم، حين أطلعك على هذا، أوفر عليك إضاعة الوقت والكثير من التفكير والتردّد والعديد من خيبات الأمل». وتسأله مستغربة: «وهل استخدمتني لهذا الغرض؟» ولا يجيبها الرجل عن سؤالها. وها هو يفتح مفكّرته. وبما أن الرجل لا يقوم إلا بعمل واحد في وقت واحد، فمن الضروري أن تنهي جليسته المقابلة حالاً.

الانفتاح مقابل الانغلاق

الرجل ينغلق على ذاته بينما تنفتح المرأة على الآخرين، وتظهر هاتان الميزتان في الإطار المهني أيضاً طبعاً. وانطلاقاً من هذا المبدأ، تحتاج المرأة إلى الحوار والحديث لأجل إحراز التقدم، بينما يحتاج الرجل إلى عزلة للتفكير. ولا يندر أبداً أن نرى أبواب مكاتب الرجال موصدة بينما تُشرّع النساء أبواب مكاتبهن ولا يغلقنها إلا للاتصال بالمنزل للتأكد من أن الولد الكبير عاد إلى المنزل والصغير أكل جيداً. وتقف هاتان الميزتان أيضاً وراء ميل النساء إلى البوح بأسرارهنّ وأخبارهن لبعضهن البعض، بينما يفضّل الرجال الصمت والتكتم.

وتتجلّى هذه الظاهرة في أوضح معانيها، عندما يضمّ اجتماع ما أشخاصاً من الجنس نفسه. فعجباً لكمية الأخبار التي تتناقلها النساء

في ما بينهن إذا كن يعملن معاً، حتى يكاد الأمر يتحول إلى استطراد. والمستغرب أنهن في خضمّ هذه المعمعة يجدن الحل للمشكلة التي كنّ يتناقشن فيها.

فهن يبتعدن كثيراً عن الموضوع حتى يصبح المطروح موضوعاً معاكساً تماماً للمشكلة الأساسية.

وإذا كنت سيدي الرجل الوحيد في اجتماع كهذا، فلا تجزع، بل تمالك أعصابك... أنت رجل ونستطيع الاعتماد عليك للسيطرة على انفعالاتك. نعم، هذه ليست الطريقة التي تعمل بها، ولكن لا بأس، ربما تنجح طريقة النساء هذه في معالجة المسائل.

أما في الاجتماعات التي لا تضمّ سوى رجالٍ، فيحدث العكس تماماً. المواضيع تناقش بحسب جدول الأعمال اليومي. وعندما يستنفدون الكلام في موضوع ينتقلون إلى التالي. ويتكلم كل رجل بدوره، وإذا ما قاطع أحدهم زميلاً له، لا يفعل ذلك بغية إغناء حديث الآخر، بل لإثبات صحة وجهة نظره الخاصة. هذا أمر طبيعي. فهذا هو السلوك الذي يعتمده الرجل لإثبات وجوده وإظهار أهمية ما لديه من معلومات. لهذا، إذا كنت سيدتي تحضرين اجتماعاً للرجال فاهدئي. نعلم أنه من الصعب جداً أن تكبحي انفعالاتك، لكن ابذلي مجهوداً لخدمة القضية الحقة: وهي الحفاظ على تناغم العلاقات بين الجنسين، تحلّي الصبر والتفهّم.

أنت تحتاجين الصبر والتسامح إذا كنت تنتظرين صدور قرار في نهاية النقاش. فعبثاً تتوقعين من الرجل اتخاذ قرار حاسم ونهائي، إذا لم يكن واثقاً بنفسه وبخياراته وآرائه. إنه يؤجّل وينتقل إلى الموضوع التالي من دون أن يلاحظ الآخرون ذلك. أو يدّعي أنه تلقى اتصالاً هاتفياً هاماً ينبغي أن يرد عليه. أي أنه يهرب بكل بساطة، في حين أن المرأة لو كانت في الوضع نفسه، لانطلقت واثقة بحدسها.

الكلام مقابل تولّي الكلام

المرأة تحب الكلام وتتقنه ولا تكفّ عنه؛ هذا ما ناقشناه بوضوح في كتابنا هذا. لكنها لا تطلق العنان لملكتها هذه، في محيطها المهني. وربما تكون هذه النقطة هي الاستثناء الوحيد لما راقبناه ولاحظناه من اختلافات بين الجنسين، في إطار الحياة اليومية والمهنية. ولا بد لنا من الإشارة إليها، بخاصة لأنها تنطبق على كافة المناسبات التي يضطر فيها الرجل أو المرأة إلى الكلام علناً أمام الناس.

وصل الأمر ببعض الأشخاص إلى حد تفسير ذلك، من الناحية العلمية البحتة:

فبعد مراقبة طويلة لاجتماعات تحصل في إحدى الجامعات، استنتج باحثون أميركيون، أن مداخلات المدرّسات تتراوح ما بين ٣ و١٠ ثوان تقريباً، بينما تتراوح مداخلات المدرّسين ما بين ١٠ و١٧ ثانية تقريباً. وأثبتت دراسة سابقة أنه حين يفتح باب الأسئلة للحضور في نهاية محاضرة ما، يتطلب سؤال المرأة ٢٣ ثانية كمعدل وسطي، في حين أن أسئلة الرجال تتطلب ٥٣ ثانية. ووصل الأمر بإحدى المتخصّصات بالألسنية إلى إعطاء أهمية للتمييز بين طبيعة الحديث الأنثوي والحديث الذكوري.

الكلام الموضوعي مقابل الكلام الحسّاس

الحديث الذكوري موضوعي «يروي الحقائق». فالرجل يحب أن يتكلم ويسمعه الآخرون، لأنه يحرك بهذه الطريقة أفكاره وحده، بعيداً عن أي تغيير أو تعديل أو تطفل من شخص آخر. لهذا يشعر بالسعادة حين يُطلب منه الكلام أمام جمع، فهذا النوع من التواصل يؤهله

للاستيلاء على السلطة ولفرض وجوده بين الناس.

أما الحديث الأنثوي فحسّاس «يراعي مشاعر الآخر». إنه قائم على العلاقة التي تنشئها المرأة مع الآخرين. والكلام يساعدها على إقامة تبادل في الأفكار. المرأة تفضل الحوار، والحديث المتعدد الأطراف، أو حتى أن يتكلم الجميع في آن معاً. وهذا الميل لديها يتناقض وحب الرجل للوعظ من على منصة ليسمعه الجمع. إلا أن الحوار يجعل المرأة تتميز هي الأخرى وتلفت الأنظار.

تعشق المرأة الثرثرة، والتواصل مع الآخرين، إلا أنها حين تتكلم لا تقصد بالضرورة تقديم معلومة. ولقد تبين لنا أثناء دراستنا هذه، أن المرأة في الفترة التي تسبق الحيض يمكنها حتى أن تتفوه بكلام لا معنى له البتة.

أما أبلغ خطبها فتؤديها في الفترة التي يبلغ فيها إفراز هرمون التستوسترون ذروته لديها، وهو هرمون ذكري بامتياز، أي في فترة الإباضة.

نعم للكلام إنما لا للحديث وحدها أمام جمع...

أخيراً نشير إلى حقيقة متناقضة في الظاهر مع صفات الرجل، وهي أنه يستمتع بالاجتماعات رغم عدم ولعه بالكلام. فالاجتماعات بالنسبة له جزء لا يتجزأ من رسالته. والرجال لا يتكلمون في الاجتماعات على أيّ حال، بل يتبادلون وجهات النظر. الاجتماعات مجرد محطّة في إطار نشاطهم، بل مرحلة عقيمة في برنامج أعمالهم، قل وقتاً ضائعاً.

ونرى النساء قادرات تماماً على إنهاء نقاش ما في الساعة السادسة والنصف من المساء الذي يسبق يوم العطلة بعد أن يتنبهن للوقت. في حين أنّ ما من رجل يجرؤ حتى على النظر إلى ساعته ويفضّل أن يرى

الصبح ينبلج على أن ينهي النقاش قبل التوصل إلى نتيجة.

غداء عمل في مطعم مقابل لقاء عمل في مقهى

ثمة تفاصيل تثير الضحك في الحياة المهنية، على الأقل في إطار عمل المسؤولين. فالرجال يهتمّون كثيراً لأمرين اثنين، هما في الواقع امتيازان: غداء العمل وتراكم الأعمال عليهم.

يعتبر غداء العمل تقليداً يتعلق بالرجال أكثر من النساء، بما فيه من أصول وآداب، ابتداء من أخذ موعد، الأمر الذي تقوم به السكرتيرات، وصولاً إلى السيجار، الذي يطفئه المدعو بعد إشعاله فوراً، إن لم يكن يحبّ تدخينه.

أما المطعم الذي يتمّ الحجز فيه، فمن الضروري أن يكون فخماً بعض الشيء وأن يعج برجال الأعمال الجالسين إلى الطاولات المجاورة.

والأحاديث التي تدور على الغداء تنحصر بالكلام عن العمل لكن بدون الإفصاح عن متاعبه، والسياسة بدون الإفصاح عن التيار الذي ينتمي إليه المتحدث، والرياضة بدون أي قيود.

أما النساء فهن طبعاً يقمن غداء عمل إلا أن القواعد أقل تصلباً من قواعد الرجل. فهن يأخذن مواعيدهن بأنفسهن، ويمكن أن يفي أي مقهى بالغرض. ولا تتردد النساء في الكلام عن حياتهن الخاصة، لا بل من المستحسن أن يفعلن ذلك، لأنهن بهذه الطريقة يوثقن عرى العلاقة مع جليسهن مظهرين الثقة المتبادلة بينهما. ولا ينظرن إلى الساعة خلسة بل علنية ويعتذرن قائلات إنهن يرغبن بالعودة إلى المكتب من دون تأخير.

لماذا؟ لأن عليهن إنهاء الكثير من الأعمال. فحتى لو كنّ يحتللن

مناصب مرموقة في الشركة، فهن يرغبن بالعودة إلى منازلهن في ساعة مبكرة للجلوس قليلاً مع الأولاد، أو تبادل أطراف حديث مع المربّية قبل أن تغادر هي الأخرى في عجلة من أمرها.

الرجال منهمكون، بينما النساء مستعجلات

الرجل يتمهّل عندما يتناول طعام غدائه، وهو يقصد التمهل لأنه لا يعلم في أي ساعة سيتمكن من العودة إلى منزله في المساء. حتى أننا نستطيع القول إن المجتمع يعتبر الرجل هاماً إذا ما عاد كل ليلة إلى منزله في ساعة متأخرة، لكثرة ما لديه من أعمال عليه أن ينجزها.

سُئل أحدهم مرّة عن السيجار الذي ينهيه بهدوء في مكتبه والذي يمنعه من الانكباب على الملف الكبير الذي ينتظره، فإذا به يجيب: «على أي حال، أمامي الوقت الكافي. لا أريد أن أصل إلى المنزل قبل موعد حمّام الأولاد! فيا لحظّي التعس إن طلب مني أن أحممهم بنفسي. . .».

ويلاحظ في الشركات التي يكون فيها الحضور الذكري كثيفاً، هدأة سببها نقص النشاط. . . وهي أشبه بمنطقة حرّة، توقيتها فترة ما بعد الظهر. ولعلّ الرجال يحتاجون لهذه الاستراحة كي يهضموا الطعام الذي تناولوه على الغداء. بعدئذٍ تتجدّد حيويتهم قرابة الساعة الرابعة أو الخامسة.

ويحدث العكس في الشركات التي تستخدم النساء أكثر من الرجال؛ فالمواعيد الهامة تُضرب حوالى الساعة الثالثة، وتتجنب معظم النساء العاملات في الشركة، المواعيد المحدّدة ابتداء من الساعة الخامسة عصراً. أما في الشركات التي تستخدم العدد نفسه تقريباً من النساء والرجال، والتي تحترم التكافؤ، فيتدبّر كل من الرجل والمرأة أمرهما بالطريقة التي تناسبه. فتقوم النساء بالمبادرات في مطلع فترة بعد الظهر، بينما يتابع الرجال النشاط بعدئذٍ.

في النظام الاقتصادي الجديد، أين النساء؟

الأمر مؤكّد... وبالأرقام: فالنساء لا يرحّبن أبداً بالدوام الحرّ، الذي لا يُحدّد بوقت حضور وانصراف، الضروري في النظام الاقتصادي الجديد. فاستناداً إلى استفتاء صدر في مجلة «فوتور (Futur(e»، وهي مجلة تتناول موضوع التكنولوجيا الحديثة، يبدو أن ٦٨٪ من شركات الأنترنت تستخدم الرجال أكثر من النساء ويترأسها الرجال حصرياً. لكن المستغرب هو أن ٥٠٪ من النساء العاملات في هذا القطاع يعترفن بأن مسؤولياتهن تتخطّى تلك المعهودة في القطاعات التقليدية. و٧٣٪ منهن يتقاضين أجوراً معادلة لأجور الرجال وغالباً ما تزيد عنها.

مجلة ماري ـ كلير

كانون الثاني/ يناير ٢٠٠١

التسلق للوصول إلى القمة مقابل البقاء في القمة

نشير أخيراً إلى الحقيقة التالية: إذا كانت القيم الذكورية قادرة على دفع أي شخص نحو القمة، فالقيم النسائية هي التي تؤهل هذا الشخص للبقاء في القمّة.

إن هوس النصر، والرغبة في تخطّي الآخرين، وإرادة الزيادة وفرض الذات والتفوق، كلها ضرورية كمصدر للشجاعة والطاقة اللتين يحتاجهما الفرد ليكمل الطريق نحو القمة. ولكن ما إن يتربّع عليها، حتى تعوزه صفات أخرى. من تلك الصفات، القدرة على بحث ملفّات عدّة في وقت واحد، وعلى فرض جو من الانسجام والتعاون مع الآخرين، وعلى حث المحيطين به على العمل كفريق متآزر؛

فضلاً عن ملكة اللغات التي تفرضها العولمة أو النظام العالمي الجديد. ويحتاج الجالس على قمة الهرم أن يصغي للآخرين ويتنبّه لما يحتاجونه وما يقولونه، وأن يكتشف مواهب كلّ منهم.

تلك هي الخصال التي على القائد الرائد أن ينميّها إذا توفرت لديه أو أن يكتسبها فوراً وحالاً إذا كان مصاباً بنقص حاد فيها حتى لو تطلب الأمر دورات تدريب مكثّفة. إذا أراد أن يبقى على القمة ولا يهوى من عليائه، فعليه بذلك دونما تأجيل.

ومرة أخرى نجد الدليل على التكامل، ليس بين المرأة والرجل وحسب، بل بين الخصائص الذكورية والأنثويّة.

المراهقون في أوروبا

في ما يتعلّق بالمراهقين، ابتداء من سن ١٦ـ ١٨ سنة إلى ٢٠ـ ٢٢ سنة، تبقى المشكلة مختلفة. إلا أن الفروقات الأساسية واضحة طبعاً وتشبه تماماً تلك التي ما بين الناضجين، فالفتاة الشابة هي مشروع امرأة والشاب الصغير مشروع رجل.

إنما يضاف إلى المشاكل بعد آخر يزيد الأمور تعقيداً؛ فالمراهقون والمراهقات يسعون كل من جانبه إلى كسب إعجاب الآخر، الأمر الذي يدفعهم إلى الكذب. يتكلمون عن أنفسهم بتملّق ويجمّلون صفاتهم، ويرسمون خططاً قائمة على الادعاء.

عندئذٍ حاولوا أن تتعرفوا عليهم!

وقبل ذلك، تعالوا نطّلع على خصائص المراهقات الأزلية، وعلى المميزات الخاصة بالمراهقين في بداية هذا القرن الجديد.

الفتاة الصبيّة، هي بنت صغيرة ستتحوّل إلى امرأة. فلا شيء يمنعها إذاً من أن تتشبه في آن معاً بالفتيات اللواتي يصغرنها وبالنساء اللواتي يكبرنها. هي تحب أن تكون لها شلّة من الرفاق، والشلة بالنسبة للفتاة يمكن أن تتكوّن من شخصين أو أكثر.

تطمئن الشابات الصغيرات إحداهن الأخرى على حسن خياراتهن. وفي هذه المرحلة، التي تكون فيها هويّتهن مشوشة، يحتجن أكثر من أي وقت آخر للالتزام بقوانين الشلّة. فعندما كنّ أصغر سناً، لم

يفكّرن بالأمر، ولاحقاً لا بد لهن من أن يثبتن شخصيتهن بأنفسهن. وحتى لو ناقشت الفتاة قوانين الشلّة لساعات فهي في الواقع تفكّر كسائر أفرادها، وتحب ما يحبونه، ومن يحبونهم، وترتدي الثياب التي يجدونها مناسبة وجميلة، التي تحمل الماركة نفسها.

الشلّة مقابل الزمرة

تسعى المراهقة إلى كسب إعجاب الآخرين وتقديرهم، فتعمل جاهدة على إقامة علاقات عادلة من الند إلى الند، أشبه بخطة ثابتة، حيث لكل واحدة من الفتيات مكان. الخصومات لا تغيب عن المشهد طبعاً، وهي تؤدي أحياناً إلى تشكيل فرق متفرّعة عن الشلّة الأولى. لكن في معظم الأحيان، وفي مواجهة خطر خارجي، تتكون الشلّة من جديد، وتكون أكثر لحمة من أي وقت مضى. ولا أحد يتكلم عن قائد فعلي، بل يتغير القائد بحسب الأماكن والظروف وقدرات كل فتاة. فلا بأس بأن تكون إحدى الفتيات زعيمة في الصفّ، في حين تنتقل الزعامة إلى أخرى عندما تخرج الشلّة للسهر في مكان عام، وإلى غيرها حين يقصدن السوق للتبضّع. والفتيات يتكلمن كثيراً طبعاً. أما محور أحاديثهن فهو الفتيان خاصة.

من جهتهم، يتجمع الفتيان في زمرة. ويلتزمون بقواعدها إلا أنهم يسعون إلى التفرّد والتميّز، ليُظهر كل منهم أنه الأقوى؛ وفي هذه المرحلة بالذات، أي سن المراهقة، يحاول الشبّان الصغار أن يثبتوا تفوّقهم على الصعيد الشخصي تماماً كما على الصعيد الجماعي، كزمرة. ومن الزمرة يبرز القائد، وهو زعيم في كل الظروف والمواقف. فالتراتبية الهرمية تطمئن الرجال، فما بالكم بالشبان المراهقين! لا يتكلمون كثيراً عن الفتيات، لأن الرجال لا يكثرون الكلام، إلا أنهم لا يفكرون بسوى ذلك.

الزواج موضة رائجة بين المراهقين

في الماضي حين كان الشبان والشابات يغرمون ولو في سن المراهقة، كانوا يرتبطون ارتباطاً حقيقياً أبدياً فلا مجال للتردد. أما اليوم فأين نحن في ذلك؟ الشباب تائهون. يفكّرون بجد وربما بشكل تشاؤمي بمستقبلهم، مما يدفعهم إلى التردد.

وهم في ذلك ربما يكونون أكثر تعقلاً من أهاليهم الذين يجنّ جنونهم عندما يعلمون أنهم يقيمون علاقة جادّة وثابتة في سنّ مبكرة. فمعظمهم يتوق إلى إقامة علاقة حقيقية مع الجنس الآخر، لها كل حظوظ الديمومة والاستمرار. وربما يثبت صحة هذا الكلام استفتاء أجراه مؤخراً في فرنسا طلاّب جامعيون مع طلاّب آخرين تتراوح أعمارهم ما بين ١٨ و٢٢ سنة. فقد اتّضح على أثره أن الزواج موضة رائجة اليوم أكثر من الماضي القريب.

٧٨٪ من الشباب والشابات الذين طرح عليهم سؤال أعلنوا أنهم راغبون بالزواج، مرة واحدة وللأبد. علماً أنهم يعون أن ما يفعلونه هو «رهان على المستقبل» الذي هو في حكم الغيب ولا أحد يعلم ما في الغيب. وتشير الأرقام إلى أن تلك الإجابات كانت متساوية ما بين المراهقين ذوي الوالدين المنفصلين وأولئك الذين لا يزال أهلهم متزوجين. هكذا أثبت الشباب أنه يريد تكريس علاقاته بسنّة الزواج. وأكّد ٥٨٪ من الفتيات و٤٧٪ من الفتيان أنهم يتقبلّون بكل سرور مراسم الزفاف من خطوبة إلى أزياء الاحتفال إلى الطقوس الدينية، إلخ. . .

والملفت في الأمر أن ٩٨٪ من الفتيات أعربن عن رغبتهن في الاستقلالية المادية عن أزواجهن. والحب في كل هذا؟ لمَ لا، ما دام لا يطيح بحياة أو بمهنة. هذه الموافقة العقلانية على الحب تحمل في

طيّاتها الترياق الشافي من الشغف. فحين سئل المراهقون: «هل تتخلّى عن كل شيء للّحاق بحبيبتك/ حبيبك أو زوجك؟» كانت الإجابات السلبية أكثر من الإيجابية بنسبة ٨٨٪.

وفي عداد النسبة المتبقية أي ١٢٪، لوحظ أن الأكثرية هي من الفتيات.

ينبغي الإشارة في النهاية إلى أن المجموعة التي أجرت هذا الاستفتاء هي من طلاّب السنة الثالثة ولم يشاؤوا فصل من يستفتونهم إلى معسكرين: الفتيان والفتيات. لعل هذا الأمر هو الأكثر مدعاة للاستغراب في هذا الاستفتاء.

مدارس للبنات ومدارس للفتيان، مقابل المدارس المختلطة

للمرة الأولى في تاريخ البشرية، نواجه جيلاً تُربّى فيه الفتيات والفتيان معاً وبالطريقة نفسها. فمنذ بضع سنوات فقط لم تكن المدارس مختلطة كما هي اليوم.

من ناحية أولى، الفتيان والفتيات يتلقّون علومهم في المدارس نفسها، مما يدفعهم إلى الاختلاط في ما بينهم يومياً. هكذا علم كل جنس كل شيء عن الآخر وحفظه. فهم يمارسون الرياضة معاً ويترافقون على طريق العودة إلى المنزل وأحياناً يدرسون معاً حتى ساعة متأخرة.

تلك الوخزة الصغيرة، التي يثيرها الغموض المحيط بالجنس الآخر، الذي نجهله، الذي يبقى محجوباً حتى يحين موعد التعرّف عليه... تلك الوخزة التي تدغدغ وتدفع إلى الإقدام، التي تؤلم ألماً لذيذاً، لم يعد لها اليوم وجود. ولكن لا بأس، ربما كان ذلك أفضل. فعلى خط موازٍ لم يؤثر غياب هذه الوخزة على شوق كل من

الجنسين إلى الآخر، بل على العكس زاد وتضاعف بفعل ذلك الاحتكاك اليومي.

لكن هل ما زال الرجل والمرأة يرغبان أحدهما بالآخر بالقوة نفسها أم أن تلك الرغبة تراجعت؟ الله أعلم.

ومن جهة ثانية، يتوقع المجتمع اليوم من الفتاة، أن تدخل حلبة الصراع والمنافسة باندفاع الفتى نفسه. في الماضي القريب كان ٨٠٪ من الطلاب في مدارس الصبيان يدخلون الفرع العلمي في الصفوف الثانوية، مقابل ٨٠٪ من الطالبات في مدارس البنات، يتابعن الفرع الأدبي في الصفوف الثانوية.

أما الآن، فما زالت الصفوف العلمية هي الأكثر عدداً وهذا شيء طبيعي بالنظر إلى الفكر الذكوري الطاغي، إلا أن عدد الفتيان والفتيات فيها يكاد يكون متساوياً. من البديهي أن تمتلك الفتيات البراعة والقدرة نفسها في الحقل العلمي، إذا أعطين الفرص نفسها كالفتيان وتمّ توجيههنَ بالطريقة نفسها نحو السعي إلى النجاح الآن وفي المستقبل.

الفتيان والفتيات متساوون ويسعى الأهل جاهدين لترسيخ هذه الفكرة في عقولهم. ولا تنقص سوى خطوة واحدة بعد ليصبح من المؤكد أن الفتى والفتاة متماثلان وهذه الخطوة خطاها الناس فكرياً برشاقة.

تلك هي المعضلة: فكيف نطلب من الشبّان والشابات أن يغيّروا وجهة تفكيرهم ويعتمدوا مراجع مختلفة عندما يتعلق الأمر بشيء غير الدراسة والتحصيل. . . شيء كملف العلاقات العاطفية؟ من أين لهم عندئذٍ أن يعرفوا الدور الذي على كل من الشاب والشابة أن يلعباه؟

العلاقات الوديّة مقابل العلاقات العاطفية

أخيراً، يتكلّم هؤلاء الشباب عن الثقة، لأنهم يفتقرون إلى ثوابت مؤكّدة ويجدون صعوبة في الوثوق أحدهم بالآخر وبأنفسهم. حتى أنه يتعذّر عليهم أحياناً أن يفهموا اللعبة التي يلعبونها. فالشاب والفتاة يعرفان بعضهما البعض جيداً ويتقابلان كل يوم، فإذا ما تحولت علاقتهما الودية إلى علاقة عاطفية، حاولا ابتداع الغموض والغرابة المفقودين. وادعى كل منهما تقلّب المزاج. وجرّب كل من جانبه أن يفاجىء الآخر بأشياء لم يكن يتوقعها منه.

تتحدى الفتاة صورتها الأصلية، فتلعب دور المرأة المتحرّرة التي لم تعد المغريات تؤثر بها. ويخجل الشاب من إظهار عواطفه واندفاعه فيقنّعها ويخفيها. يقول أحدهم إنه سيتصل بالآخر غير أنه لا يفعل، وعن قصد لا يفعل. إذ يأمل أن يوّلد الانتظار رغبة ما. أما الطرف الآخر، فيقتنع بأن الآخر لا يهتمّ لأمره وإلا لماذا لم يتّصل؟ ويحاولان كل من جهته أن يتخطّى هذه العلاقة ويشفى منها.

وينتقلان كل من جهته إلى علاقة جديدة، قبل أن يمنحا علاقتهما الحالية فرصة للحياة.

أحياناً يكتفي المراهق أو المراهقة بعلاقة صداقة وبوح مشاعر ومشاكل. لعلّهما يفعلان ذلك خوفاً من علاقة من نوع آخر، أو سعياً إلى روابط مريحة غير مقلقة. وهذه العلاقة غالباً ما تكون مصطنعة، يبوح فيها الشاب بشؤونه وشجونه إلى الفتاة التي يريد إثارة إعجابها؛ وتضعف عملية البوح هذه مشاعر الطرفين إن لم تقض عليها كليّاً.

فإذا أراد الطرفان أن ترتدي علاقتهما هذه طابعاً آخر، ارتبكا وما وجدا إلى ذلك سبيلاً. الفتيان يحلمون بأن تكون الفتيات أكثر شجاعة ليأخذن المبادرات في حين تتمنى الفتيات أن يعلم الفتيان ما يريدونه بالضبط.

باختصار شديد، حين يجهل أحد الطرفين طريقة التصرف المطلوبة يفضّل أن يعتمد على الآخر، وينفّذ إرادته، لئلا يضطر إلى طرح الكثير من الأسئلة.

إنها حقاً لعبة خطيرة، لا يربح فيها إلا الأكثر نشاطاً وإقداماً.

ولكن كيف يظهر الإنسان على حقيقته ما دام هو نفسه لا يفهم نفسه بوضوح؟ وإذا كان يجهل ما يريده فعلاً فما السبيل إلى تحقيق المراد؟

الأخذ مقابل العطاء

تترافق الحياة العاطفية التي يحياها المراهقون وهواجس وأفكار مسبقة ورثوها عن جيلين أو ثلاثة أجيال سبقتهم. فهل تحب الفتيات العلاقات العاطفية المشبوبة أم أنهن يدّعين ذلك إرضاء للفتيان؟ وهل يعتبرن هذه العلاقات أمراً محظوراً حتى الكلام فيه؟ هل يتباهى الشبان بعلاقاتهم؟ وهل هذه العلاقات تستحوذ فعلاً على كامل تفكيرهم؟ هل تعلّموا السيطرة على أنفسهم؟ أم أن الانفتاح العصري الحديث جعل هذا الموضوع أقلّ غموضاً وبالتالي أقل حواجز وموانع مما أدّى إلى تقليص الرغبة لدى الشبان؟ تلك الخارطة الجديدة للحياة العاطفية جعلت المراهقين يتوهون عن طريقهم. ناهيك طبعاً عن الأمراض المرعبة كالإيدز التي تزيد الأمور تعقيداً.

وبعدئذٍ، يمكننا أن نتصور إلى أي حدّ يشعر المراهقون بالكبت في إطار علاقاتهم العاطفية. ومصدر هذا الكبت لم يعد كما في السابق، الأهل والعائلة والمجتمع، بل هم أنفسهم. ويشكل تخطّي هذه المشكلة صعوبة كبرى. لعلّ المشكلة الحقيقية تعود إلى عهد الكهف. ففي البداية ظهرت صعوبة الأخذ عند الفتاة والعطاء عند الرجل.

فإذا كانت المرأة في العهود القديمة غير واثقة من أنها تستحق الاهتمام الذي يوليها إياه الآخر، فما بالك إذاً بصبية صغيرة؟ وإذا كان الرجل في الإطار القديم نفسه، يجد صعوبة في إظهار عاطفته أو منحها، فما بالك بشاب صغير؟.

ويلي ذلك صعوبة الانفتاح على الغير لدى الفتيات والعزلة لدى الفتيان والحاجة إلى الكلام لدى الفتيات وإلى الصمت لدى الفتيان. والحاجة للانتماء إلى جماعة لدى الفتيات ولتزعُم مجموعة لدى الفتيان، والحاجة للانسجام والتناغم لدى الفتيات وللمنافسة لدى الفتيان، الحاجة للرومنسية لدى الفتيات... الخ. يؤكّد كل ذلك على وجود فروقات حقيقية ما بين المراهقين. ونفهم مرة أخرى أن المتهم ليس كل واحد منهم على حدة، فهم نسخة جماعية غير إرادية عن الإنسان الأول غير المتغيّر وغير المنقرض. أي أنهم صورة عن الذين سبقوهم إلا أنهم أصبحوا اليوم يتكلمون بشكل أفضل عن مخاوفهم، وعن خشيتهم الوقوع في الخطأ، وربما استطاعوا أن يتخطوا كبتهم وخيبة أملهم من عدم رؤية الجنس الآخر يتفاعل معهم كما يريدون ويتمنّون.

لماذا لم يتصل بي؟ لماذا لا تبدو واثقة من رغبتها بالخروج معي؟ لماذا لا يقول إنه يهتم لأمري؟ لماذا تبدو أكثر فرحاً حين تتحدث مع رفيقاتها مما لو كانت وحدها معي؟ لماذا يفضّل أن يلعب كرة المضرب مع رفاقه على أن نذهب معاً إلى السينما؟ لماذا يريد دائماً...؟ لماذا لا تريد أبداً...؟

لأنها الطبيعة. ولكن لا بأس!.

وصفات للزوجين

سنعتمد هنا على أنكم قرأتم ما سبق وفهمتموه: تصوّروا أن الرجال والنساء مختلفون...

علينا أن نؤمن بأن محاولة جعل الزواج يستمرّ، يمكن أن يولد من طريقة طرح المشكلة. أي أن علينا أن نقبل بالآخر كما هو، بكل سيئاته، وأن نصدّق أنه لا يتصرف كما يتصرف رغبة في إزعاجنا أو بدافع من عدم رغبته ببذل أي جهد، بل لأنه لا يقوى على غير ذلك؛ إنها طباع ورثها عن الأجيال السابقة انتقلت إليه في جيناته الوراثية، وبالتالي هو لا يستطيع أن يتحاشاها. عندئذٍ نكف عن حقدنا عليه ونرفع راية السلام، ونعيش هذا السلام مبتسمين مهنئين أحدنا الآخر على ما توصّلنا إليه.

والآن، إذا شئتم ألا تتبلّلوا فابتعدوا عن البحيرة، إذ بقيت أمامنا مقولة ثقيلة علينا أن نوردها: «فما من رجل هو رجل صرف وما من امرأة هي امرأة صرف!».

الحساب مقابل الفلسفة

من حيث تركيبة الإنسان الطبيعية، يحمل كل فرد، سواء أكان رجلاً أو امرأة، ناحية أنثوية مضبوطة باتقان لتلائم الناحية الذكرية. فلا تظنوا أنكم تعانون من خلل إذا لم ينطبق عليكم وصف الخصائص المميزة لجنسكم.

وهذا الرد برسم المشككين الذين شكّوا بما ورد في هذا الكتاب واعتمدوا على تجاربهم فحسب.

وهنالك ما هو أفضل مما تقدّم؛ إذ يعتبر بعض المؤلفين أن التحوّلات الاجتماعية في الربع الأخير من القرن الماضي، منحت كل جنس فرصة لاختبار مواقف الجنس الآخر وسلوكه، أي نقاط قوته ومكامن ضعفه. مما دفع الجزء الآخر في داخلنا، ذلك المخالف لجنسنا الفعلي، للتطوّر إلى حد التسبب في بروز شخصيتين لدى الإنسان الواحد. فإذا حسبنا جيداً، وإذا صدّقنا ما أوردته الفيلسوفة «بول سالومون» في كتابها الذي يحمل عنوان «أنا قادرة على أن أتغيّر»، نحصل على النتيجة التالية:

«الزوجان ليسا حصيلة جمع بين شخصين (١+١=٢)، ولا حصيلة دمج (١+١=١). الزوجان هما حصيلة حساب غريب: (١+١=٤)؛ قطبان ذكريان وقطبان أنثويان». أي أن المسرح يزدحم بمن عليه.

وفي إطار هذه الفلسفة ذاتها، نعلم أنه إذا عاش كل إنسان بحسب قوانينه الخاصة، عليه أيضاً أن يعيش بحسب قوانين الحياة المشتركة. ولكي تنجح هذه المعادلة على المدى الطويل، على كلّ من الزوجين أن يسعى إلى تغيير نفسه عوض أن يرجو تغيير الآخر.

هكذا يرتدّ كل منهما على أعقابه منهكاً لكثرة ما ارتكب من أخطاء تقنية.

ومتى نبدأ هذا التغيير؟

إذا ما تابعنا تحليل «بول سالومون»، نرى أنّ علينا ركوب عجلة التحوّل، وتجربة القناعة الداخلية والخارجية، أي إمكانية أن نكون على حق أو مخطئين في ما نعتقده ونفعله. هكذا يعيش في داخل «النحن» «أنا» مزدوجة يختلف كل قسم منها عن الآخر تمام الاختلاف.

لكننا هنا لا نشعر بقوة هذه الازدواجية إلا قليلاً. لذلك سنبقى على أرض الواقع ونقدم بعض الحلول الذكية. لن نعرض نظريات معقدة بل مهارات عملية، لا تؤخذ على محمل المأساوية.

فماذا نخسر لو حاولنا؟

الصورة مقابل الطبيعة الجامدة

لكثرة ما نعيش بالقرب من الآخر، لا نكاد نراه. وإذا تسلحنا بآلة للتصوير يزداد الطين بلّة. نحرك العدسة إلى اليمين وإلى اليسار ومن فوق إلى تحت. آه... يا له من جبل عال!... وتُؤخذ الصورة، والنتيجة: ياه، ما أجمل أولادي! ونأخذ صورة أخرى، والتعليق عليها هو: يا لزرقة البحر الجميلة! وصورة بعد صورة، لا يرى المصوّر فيها شريك (أو شريكة) حياته. فأين هو يا ترى؟ لماذا، بعد أن تمرّ فترة الشغف والحب، لا نلتقط صورة لشريك حياتنا؟ جربوا وسترون، أنه استنتاج مؤكد!.

لا نتحدث عن صورة جماعية مع الأولاد أو الأصدقاء أو فريق كرة القدم... ولا عن صورة مع منظر غروب يخطف الأنفاس... ولا مع طير استوائي ملفت للنظر. لا... نحن نقصد صورة له أو لها وحدها أو وحده ولا أحد شريك لها أو له فيها. صورة يلعب فيها الآخر دور البطولة، ويحتل صدارة العدسة، ويحتكر اهتمام المصوّر وعاطفته. ألا تنجح تلك الصورة؟ فالآخر، سواء أكان رجلاً أو امرأة، يحتاج حداً أدنى من الاهتمام. ومن الأفضل أن يحظى بالحد الأقصى منه، لكن لا داعي لطلب المستحيل! هل أصبح الآخر يزعجكم، مع مرور الوقت، إلى حدّ يجعلكم تقرّرون تجاهله، للحدّ من الأضرار الناجمة عن هذا الإزعاج؟

غيّروا إذاً خطتكم!

حاولوا أن تتذكروا الأسباب التي دفعتكم لتغرموا بهذا الشخص... حاولوا ذلك بجدية... حاولوا أن تذكروا اللحظات الإيجابية التي مرّت في حياتكما المشتركة. حاولوا أن تسترجعوا الأوقات الحميمة، والإحساس بذوبان قلوبكم في هذه المناسبة أو تلك... أي باختصار، الشعور الذي كان ينتابكم عند اللقاء بالآخر في بداية عهدكما معاً. إن هذه العملية تشبه التكييف، أي توجيه الذات، وتحقق نجاحاً مذهلاً.

ويؤكد العالم النفساني جون غوتمن «خبير الزواج والحب»، في كتابه «أسرار الزواج السعيد»: «أن الحب والاحترام لم يخبُ وهجهما في عدد كبير من الزيجات. إلا أنهما يرقدان تحت طبقات ثقيلة من السلبية والمشاعر المجروحة والخيانات».

احفروا. ففي الأعماق مشاعر إيجابية. أليس كذلك؟ إذاً احفروا أعمق من هذا بعد!.

الانتقاد مقابل نبل الأخلاق

لكثرة ما نعيش بالقرب من الآخر، نكاد لا نراه. أو أننا نراه عندما يرتكب هفوة كبيرة فحسب، تستدعي انتقاداً لاذعاً. أعيدوا الفيلم إلى أوّله.. سوف نرسم المشهد من جديد. الهفوة ارتُكبت وانتهى الأمر، لكن دعكم من الانتقاد. ما الذي يبقى. الهفوة؟ صحيح.

ومن دون الانتقاد لا شعور بالحنق، ولا بالمرارة، ولا جدال لمجرد بروز حجّة ما.

أي مكسب نحققه من ذلك؟ السلام. ويسمّى سلام المنزل الزوجي. يتوجّب على الطرفين تجنّب الانتقادات، لا بل إلغاؤها إلغاء تاماً.

فالانتقادات اللاذعة تقوّض أسس الزواج، أكثر من أي إغراء جنسي خارجي. وعلى عكس ما يُعتقد، لا ينهي الرجل، أو المرأة، علاقته الزوجية بدافع من انجذابه إلى امرأة أخرى بشكل لا يُقاوم، بل لأن علاقته بزوجته وصلت إلى حدّ من التداعي الشديد، مما جعله يخضع لإغراء أي امرأة تبتسم له.

تعتقدون أن هذا الأمر يحصل للآخرين فقط، لأنكم أنتم تحافظون على وضوح الرؤية؛ وتشكّون بأن يكون هذا السبب هو ما قد يدفعكم أنتم إلى الخيانة. تفضلون الظن بأن السبب هو قصة حب عاصفة. . . دكّت أسوار مناعتكم. بهذا الشكل ترسمون لأنفسكم صورة أجمل مما لو اعترفتم بأنكم هرعتم إلى أول مخرج وجدتموه للمشكلة، لأن علاقتكم الزوجية لاقت فشلاً ذريعاً؛ والسبب هو أنكم لم تجدوا الشجاعة الكافية لإصلاح الأمور كما ينبغي.

هكذا تكذبون على أنفسكم! ولكن من يستطيع أن يلومكم؟ لا أحد. أتذكرون؟ قلنا لا داعي للانتقاد واللوم.

اللطف مقابل التجريح

حسناً، لا انتقادات. ولكن لا أحد يطلب منكم أن توافقوا على كل شيء في كل وقت. أيزعجكم أمر ما؟ عبّروا عن رأيكم في الحال. لا تؤجلوا لسببين: أولهما هو أن التأجيل والكبت سيعطي الأمر حجماً وبعداً كبيرين لم يكن لهما وجود في البداية. وثانيهما هو أن الطرف الآخر سينفي فعلته، شكلاً ومضموناً، إذا ما قدّمتم له الطبق بارداً. لا أحد يمتلك فيلماً مصوراً عن مشاهد الحياة اليومية، ليستعمله متى أراد. ومن المرجّح أن تُتّهموا بتبييت نية. . . هدم العلاقة الزوجية بداعي الشرّ فقط. وربما ظن المتهم بأنكم أجّلتم جلسة المحاسبة، لتتمكنوا من التراجع ثم الانقضاض بشكل أكثر فعالية. . . وبأنكم

ادعيتم العفو عنه مرحلياً لتتمكنوا لاحقاً من التغلب غلبة حقيقية.

إذاً من الأفضل أن تقولوا ما لديكم فوراً. وتسألون عن طريقة للإفصاح عمّا يزعجكم من دون التجريح بالآخر؟ الأمر صعب لكنه ليس مستحيلاً. عليكم من ناحية أولى أن تتجنّبوا اللهجة الناقدة. إنها نصيحة بسيطة جداً لكنها فعّالة. فالآخر يتقبّل أسوأ ملاحظة أكثر من إطراء خبيث يُقصد به عكس ما يقال.

مثال على ذلك، قولي سيدتي: «أتعلم، بشأن ذلك الخاتم الذي اشتريته لي... أنا سعيدة حقاً لأنك فكّرت بأن تشتريه لي لإسعادي. لكن، بصراحة... أنا آسفة حقاً، لكنه لم يعجبني. أيزعجك أن نستبدله بآخر. سنذهب معاً في الأسبوع المقبل». عوض أن تقولي: «قلت لك إنه يعجبني كثيراً. ماذا تريد بعد؟ أن أقرّ لك بذلك خطياً؟».

أتريدون مثالاً آخر؟ حسناً.

«أتعلمين، لست واثقاً من أن القميص الذي ترتدينه يليق بك. اللون الأزرق يناسبك أكثر». عوض أن تقول سيدي: «هل لبست القميص الأبيض؟ لا، لا شيء. إنه ممتاز. بلى، بلى أؤكد لك. إنه يليق بك». وتفادوا سيداتي وسادتي لهجة الازدراء التي تخلّف وراءها آثاراً لا تُمحى تذكّر بالذل والمهانة.

النقاش مقابل الجدال

من ناحية أخرى، لا تستغلنّ هذه النصيحة لتذكّرنه كل مرة بالأمر الذي أزعجكن فنحن لا نقصد في هذا الكتاب أن نكتب تاريخ حياتكم الزوجية، ونوزّع عليكم الأدوار الجميلة، بل نودّ أن نجعلكم تتفادون الخلافات، وأن تتوصّلوا إلى نقاش لا إلى جدال.

ربما تتساءلون ما المشكلة في الجدال؟ أولاً لأن الجدال أشبه

بجثث تعيق الدرب وتفسد المنظر. نحن لا ننتقل من جدال إلى آخر بل نتابع خلافاً واحداً بلا كلل ولا ملل. والأسوأ من هذا، أن آثار الجدال المؤذية تتراكم وتتجمّع بوتيرة متسارعة. وبعد مرور عدد من سنوات الحياة المشتركة، يؤدي الجدال نفسه إلى حرد يدوم مدة أطول بثلاث إلى خمس مرّات منه في بداية العلاقة.

وثمة أمر يظهر فيه عدم المساواة بين الرجل والمرأة، وهو الجدال. إذ يبدو أن ٨٠٪ من الجدالات تثيرها النساء؛ هذا لا يعني بالضرورة أنهن سبب الجدال، غير أنهن يشكلن الطرف الذي يصرّ على «الكلام في الموضوع».

المرأة مجهزة بشكل أفضل من النواحي كافة، لخوض مثل هذه الممارسات في الحياة الزوجية. فهي أولاً، تحب الكلام أكثر من الرجل. ثانياً، كلما زادت لديها كمية التوتر والضغط النفسي كلما احتاجت لتنفيسها بواسطة الكلام مما يجعل الجدال متنفّساً مناسباً لها. والأهم من هذا هو أنها قادرة على استنفار قدراتها الفكرية كلها في آن واحد، فتجهش بالبكاء المرّ الذي يؤثر بالطرف الآخر، وفي الوقت عينه توجه لهذا الأخير حجة مخادعة تشله شللاً كاملاً.

أما الرجل في مثل هذه الحالات، فيواجه صعوبة في الرد بحذاقة. ويحاول أن يضع انفعالاته جانباً ليتمكن من استنفار فكره. ها هي زوجته قد رمت في وجهه ثلاث أو أربع حقائق وهو ما زال يبحث عن كلام للردّ على الحقيقة الأولى. وفي حال لم يستطع أن يثبت قدميه في أرض المعركة، وجاء الهجوم شرساً عنيفاً بحيث تسارعت له نبضات قلبه لتبلغ ١٦٥ نبضة في الدقيقة في حين أن عدد النبضات في الحالة الطبيعية لا يتعدّى ٧٥ نبضة، وإذا ارتفع معدل الأدرينالين في دمه بقوة وسرعة، عندئذٍ من المحتمل جداً أن يقرر غريزياً تغيير أسلوب القتال. ترونه ينفعل أمام زوجته تماماً كما كان أسلافه ينفعلون

عندما يهاجمهم ثور وحشي. إذا شعر بالقوة، يدخل الصراع بكل ما أوتي من عدائية فيضرب على كل الأوتار وبأعنف شكل ممكن، غير آبه بالألم الذي يتسبب به لشريكته. أما إذا لم يجد نفسه على مستوى هذا الصراع، فترونه يهرب. وفي الحالتين ستكون النتيجة كارثة.

من المستحسن إذاً أن نتناقش. والنقاش هو، كما تعلمون طبعاً، الكلام بلطف وبهدوء، على طريقة الشراكة والتواطؤ. الكلام عن الإيجابيات والسلبيّات. النقاش هو القدرة على الإصغاء إلى الآخر وإلى ما يريد قوله، والقدرة على التقدم بطلب ما.

وتذكروا جيداً: عندما يحدث الطلاق نقول إن الآخر هو المخطىء. فهل الجميع على خطأ؟ وإذا كان الجميع مخطئين فمن على صواب إذاً؟ ما عداكم أنتم طبعاً...

مع مقابل ضد

هيا، لنُقِم السلام في ما بيننا. ولنقل إن لا أحد على خطأ. وإذا كان لا بد مِن مخطىء فلنبحث عنه عند الآخرين، وليس فينا نحن الزوجين، وليس في المقرّبين منّا. وليس في عشيرتنا. فإذا انحرفت السيارة لا تقولي أو لا تصرخي معاتبة: «ما بك؟ ألا يمكن أن تتنبّه للطريق...»، بل: «ما بال هذه الشاحنة أمامنا. هل السائق مجنون ليضغط هكذا على المكابح فجأة؟!».

وإذا عاد أحدكما إلى المنزل مكشّراً نكداً لأن اجتماعه لم يسر كما كان يريد، لا يستقبلنّه الآخر بقوله: «قلت لك إنك لم تحضّر لاجتماعك هذا جيداً»، بل: «ليس ذنبك إن فشل الاجتماع، هذا مؤكد، أقطع يدي إن لم يكن ذلك المختلّ زميلك، قد فعل ما في وسعه ليعكّر مزاج ذلك الفاشل الآخر. ولا بد أنه تعمّد ذلك لتأتي ردة فعله على طرحك سلبية. ولكن لا عليك. في المرة التالية، أنت من سيريهم...».

ربما كان هو فعلاً من جعل السيارة تنحرف لقلّة انتباهه؟ وربما كان هو

من أسماء التحضير لاجتماعه؟ حسن، ما الذي يثبته ذلك؟ الحقيقة ليست فضيلة كبرى. وفي بعض الأحيان يكون قول الحقيقة عيب لا يحتمل. أهم ما في الأمر أن يشعر الآخر بدعم شريكه أو شريكته... أن يعلم بأن شريكة حياته هي المناصر الأول له، ورئيسة نادي المعجبين به. كلنا نحتاج لمن يدعمنا. فإذا لم يدعمنا من يفترض أنه يحبنا، فمن يفعل ذلك؟ وإذا لم يدعمنا في مثل هذه المواقف، فمتى يفعل؟

جميل بثينة مقابل عمر بن أبي ربيعة (الحب العذري مقابل الحب الإباحي)

أخيراً، بما أن العلاقات الجنسية بين الزوجين، غالباً ما تكون سبب خلاف، إليكم نصائح تساعدكم على تجنّب تلك المشاكل.

أنت سيدتي حاولي أن ترغبي بذلك أكثر مما ترغبين الآن. لماذا نقول ذلك للنساء؟ لأن الرجال لا يعانون عادة من مشكلة الرغبة هذه، ولا يحتاجون مساعدة أحد. وإلا فوسائل الترغيب كثيرة ولا تحصى. أتقولين إنه لا يقدر أن يفعل ذلك؟ إذاً تلك مشكلة أخرى. فالأطباء المتخصصون بعلاج المشاكل الجنسية يجمعون على أن الرجال، وإن كانوا يجدون صعوبة في الفصل بين الحب والجنس، إلا أنهم يعرفون الفرق بين الرغبة والعجز. إن الرغبة الجنسية عند الرجل لا تتغير طوال حياته. لكن هذا لا يعني أن لكل الرجال قدرة على تحقيق طموحاتهم في هذا المجال، في كل وقت من الأوقات. لكن في ما يتعلق بآلية الأمر، لن تستطيع النصائح شيئاً. وأظن أن الحبوب الصغيرة الزرقاء مؤهلة أكثر لحل المشكلة.

أما بالنسبة للنساء فالمشاكل الآلية نادرة أو منعدمة، ولكن المشكلة الحقيقية ترتدي طابعاً نفسياً. لكن لعلهن يستطعن حلّها باللجوء إلى بعض الحيل.

المرأة زهرة زرقاء والرجل مهووس جنسياً. ولتشعر المرأة بالرغبة تحتاج أجواءً مؤاتية ومحاولة تكيّف. تحتاج أن تشعر بنداء الحب يعلو في صميمها. أما الرجل فلا يحتاج إلا أن يطلق العنان لهرمون التستوسترون وهو يتكفّل بالباقي. فإذا عجز الرجل في فيض رغبته عن التلفّظ بتلك الكلمات الحالمة الرقيقة فما المشكلة إن قرأتها المرأة في كتاب؟ أفهمت سيدي. لقد منحناك هنا فكرة لهدية عيد ميلاد زوجتك التالي!.

الجنس مقابل الرياضة

ثمة حيلة أخرى تساعد على التحضير للأمر: إنه الرقص. لا تنسوا أن الرقص في الحضارات القديمة كان طقساً يقام استعداداً لممارسة الحب. فتلك الملامسات، والإقصاء والدنو، والنظرات الغريبة، تجعلكما تعيان نشاط جسديكما ووظائف حواسكما. لكن إذا كنتما لا تحبان الحفلات الراقصة ولا تلبيان دعوات الأفراح، لا شيء يمنعكما من إبعاد أثاث غرفة الجلوس والرقص وحدكما على موسيقى من اختياركما، فما من أحد يراكما.

إليك أخيراً سيدتي حجة، تقنع أكثر الزوجات تمنّعاً: اعلمي أن ممارسة الحب ثلاث مرات في الأسبوع تعادل سباقاً على مسافة كيلومترين. وإذا حسبت المعدّل تحصلين على ١٢٠ كلم تقطعينها سنوياً. ولكي تكون النتيجة مضمونة، وتضاهي علاجاً منحفاً، عليك أن تقدمي على الأمر بحماس ونشاط. أي من صميم القلب.

وعلى أي حال، أليس الحب موضوع حديثنا هنا؟!

المحتويات





لكثرة ما ردّدوا علينا مراراً وتكراراً أن الرجل والمرأة متساويان، صدّقنا وآمنّا أنهما متشابهان.. ويا له من خطأ فادح!

الرجل والمرأة مختلفان كلياً، والحقائق العلمية هي التي تتكلم:

- لماذا النساء أذكى من الرجال؟
- لماذا تضيع المرأة عن وجهتها دائماً؟
- لماذا لا يسمع الرجل ولا يرى؟
- متى تحب المرأة؟ ومتى تحقد؟
- لماذا الرجل يأخذ والمرأة تعطي؟
- لماذا يصمت الرجل؟ ولماذا تثرثر المرأة؟
- لماذا تكشف المرأة كذبة الرجل دائماً؟
- متى يجب أن يحذر الرجل من المرأة؟
- كيف تختار المرأة رجلها؟
- لماذا يحب الرجال الشقراوات؟

ولماذا تحب النساء الرجل الأصلع؟

... وأخيراً هل صحيح أن معادلة:

الرجل + المرأة = مستحيل؟؟!!

آلين ويلر

صحافية وكاتبة تعيش وتعمل في باريس، صدر لها حديثاً رواية "Baby Sitting" متزوجة منذ أكثر من ٢٥ سنة من الرجل نفسه، ولديهما ثلاثة أولاد..



عُمان 1،200 ريال
مصر 12 جنيه

ISBN 9953-15-092-3

